الهيئة العامة لقصور الثقافة

ذاكرة الكتابة

أعلام الإسكندرية

فى العصر الإسلامى

الدكتور جمال الدين الشيال

الهيئة العامة لقصور الثقافة

أعلام الإسكندرية
في العصر الإسلامي

الدكتور جمال الدين الشيال

ذاكرة الكتابة
شهرية / العدد : ٥٣

أعلام الإسكندرية
فى العصر الإسلامى

• تحقيـــق : د. جمال الدين الشيال
• تصميم الغلاف : غريب نـــدا
• الطبعة الأولـى : ٢٠٠٤
• رقم الإيـداع : ٧٤٣٤ / ٢٠٠٤
• الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 305 - 718 - 6
• المراسـلات : باسم رئيس التحرير
على العنوان التالى
١٦ أ ش أمين سامى – القصر العينى
رقم بريدى : ١١٥٦١
• الطباعة والتنفيذ :
الشركة الدولية للطباعة
المنطقة الصناعية الثانية قطعة ١٣٩ – شارع ٣٩ – مدينة ٦ أكتوبر
ت : ٨٣٣٨٢٤٠ – ٨٣٣٨٢٤٢ – ٨٣٣٨٢٤٤
e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

الإهـــداء

إلى زوجتى

بنت إسكندرية

إلى ولدىّ وبناتى

أبناء وبنات إسكندرية

أعلام الإسكندرية
فى العصر الإسلامى

الدكتور جمال الدين الشيال

- الطرطوشى
- القبارى
- أبو الحسن الشاذلى
- أبو العباس المرسى
- عبد الله النديم
- محمد كريم
- وآخرون

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عنى المؤرخون العرب عناية كبرى بالتأريخ لمدنهم لأن المدن كانت مراكز النشاط الاقتصادى والعمرانى ومصادر الإشعاع الفكرى ، ففيها أقيمت معاهد العلم بمسمياتها المختلفة من مساجد ودور علم ومدارس وخانقاوات وربط وزوايا ، وكانت الرحلة فى طلب العلم تقليداً أساسيًّا من تقاليد المجتمع العربى الإسلامى ، فإذا برز عالم فى مدينة من المدن جلب الشهرة لمدينته ، وكان العالم بدوره يعتز بمدينته فينسب نفسه إليها ، ومن هنا نسبت الغالبية العظمى من علماء الإسلام إلى مدنهم ، كالدمشقى والمقدسى والسيوطى والدمياطى والخوارزمى والبيرونى والقرطبى والفاسى والبغدادى.. إلخ .

فالحضارة العربية الإسلامية فى الأغلب الأعم حضارة مدن ، ولهذا لم يستعمل العرب لفظة « حضارة » بقدر ما استعملوا لفظة « مدنية » و « تمدن » ، ولهذا أيضاً حرص كثير من علماء العرب على أن يؤرخوا لمدنهم الكبرى والصغرى ، ولا نكاد نجد مدينة من مدن العالم الإسلامى لم يؤلف فى تاريخها كتاب ، والمراجع تشير إلى الكثير من هذه الكتب ، وإن كان الموجود منها أقل بكثير من المفقود ، وبعض هذه الكتب موسوعات كبيرة فى أجزاء عدة كتاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، وتاريخ حلب لابن العديم ؛ وبعضها صغير يقع فى جزء واحد كتاريخ الفيوم للنابلسى وتاريخ بيروت لصالح بن يحيى وتاريخ الرقة لأبى على محمد بن سعيد القشيرى . . إلخ .

والمنهج الذى اتبعه المؤرخون العرب للتأريخ لمدنهم منهج سليم ، فالمدينة فى نظرهم ليست مكاناً وبنياناً وحسب ، بل هى قبل هذا كله أناس أحياء ، هم الذين خططوا المدينة ، وهم الذين أقاموا منشآتها الحربية والدينية والمدنية والعمرانية ، وهم أخيراً الذين أكسبوها الشهرة والذكر الحسن ، ولهذا كان مؤرخو المدن الإسلامية يفردون

قسماً صغيراً من كتبهم للتأريخ للمدينة وتطورها ، ثم يخصصون الجزء الأكبر من هذه الكتب للترجمة للنابغين من الرجال الذين أنبتتهم هذه المدينة ، بل للنابهين ممن زاروها أو أقاموا بها ردحاً من الزمن .

وأنا منذ اخترت لنفسي – أو اختار لى القدر – التخصص فى دراسة التاريخ الإسلامى وجدتنى أشغف شغفاً كبيراً بتواريخ المدن وتواريخ الثغور البحرية بصفة خاصة ، فعنيت أول ما عنيت بتاريخ مدينة دمياط – وطنى الصغير ومسقط رأسى – ودلتنى قراءاتى إلى أن المكتبة العربية كانت تضم كتاباً فى تاريخ هذا الثغر ولكنه ضاع ، فجمعت ما توافر لدىّ من معلومات وأخرجت منها فى سنة ١٩٤٩ تاريخاً مختصراً أسميته « مجمل تاريخ دمياط » : وكان يعاصر دمياط فى العصور الإسلامية وينافسها ثغران آخران لا يقلان عنها أهمية ، وهما : ثغر تنيس فى شرقيها ، وثغر الإسكندرية فى غربيها ، وقد لعب الثغور الثلاثة دوراً مشتركاً فى النواحى الحربية والثقافية والعمرانية ، ولهذا كنت أحرص فى قراءاتى على جمع كل المادة التى أعثر عليها عن تاريخ هذه الثغور الثلاثة جميعاً .

وقد عثرت على قطعة مخطوطة بقيت من كتاب ألف قديماً فى تاريخ تنيس بعنوان « أنيس الجليس فى تاريخ تنيس »، وألقيت عنها محاضرة فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى سنة ١٩٥٩ ، وأنا أعد الآن البحث والمخطوطة للنشر .

أما الإسكندرية فقد أشارت المراجع إلى وجود كتاب فى تاريخها ألفه أحد علمائها ومحتسبيها فى القرن السابع الهجرى وهو منصور بن سليم ، ولكن الكتاب مفقود للأسف الشديد .

وقد زاد اهتمامى بتاريخ الإسكندرية بعد تعيينى فى جامعتها فى سنة ١٩٤٣ ، وحرصت منذ ذلك الحين على تتبع تاريخها فى كل المراجع والمظان ، مطبوعها ومخطوطها ، وكنت أحياناً أنتهى من قراءة المجلد الضخم وقد حصلت على سطور قليلة ، ولكننى وجدت بعد سنوات أنه قد تجمع لدى من هذه الشذرات حصيلة طيبة تصلح أن تكون نواة طيبة لكتابة تاريخ لمدينة الإسكندرية .

وفى سنة ١٩٤٩ أعلنت الغرفة التجارية لمدينة الإسكندرية عن عزمها على إخراج كتاب تذكارى لها ، وعن رغبتها فى أن يتضمن هذا الكتاب فصولا عن

تاريخ المدينة فى مختلف عصورها ، وطلبت من أساتذة قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية أن يكتبوا هذه الفصول ، وكتبت أنا فصلا عن « الإسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى » كان باكورة ما أخرجته عن تاريخ هذه المدينة .

وفى سنة ١٩٥٢ كتبت بحثى الثانى عن المدينة ، وخصصته لدراسة طبوغرافية المدينة وتطورها ، ونشرته فى « مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية » بعنوان : « الإسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر » .

وكنت فى مرحلة جمع المادة ألتزم منهج السابقين من مؤرخينا العرب فكنت أحرص على جمع كل الشوارد الخاصة بتاريخ المدينة نفسها وبتاريخ رجالها وأعلامها .

وفى نفس السنة ١٩٥٢ افتتحت الإذاعة المحلية لمدينة الإسكندرية، وتفضل السادة القائمون عليها فطلبوا منى إلقاء سلسلة من الأحاديث عن « أقطاب الإسكندرية » ، واستجبت إلى الدعوة ، وظللت ألقى هذه الأحاديث خلال سنوات ثلاث .

ووجدت بعد أن فرغت من هذه الأحاديث أنه قد تجمع لدىّ مادة كبيرة أخرى عن أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، وكنت كل يوم أعثر على جديد، وكان كل عَلَم يقودنى إلى علم آخر قد يكون أستاذه، وقد يكون تلميذه أومعاصره .

وتبيّن لى أن الإسكندرية الإسلامية قد ظلمت ظلماً واضحاً ، فكل الذين أرخوا لها من أجانب ومصريين ركزوا جهودهم كلها على العصور القديمة اليونانية والرومانية ، وقالوا الكثير عن أمجاد المدينة الحضارية والعلمية فى تلك العصور ، وكانوا إذا وصلوا إلى العصر الإسلامى مروا به مر الكرام، وخصصوا له صفحة أو صفحتين أكدوا فيها أن الإسكندرية قد تدهورت وتأخرت واضمحلت فى كل نواحى حياتها خلال هذا العصر .

كانت إذن هذه الأحاديث الإذاعية هى نقطة البدء ، وانطلقت أقرأ وأتعرف وأجمع ، وإذا بالسحب تنقشع وتتكشف عن الإسكندرية كمركز من أهم المراكز العلمية والثقافية فى العصر الإسلامى ، تضجُّ بالعلماء ورجال الأدب والفكر من

كل صنف ، وتنتشر فى أرجائها المساجد والمدارس والربط ، وتجذب إليها طلاب العلم والعلماء من أقصى المشرق ومن أقصى المغرب .

واخترت عدداً من أبرز هؤلاء الأعلام ، وأعدت كتابة سيرهم مستعيناً بالجديد الذى توافر لدىّ من معلومات ، ولكننى وجدت بعد قليل أننى لو سرت على هذا المنوال والتزمت الدراسة العلمية التفصيلية لسِيَر كلّ مَنْ اخترتُ من الأعلام فإن الكتاب سيتضخم ، ولهذا رأيت أن أخرج للناس هذه الدراسات التى أتممتها والتى تضمها صفحات هذا الكتاب ، وهى ثلاث عشرة سيرة ، بدأتها بالصحابى الجليل أبى الدرداء ، وثنيتها بعَلَم من أعلام الفكر الإسلامى الأُوَل عاش فى الإسكندرية وقتاً ما وتوفى بها ، وهو التابعى الجليل عبد الرحمن بن هرمز (الأعرج) أستاذ الإمام مالك ، وأحد اثنين قنّنا للغة العربية قوانينها ووضعا علم النحو .

ثم انتقلت بعد ذلك إلى عصر الذروة الفكرية والعلمية فى تاريخ الإسكندرية الإسلامية ، فاخترت أبرز أعلامه وترجمت لهم ترجمة مستفيضة ، وأحدهم يمثل مدرسة الحديث ، وهو المحدث الكبير الحافظ السِّلَفى ، وقد انتقل من أقصى الشرق ، من مدينته أصفهان ، واستوطن الإسكندرية ، وجذب إليه طلاب هذا العلم من كل أنحاء العالم الإسلامى ، وتتلمذ عليه المئات بل الألوف .

واثنان آخران يمثلان مدرسة الفقه المالكى ، أحدهما أبو بكر الطرطوشى الذى وفد من أقصى الغرب من مدينة طرطوشة بالأندلس ، واستوطن الإسكندرية كذلك ، وكوّن مدرسة ضخمة ووضع فيها معظم مؤلفاته ، والثانى أبو الطاهر بن عوف ، وهو عالم مصرى من أبناء الإسكندرية ومن أعرق أسرها ، وقد أثبتُّ فى الفصل الخاص به أن الإسكندرية كانت أول مدينة مصرية بنيت فيها مدارس فى العصر الإسلامى .

ونفر آخرون يمثلون المدرسة الصوفية التى عمرت بها المدينة فى تلك العصور ، وعلى رأسهم القطب الغوث أبو الحسن الشاذلى ، وتلميذه أبو العباس المرسى ، وتلميذ تلميذه ابن عطاء الله السكندرى ، ومعاصر هؤلاء أبو القاسم القبارى

ومن العصر الإسلامى المتأخر اخترت أعلاماً ثلاثة هم : السيد محمد كريم ،

والسيد عبد الله النديم ، والشيخ عبد العزيز جاويش، وهم جميعاً يمثلون روح النضال القومى ضد الاعتداء الأجنبى على مصر .

وهذه الدراسات تدل على تنوع الثقافات والتيارات الفكرية فى الإسكندرية الإسلامية ، فمن هؤلاء الأعلام مَنْ كان عالم نحو ، ومَنْ كان محدثاً ،و مَنْ كان فقيهاً معلماً ، ومَنْ كان صوفيًّا أو زاهداً متعبداً ، ومَنْ كان خطيباً أو مناضلا سياسيًّا أو صحفيًّا .

ووراء هذه الدراسات معنى آخر أحب أن أبرزه ، وذلك أن مفهوم القومية الضيق الذى عرفناه مع مطلع العصر الحديث لم يكن معترفاً به فى العصور الإسلامية الأولى ، بل كان مفهوم الوطن هو الوطن العربى الإسلامى الكبير ، ولهذا كان أى عالم مسلم يرحل عن بلده وينزل بأى قطر من أقطار الوطن الإسلامى لا يُشعره أهل هذا القطر أنه غريب عنهم، بل يعتبرونه مواطناً كسائر المواطنين، ويرحبون به .

وهذه النخبة من العلماء الأعلام تؤكد هذه الحقيقة ، فالسلفى من أصفهان، والطرطوشى والمرسى من الأندلس ، وأبو الدرداء وابن هرمز من الحجاز ، وابن عوف وسند بن عنان وابن عطاء الله والقبارى من الإسكندرية ، ولكنهم كلهم عاشوا فى الإسكندرية وملؤوها علماً واعتبروا فى النهاية سكندريين ، فالوحدة العربية التى ننادى بها اليوم لم تكن فى الماضى بدعاً أو شيئاً غريباً ، وإنما كانت حقيقة واقعة ، وكان سلاحها الفعال العلم والثقافة والكتاب .

وبعد، فهذا الكتاب ليس إلا محاولة أولى لدفع الظلم الذى وصمت به الإسكندرية الإسلامية حين اتهمت بالتأخر والتدهور والاضمحلال ، وما زالت لدىَّ حصيلة كبرى من المادة التى تلقى أضواء جديدة على نواحى الحياة المختلفة فى الإسكندرية الإسلامية ، وخاصة الحياة العلمية ، وأنا أعمل الآن جاهداً لإعادة النظر فيما سبق أن أخرجته عن تاريخ الإسكندرية من بحوث ، وإضافة ما وفقت للعثور عليه من جديد ، ليكون من هذا كله كتاب شامل عن تاريخ الإسكندرية فى العصور الإسلامية يعوِّض الكتاب الذى فقدناه والذى ألفه فى القرن السابع الهجرى أحد أبناء الإسكندرية وعلمائها منصور بن سليم .

وبعد مرة أخرى، فهذا جهد متواضع أردت به أن أخدم تاريخ مدينة من أكبر

مدن العالم العربى الإسلامى، كانت عاصمة مصر فى العصور اليونانية والرومانية، وكانت عاصمة مصر الثانية طوال العصور الإسلامية ، وكانت قبل هذا وبعد هذا ثغراً ورباطاً، ولعبت دوراً كبيراً فى الدفاع عن مصر، كما كانت مصدراً لإشعاع فكرى وثقافى له مكانته وأهميته .

أسأل الله مزيداً من التوفيق ، فمنه نستمد القوة ، وبه نستعين لخدمة وطننا العربى وتاريخه .

جمال الدين الشيال

الإسكندرية { ١٠ رمضان ١٣٨٤
١٢ يناير ١٩٦٥

أبو الـــدرداء

عويمر بن عبد الله

الصحابي الجليل

« إن الله وعدني إسلام أبي الدرداء ،
قال : فأسلم »

محمد عليه السلام

« اطلبوا العلم ، فإن عجزتم فأحبوا أهله ،
فإن لم تحبوهم فلا تبغضوهم »

أبو الدرداء

أبو الدرداء[1]

عويمر بن عبد الله

الصحابى الجليل

١

فى الإسكندرية شارع يسمى « شارع أبى الدرداء » ، يتوسطه ضريح لسيدى أبى الدردار ، غير أن العامة من أهل الإسكندرية يسمون الشارع « شارع أبو الدردار» ، ويسمون الضريح « ضريح أبى الدردار » ، ولعلهم حرفوا الاسم هذا التحريف لصعوبة النطق بالألف والهمزة اللتين ينتهى بهما .

وأهالى الإسكندرية — رغم هذا التحريف فى نطق الاسم — يعتقدون فى سيدى أبى الدرداء اعتقاداً كبيراً ، ويروون عن كراماته الشيء الكثير ، وإنك لتلاحظ إذا سرت فى شارع أبى الدرداء أن الضريح يتوسط الشارع على غير العادة ، والترام يسير على جانبيه عن يمين وعن شمال ، فإذا سألت عن السر فى هذا الوضع فإنك تسمع روايات كثيرة ، خلاصتها أن البلدية عندما فكرت فى توسيع هذا الشارع رأت أن تنقل الضريح إلى مكان آخر حتى لا يتوسط الشارع فيعوق المرور ، وبدأت فعلا فى تنفيذ الفكرة ، ولكن واحداً من العمال الذين كانوا يعملون فى نقل الضريح توقفت يداه ، وأصيب بالشلل ، وأبى بقية العمال أن يستمروا فى عملهم ، وأيقنوا أن الولى الكبير والصحابى الجليل يأبى أن ينقل جثمانه من مرقده هذا ، واضطرت البلدية أن ترضخ لاعتقاد العامة ، وأبقت الضريح كما هو ، وتحايلت لتوسيع الشارع من جانبيه ليسهل تيسير الترام ، فخطا الترام فى هذا الشارع يسيران كالعادة متوازيين إلى أن يصلا قرب الضريح فينفرجان، ويدور كل منهما حول الضريح إلى أن يخلفاه وراءهما ، ثم يتقابلان ثانية ليسيرا متوازيين كما كانا ، فهى تحية واجبة يؤديها الترام وراكبوه كلما مرّ بالضريح فى ذهابه وإيابه .

---

(١) نشر هذا البحث ملخصا فى : (المجلة ، العدد ٥ ، مايو ١٩٤٧ ، ص ٩٥ — ١٠١) .

ولسيدى أبى الدرداء كرامة أخرى كبيرة ما زال السكندريون يرددونها بينهم حتى اليوم ، فهو — كما يعتقدون — قد حمى المدينة وسكانها أثناء الحرب الأخيرة من خطر داهم وشر كبير .

ففى ليلة مظلمة حالكة الظلام من ليالى سنة ١٩٤١ عندما اشتدت غارات الطائرات الألمانية وتوالت على المدينة ، كان مبنى محافظة الإسكندرية هدفاً من أهداف هذه الطائرات ، وألقى عليه طوربيد ضخم كان يكفى لتحطيم المبنى والحى المحيط به جميعه ، وهو حىّ آهلٌ بالسكان ، بل لعله من أكثر أحياء المدينة ازدحاماً بالعمران والسكان ، ولكن العناية الإلهية حمت الحى وساكنيه من هذا الشر المستطير ، واستيقظ السكندريون ليروى كلٌّ منهم إلى أخيه كيف أن سيدى أبا الدرداء انتفض من قبره — وقبره مجاور لمبنى المحافظة على بعد أمتار منه — فأبعد الطوربيد بيديه ليسقط فى أرض فضاء مجاورة ، وليستقر فى تربتها الرخوة دون أن ينفجر.

وتقاطر السكندريون من كل فج يشاهدون هذه المعجزة ، ولقد كانت معجزة إلهية حقًّا ، وكانت هذه الأرض الرخوة خير مكان أعدّ لاستقبال الطوربيد الضخم للحيلولة بينه وبين الانفجار ، فلو أنه اصطدم عند نزوله بأى مبنى أو جسم صلب لانفجر ولأفنى الحى ومن فيه إفناءً تامًّا .

ضريح أبى الدرداء

٢
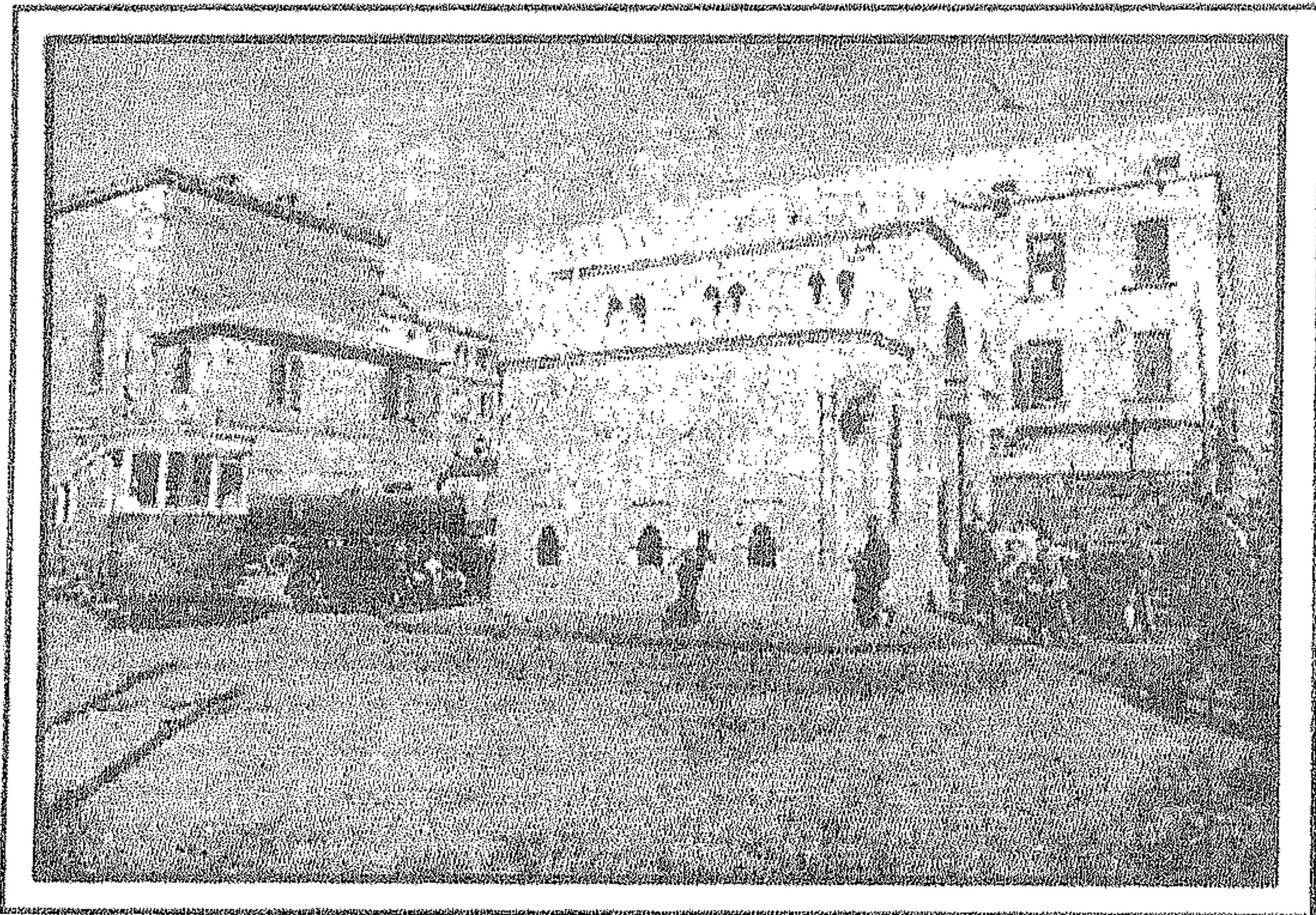
هذه بعض الكرامات التى يرويها السكندريون عن ضيفهم وحارس مدينتهم الصحابى الجليل أبى الدرداء .

فمن هو أبو الدرداء ، وما سيرته ؟؟

اتفقت المراجع التى أرخت له عند ذكر اسمه ، فهو عويمر ؛ ثم اختلفت عند ذكر اسم أبيه ، فقيل : عويمر بن عبد الله ، وقيل : ابن زيد ، وقيل : ابن قيس بن زيد ، وقيل : ابن ثعلبة . ولكن هذه المراجع اتفقت جميعاً فى كنيته التى اشتهر بها ، فسمته دائماً أبا الدرداء ، وسمت زوجته دائماً : أم الدرداء ، فقد كانت لهما ابنة جميلة سمياها « الدرداء » ، ثم رُزقا بعد ذلك بابن أصغر منها سمياه « بلالا » .

وكان أبو الدرداء خزرجيًّا أنصاريًّا ، أى أنه كان ينتمى إلى إحدى القبيلتين الكبيرتين اللتين كانت لهما الزعامة والسيطرة فى المدينة ، وهما قبيلتا : الأوس والخزرج ؛ كما أنه كان من الأنصار أهل المدينة الذين رحبوا بالرسول الكريم عند هجرته إلى مدينتهم ، ونصروه على أعدائه من الكفار .

غير أن المراجع تذكر أن أبا الدرداء لم يكن مبكراً فى إسلامه ، أى أنه لم يكن من الأنصار الأوائل الذين دخلوا فى الإسلام عند وصول الرسول — عليه السلام — إلى المدينة أو بعيد وصوله إليها ، بل تذكر المراجع أنه أسلم يوم بدر ، أى فى السنة الثانية للهجرة .

ولعل السبب الذى دفعه إلى التمهل فى اعتناق الإسلام أنه كان يدرس أصول الدين الجديد ، ويفكر فى تعاليمه ، ليسلم إذا أسلم عن إيمان واقتناع ، فقد كان أبو الدرداء حكيماً بين قومه ، يُرجع إلى رأيه فى الملمات ، مما جعل الرسول عليه السلام يرقب دخوله الإسلام فى حرص وشوق شديدين ، فهو فى عقله وحكمته وشجاعته أمة فى فرد ، رُوى عن الرسول — عليه السلام — أنه قال :

« إن الله وعدنى إسلام أبى الدرداء : قال فأسلم »

والله سبحانه وتعالى لا يعد رسوله الأمين إسلام رجل إلا أن يكون هذا الرجل

قوة يُعتدّ بها ، ويشد بها عضد الدين الجديد إذا انضم إليه ، وليس أدل على مكانة أبي الدرداء عند الله سبحانه وتعالى وإكرامه له من أن آية من آيات الكتاب الحكيم نزلت فى شأنه :

روى أن رجلا قال لأبي الدرداء :

« يا معشر القراء ، ما بالكم أجبن منا ، وأبخل إذا سئلتم ، وأعظم لقماً إذا أكلتم ؟ »

وكان الرجل — كما يبدو — متجنّيًا على أبي الدرداء ، سفيهاً فى قوله ، ولكن أبا الدرداء — وقد تخلّق بخلق الإسلام — كان حليماً كريماً ، فلم يرد عليه الإساءة بإساءة مماثلة ، بل أعرض عنه إعراضاً كريماً .

وبلغت هذه الحادثة عمر بن الخطاب — وهو مَنْ نعرف عنفاً فى الحق وقسوة فى عقاب المعتدى والبذىء ، فسأل أبا الدرداء عن حقيقة ما حدث ، فقال أبو الدرداء :

« اللهم غفراً ، وكل ما سمعنا منهم نأخذهم به ؟ »

ولكن عمر لم يقتنع بهذا الرد ، وانطلق إلى الرجل الذى قال لأبي الدرداء ما قال فأخذ بثوبه وخنقه ، وقاده إلى النبي عليه السلام ، فحاول الرجل أن يعتذر عما سلف منه بأنه كان يمزح ولا يعني ما يقول ، وقال :

« إنا كنا نخوض ونلعب »

فأوحى الله تعالى إلى نبيه بعد ذلك الآية الكريمة :

« ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب » .

٣

وكان أبو الدرداء يشتغل قبل الإسلام بالتجارة — شأن سراة العرب — ، كما كان جنديًا شجاعاً وفارساً مغواراً ، يجيد فن الحرب والقتال ، فلما دخل الإسلام دخله بروحه وكيانه كله ، فتتلمذ على الرسول الكريم — صلى الله عليه وسلم — ، وأخذ من روحه ، وتلقى تعاليمه ، فانطلق فى الحال من عالم المادة إلى عالم الروح ،

وترك التجارة — مهنته الأولى المحببة — وآثر التفرغ للعبادة، لأنه رأى أن الجمع بين الضدين صعب مستحيل ، فالتجارة سعى وراء المادة وفناء فيها ، والعبادة رياضة للروح وفناء فى سبيل تصفيتها والارتفاع بها ، يقول هو عن نفسه :

« كنت تاجراً قبل البعث ، فلما جاء الإسلام جمعت التجارة والعبادة فلم يجتمعا ، فتركت التجارة ولزمت العبادة » .

وقال أيضاً :

« والذى نفس أبى الدرداء بيده ما أحب أن لى اليوم حانوتاً على باب المسجد ، لا تخطئنى فيه الصلاة ، أربح فيه كل يوم أربعين ديناراً ، وأتصدق بها فى سبيل الله »

فقيل له :

« يا أبا الدرداء : وما تكره من ذلك ؟ »

قال :

« شدة الحساب » .

٤

وعندما آخى الرسول — عليه السلام — بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة آخى بين قطبين من أقطاب الإسلام ، وكبيريْن من كبار الصحابة ، آخى بين أبى الدرداء وسَلْمان ، ومنذ تمت هذه المؤاخاة والرجلان تربط بينهما روابط الود الوثيقة ، وعلاقات الصداقة والأخوة المتينة ، ينصح كل منهما لأخيه ، ويتمنى كل منهما لأخيه خير ما يتمناه لنفسه ، وما كان كل منهما يتمنى لنفسه غير السلامة فى الدنيا والآخرة ، وغير الصلاح والتقوى والتزام أوامر الله وآداب الإسلام ، وما كان واحد منهما يضيق بنصح صاحبه ، بل كان يرحب به ويعمل على تحقيقه .

روى أن سَلْمان ذهب يوماً ليعود أخاه أبا الدرداء ، فوجد أم الدرداء متبذلة فقال :

« ما شأنك ؟ »

قالت :

« إن أخاك أبا الدرداء يقوم الليل ويصوم النهار ، وليس له فى شىء من الدنيا حاجة » .

ثم جاء أبو الدرداء ، ورحّب بضيفه وأخيه سلمان ، وقرّب إليه طعاماً ، وجلس فلم يشاركه الطعام ، فقال سلْمان :

« كُلْ » .

قال :

« إنى صائم » .

قال :

« أقسمت عليك لتفطرن » .

فأفطر .

ثم بات سلمان عنده ، فلما كان الليل أراد أبو الدرداء أن يقوم للصلاة والعبادة فمنعه سلمان ، وقال :

« إن لربك — عزّ وجلّ — عليك حقًّا ، ولأهلك عليك حقًّا ، ولجسدك عليك حقًّا ، أعْطِ كلّ ذى حقٍّ حقّه ، صُمْ وأفطر ، وقمْ ، ونمْ ، وائت أهلك » .

فلما كان عند وجه الصبح قال : « قم الآن » .

فقاما ، وتوضأا وصليا ، ثم خرجا إلى الصلاة ، فلما صلى النبي — صلى الله عليه وسلم — قام إليه أبو الدرداء فأخبره بما قال سلمان ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

« يا أبا الدرداء إن لجسدك عليك حقًّا ، مثل ما قال لك سلمان » .

هذا هو الإسلام الحق ، وهذه هى تعاليمه وآدابه ، وهؤلاء هم رجاله يُكمل كلٌّ منهما الآخر ، ولعل الرسول الكريم قد لاحظ هذه الفوارق عندما آخى بين الرجلين ، لعله لاحظ فى أبى الدرداء هذه النزعة الصوفية ، والرغبة فى الزهد والتقشف والتفرغ للعبادة ، كما لاحظ فى سلمان نظرته الواسعة ، وفهمه الدقيق لآداب الإسلام التى تدعو العبد إلى رعاية كل الحقوق : رعاية حق الله ، وحق النفس

والجسد والأهل ، بحيث لا يطغى حقٌّ على حق ، ولهذا آخى بينهما ليكمل كل منهما الآخر ، ولينصح الأخ لأخيه ، وليفهمه ما أغلق عليه فهمه .

ويؤكد هذا أن أبا الدرداء كان ينصح لسلمان دائماً ليبصره بمواضع الخير ، وليدعوه إلى أن يأخذ نصيبه من الآخرة ، كما أخذ نصيبه من الدنيا ، كتب أبو الدرداء إلى أخيه سلمان مرة يقول :

« يا أخى : ارحم اليتيم وأدْنِه منك ، وأطعمه من طعامك ، فإنى سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول ، وقد أتاه رجل يشتكى قساوة قلبه — فقال له رسول الله : " أتحب أن يلين قلبك؟ " فقال : " نعم " ، قال : " أدن اليتيم منك ، وامسح رأسه ، وأطعمه فإن ذلك يلين قلبك ، وتقدر على حاجتك " .

ويا أخى : إنى حُدثت أنك اشتريت خادماً ، وإنى سمعت رسول الله — — صلى الله عليه وسلم — يقول " لا يزال العبد من الله وهو منه ما لم يُخدم ، فإذا خُدم وجب عليه الحساب " ، وإن أم الدرداء سألتنى خادماً وأنا يومئذ موسر ، فكرهت ذلك لما سمعت من الحساب ، ويا أخى : من لى ولك بأن نوافى يوم القيامة ، ولا نخاف الحساب ، ويا أخى : لا تغترن بصحابة رسول الله ، فإنا قد عشنا بعده دهراً طويلا ، والله أعلم بالذى أصبناه بعده » .

٥

ولم يفرغ أبو الدرداء للعبادة وحدها ، بل كان يشارك دائماً فى الأحداث الهامة ، وهو إذا شارك كان دائماً فى الصفوف الأولى ، وكان يخلص فى عمله الإخلاص كله ، فقد روى أنه شارك فى وقعة أحد ، وأن الرسول عليه السلام أمره يوم أحد أن يردَّ مَنْ على الجبل ، فردَّهم وحده ، وكان يومئذ حسن البلاء ، فنظر الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى الأعداء يفرون أمامه منهزمين ، وقال :

« نِعْمَ الفارسُ عويمر غير أُفَّةٍ » .

ـ أى غير جبان ولا ثقيل ، ولا يضجر من الشدة فيقول : أفٍّ ! أفٍّ !ـ

وقد عرف عمر بن الخطاب ـ عندما ولى الخلافة ـ لأبى الدرداء فضله ومكانته ، فلما أخذ فى تقسيم العطاء وتدوين العرب ألحق أبا الدرداء بأهل بدر فى العطاء ، مع أنه لم يشارك فى الموقعة ، بل أسلم يومها .

ولم تمض سنوات قليلة منذ تولى عمر الخلافة حتى اتسعت رقعة الدولة ، وكثرت أعباء الحكم ، ورأى عمر أن شؤون الدولة العامة وسياستها العليا ستشغله عن أن يتفرغ للنظر فى أمور الشعب جميعها ، فرأى أن يفصل القضاء وحده ، وأن يعين لكل إقليم قاضياً خاصًّا يفرغ للنظر فى خصومات الناس ، وبدأ بالمدينة ـ عاصمة الدولة ـ فعيَّن لها قاضياً ، ولم يكن هذ القاضى غير أبى الدرداء .

ولم يكن هذا الاختيار اعتباطاً ، فقد كان عمر نقَّادة يعرف قيمَ الرجال ، وقد عرف فى أبى الدرداء فضله وعلمه وتفقهه فى الدين ، وإلمامه بدقائقه ، وخشيته لله وإيثاره الحق والعدل ، وعرف هذه الخصال جميعها فى أبى الدرداء كلُّ مَنْ اتصل به ، عرفها فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فيروى أنه قال :

« عويمر حكيم أمتى » .

وعرفها فيه كبار الصحابة ، فكان ابن عمر يقول :

« حدثونا عن العاقليْن » .

فيقال :

« مَنْ العاقلان ؟ » .

فيقولون :

« معاذ وأبو الدرداء » .

ولما حضرت معاذ الوفاة سأله أصحابه أن يوصيهم ، فقال :

« التمسوا العلم عند أربعة : أبى الدرداء ، وسلمان ، وابن مسعود ، وعبدالله ابن سلام » .

وقال ابن إسحاق :

« كان الصحابة يقولون : أتبعنا للعلم والعمل أبو الدرداء » .

هذه الشهادة الإجماعية لأبى الدرداء بالعقل والعلم والحكمة تعطينا صورة واضحة

عن أبى الدرداء القاضى وعن أحكامه ، فالرجل دون شك كان يتلزم الحرص الشديد فى نظر قضاياه حتى لا يضيع حق من صاحبه ، وحتى لا يفر مذنب من القصاص ، وكان يفكر دائماً فى قضاياه فيعيد التفكير ، ويقدر فيعيد التقدير ، وإذا انتهى من سماع المتقاضيين ، وسمح لهما بالانصراف أخذه الشك فى أمرهما فاستدعاهما ثانية إليه واستمع إليهما مرة أخرى ليستوثق مما قالاه ، قال مالك عن يحيى بن سعيد :

« كان أبو الدرداء إذا قضى بين اثنين ثم أدبرا عنه نظر إليهما فقال : ارجعا إلىّ ، أعيدا علىّ قضيتكما » .

هذا هو ضمير القاضى ، لا يطمئن اطمئناناً تامًّا لحكم يصدره ، فهو يخشى الظلم ويخشى الخطأ ، وليس هذ بالغريب فى أمر أبى الدرداء ، فهو الذى يقول فيما روى عنه :

« ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يعظم حلمك ويكثر علمك ، وأن تبارى الناس فى عبادة الله عز وجل ، فإن أحسنت حمدت الله تعالى ، وإن أسأت استغفرت الله عزّ وجلّ » .

وأبو الدرداء القاضى لم يكن مع هذا بالرجل المتزمت الذى يتسقط أخطاء الناس ، بل كان يفهم النفس الإنسانية فهماً طيباً ، ولا يرى أن يتتبع الفرد أخطاء غيره ، فلكل إنسان أخطاؤه ، وليس هناك معصوم من الخطأ ، وللجميع — بعدُ — ربٌّ مطلع على خفاياهم يتولى هو حسابهم ، وأبو الدرداء هو الذى قال فيما قال :

« لا تكلفوا الناس ما لم يكلفوا ، ولا تحاسبوا الناس دون ربهم ، ابن آدم عليك بنفسك ، فإن من تتبع ما يرى فى الناس يَطُل حزنه ، ولا يُشْفَ غيظه » .

وأبو الدرداء القاضى لم يكن يرى القسوة على المخطئ ، بل كان يطلب من المسلم إذا رأى أخاً له قد أخطأ أن يقيل عثرته ، وأن يحمد الله أن وقاه هو شرّ الوقوع فى الخطأ ، روى عنه أنه مر على رجل أصاب ذنباً وحوله قوم يسبونه ويعنفون عليه فقال :

« أرأيتم لو وجدتموه فى قليب ألم تكونوا مستخرجينه ؟ »

قالوا :

« نعم » .

قال :

« فلا تسبوا أخاكم ، واحمدو لله الذى عافاكم » .

قالوا :

« أفلا تبغضه ؟ ! »

قال :

« إنما أبغض عمله ، فإذ تركه فهو أخى » .

وهذه هى المثل الإنسانية العليا فى أسمى صورها .

٦

ولأبى الدرداء فى عهد رسول الله مأثرة أخرى كبيرة ، فقد كان واحداً من خمسة توفروا على جمع القرآن ، وكلهم من الأنصار ، قال ابن سعد فى طبقاته :

« جمع القرآن فى زمان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خمسة من الأنصار : معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبى بن كعب ، وأبو أيوب ، وأبو الدرداء » .

وفى أوائل عهد عمر بن الخطاب فُتح الشام ، وانتقل إليه عدد كبير من المسلمين ثم لم يلبث الإسلام أن انتشر بين الأهلين ، وكان لابد من وجود جماعة من المتفقهين فى الدين ليعلموا الناس القرآن ، فأُرسل أبو الدرداء مع عبادة ومعاذ فى هذه البعثة التعليمية من الحجاز إلى الشام ، واستقرّ فى دمشق يعلم الناس ويفقههم فى الدين والقرآن ، وكان سفر أبى الدرداء إلى الشام فى السنة الخامسة عشرة أو السادسة عشرة للهجرة ، قال ابن سعد فى طبقاته تعقيباً على الخبر السابق :

« وأما معاذ فمات عام طاعون عمواس ، وأما عبادة فصار إلى فلسطين فمات بها » .

فهذه البعثة أرسلت قطعاً قبل عام طاعون عمواس ، وهو عام ١٧ للهجرة ،

وإذا عرفنا أن حمص وأنطاكية وبيت المقدس تم فتحها فى سنة ١٥ للهجرة ، فإننا نكون على حق إذا استنتجنا أن البعثة أرسلت إلى الشام فى أواخر السنة الخامسة عشرة أو أوائل السنة السادسة عشرة للهجرة .

٧

ولما خرجت جيوش الإسلام لفتح مصر كان أبو الدرداء واحداً من كبار القواد والصحابة الذين شاركوا فى هذا الفتح ، ففى المراجع ثبت بأسماء هؤلاء الصحابة ، ومن بينهم أبو الدرداء ، وتذكر المراجع أيضاً أن أبا الدرداء شارك فى فتح الإسكندرية ، وأنه دخلها وأقام بها وقتاً بعد الفتح مع رفقته من كبار الصحابة ، وتكاد هذه المراجع تحدد المكان الذى نزل فيه أبو الدرداء أثناء مقامه بالإسكندرية ، وهو مكان لا يبعد كثيراً عن الموضع الذى يقوم فيه الضريح المنسوب إليه الآن ، قال ابن عبد الحكم فى كتابه « فتوح مصر » :

« إن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية أقبل هو وعبادة بن الصامت حتى علوا الكوم الذى فيه مسجد عمرو بن العاص فقال معاوية بن حديج: نتزل ، فنزل عمرو بن العاص القصر الذى صار لعبد الله بن سعد بن أبى سرح . . . ونزل أبو ذر الغفارى منزلا كان غربى المصلى الذى عند مسجد عمرو مما يلى البحر — وقد انهدم — ، ونزل معاوية بن حديج موضع داره التى فوق هذا التل ، وضرب عبادة بن الصامت بناء فلم يزل فيه حتى خرج من الإسكندرية ، ويقال إن أبا الدرداء كان معه ، والله أعلم » .

ولكن يبدو أن أبا الدرداء لم يقم بالإسكندرية طويلا ، فقد ذُكر أن جامع عمرو بن العاص الذى بنى فى الفسطاط أشرف على بناء قبلته ثمانون من الصحابة من بينهم الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء وأبو ذر الغفارى ، وغيرهم ، والمعروف أن جامع الفسطاط بنى سنة ٢١ هـ بعد إتمام فتح الإسكندرية ، وبعد عودة عمرو وصحبه إلى الجنوب وتأسيس عاصمته الجديدة الفسطاط .

٨

من هذا يتضح أن أبا الدرداء لم يقم بالإسكندرية إلا مدة يسيرة، ثم غادرها إلى الفسطاط حيث شارك فى الإشراف على بناء جامع عمرو بن العاص وتحديد موضع قبلته، ويبدو كذلك أنه لم يقم بمصر بعد ذلك طويلا ، فإننا سرعان ما نسمع أن معاوية عيّنه قاضياً لدمشق بأمر عمر بن الخطاب ، أو أمر عثمان فى رواية أخرى ، ويبدو أنه أحبّ دمشق وأحبّ الإقامة فيها منذ بعث إليها معلماً بأمر عمر منذ سنوات قليلة ، فنحن لا نسمع عن أخباره فى المدة الباقية من حياته إلا مقيما فى دمشق ، وهو مع توليه قضاء دمشق لم يتخلف عن المشاركة فى الأحداث والحروب الهامة التى كانت تدبر أمورها فى دمشق .

ففى سنة ٢٨ هـ ، وفى عهد عثمان أعدّ معاوية بن أبى سفيان حملة لفتح جزيرة قبرص ، وخرج مع معاوية فى هذه الحملة عدد من كبار الصحابة منهم أبو أيوب الأنصارى، وأبو الدرداء ، وأبو ذر الغفارى ، وعبادة بن الصامت ، وانتصر المسلمون فى هذه الموقعة ، وأسروا عدداً من أهل قبرص ، ولكن أبا الدرداء لم تأخذه نشوة النصر على الأعداء ، بل بدا أبو الدرداء الإنسان كأروع ما يبدو الإنسان تهز كيانه آلام المنهزم قبل أن تأخذه فرحة النصر ، فانتحى جانباً يبكى وحده آلام هؤلاء الأسرى ، ويستخلص لنفسه العبرة من مصيرهم . قال جبير بن نفير :

« لما فتحت قبرص فُرِّق بين أهلها ، فبكى بعضهم إلى بعض ، ورأيت أبا الدرداء يبكى ، فقلت :

ــ يا أبا الدرداء ما يبكيك فى يوم أعزّ الله فيه الإسلام وأهله ؟

فقال :

ــ ويحك يا جبير ، ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره ، بينا هى أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك ، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى !! »

٩

لقد كان أبو الدرداء يستطيع وقد أقبلت عليه الدنيا وولى المراكز الكبرى أن يبدل من حياته فيطلق حياة الزهد إلى غير رجعة ، ويحيا هو وأسرته حياة غنية مترفة ، ولكن ظل هوهو لم يتغير ولم يتبدل ؛ سعى يزيد بن معاوية إلى أن يرتبط معه برابطة النسب فخطب إليه ابنته الدرداء ، ولكنه رفض ، وخطبها إليه بعده رجل من عامة الناس فقبل خطبته ، وشاع هذا الخبر فى الناس ، وصاروا يتناقلون الحديث فيما بينهم : أن يزيد خطب إلى أبى الدرداء فردّه ، وخطب إليه رجل من ضعفاء المسلمين فأنكحه ، فاضطر أبو الدرداء أن يتكلم ، وأن يفصح عن الأسباب التى دفعته إلى هذا الرفض وهذا القبول ، فقال :

« إنى نظرت للدرداء ؛ ما ظنكم بالدرداء إذا قامت على رأسها الخصيان ، ونظرت فى بيوت يلتمع فيها بصرها ؟ أين دينها منها يومئذ ؟؟ »

لقد خشى الرجل الزاهد المتعبد أن تفتن حياة البذخ والترف ابنته عن دينها ، فهو رجل مبادئ ورجل مثل عليا ، يريد أن يأخذ كل من يتصل به بهذه المبادئ وبهذه المثل ، ولم يقصر دعوته على أهله الأقربين ، بل أرسلها رسالة للجميع ، وهؤلاء أهل دمشق الذين أحبهم وأحب مدينتهم ، وعاش بينهم السنين الطويلة منذ وفد عليهم معلماً ، لم يغادرهم إلا مرتين للمشاركة فى الغزو والفتح ، حين خرج إلى مصر ، وحين خرج إلى قبرص، لم يرضه من أهل دمشق هؤلاء تكالبهم على الحياة وانصرافهم عن الدين والعلم ، فكان لهم دائماً المنذر والمذكر ، قال مرة — فيما روى عنه — :

« يا معشر أهل دمشق : ألا تستحون !! تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون ، وتأملون ما لا تبتغون ، فقد كان القرون من قبلكم يجمعون فيوعون ، ويأملون فيطيلون ، ويبنون فيوثقون فأصبح جمعُهم بوراً ، وأملهم غروراً ، وبيوتهم قبوراً ، هذه عاد قد ملأت ما بين عدن إلى عمان أموالا وأولاداً ، فن يشترى منى تركة أهل عاد بدرهمين ؟! »

ويبدو أن أهل دمشق لم يحسنوا الاستماع إلى دعوته أو الإقبال على تعاليمه ، وصرفتهم التجارة وطلب الرزق عن طلب العلم وذكر الله ، فتوجه إليهم أبو الدرداء بالخطاب مرة أخرى معاتباً وناصحاً :

« يا أهل دمشق : أنتم الإخوان فى الدين ، والجيران فى الدار ، والأنصار على الأعداء ، ما يمنعكم من مودتى ، وإنما مؤنتى على غيركم .
ما لى أرى علماءكم يذهبون وجهالكم لا يتعلمون ؟ وأراكم قد أقبلتم على ما تكفل لكم به ، وتركتم ما أمرتم به ؟
ألا إن قوماً بنوا شديداً ، وجمعوا كثيراً ، وأملوا بعيداً فأصبح بنيانهم قبوراً ، وأملهم غروراً ، وجمعهم بوراً ،
ألا فتعلموا وعلموا ، فإن العالم والمتعلم فى الأجر سواء ، ولا خير فى الناس بعدهما » .

١٠

فأبو الدرداء يعتقد أن رسالته فى الحياة الدعوة إلى العلم ، وإلى ذكر الله وخشيته ، لا ينفك يدعو الناس إليهما فى غير ملل أو يأس ، فمن أقواله :

« اطلبوا العلم ، فإن عجزتم فأحبوا أهله ، فإن لم تحبوهم فلا تبغضوهم » .

وهو يحضُّ العالم على أن يطلب العلم دائماً ، ويحضه إذا علم أن يعمل بعلمه فيقول :

« لا يكون عالماً حتى يكون متعلماً ، ولا يكون عالماً حتى يكون بالعلم عاملا » .

ويقول أيضاً :

« ويل للذى لايعلم مرة ، وويل للذى يعلم ولا يعمل سبع مرات » .

أما دعوته الثانية إلى ذكر الله وخشيته فالشواهد عليها كثيرة ، فقد روى عنه أنه قال :

« اذكر الله فى السراء يذكرك فى الضراء » .

وقال :

« تَذَكُّرُ ساعة خيرٌ من قيام ليلة » .

وسئلت أم الدرداء :

« أي عبادة أبي الدرداء كانت أكثر ؟ »

قالت :

« التفكر والاعتبار» .

وقيل له مرة — وكان لا يفتر عن الذكر :

« كم تسبح فى كل يوم ؟ »

قال :

« مائة ألف إلا أن تخطئ الأصابع » .

ومن أقواله فى هذا المعنى :

« اعبدوا الله كأنكم ترونه ، وعدوا أنفسكم من الموتى ، واعلموا أن قليلا يغنيكم خير من كثير يلهيكم ، واعلموا أن البِرَّ لا يبلى ، وأن الإثم لا يُنسى »

بل إنه كان يعتبر ذكر الله فى المقام الأول ، ويراه خيراً من الإحسان ومن الغزو والجهاد فى سبيل الله ، يقول :

« ألا أخبركم بخير أعمالكم وأحبها إلى مليككم ، وأنماها فى درجاتكم ، خير من أن تغزوا عدوكم فيضربوا فى رقابكم وتضربوا فى رقابهم ، خير من إعطاء الدراهم والدنانير ؟ ؟

قالوا : وما هو يا أبا الدرداء ؟

قال : ذِكْرُ الله ، ذكر الله أكبر » .

وكان أبو الدرداء يأخذ نفسه أولا بتعاليم هذه الدعوة ، فهو لا يني عن ذكر الله ، وهو يتفانى فى حبه لله ، وفى سبيل هذا الحب يحب ما يكره الناس ، يحب الفقر والمرض والموت ، روى عنه أنه قال :

« ثلاثة أحبهن ويكرههن الناس : الفقر والمرض والموت ، أحب الموت

اشتياقاً لربى ، وأحب الفقر تواضعاً لربى ، وأحب المرض تكفيراً لخطيئتى » .

بل هو فى سبيل الفناء فى حب الله تهزه الدعوة الصالحة يسمعها من غيره ، فلا يأنف أن يأخذها عنه ، وأن يتخذها دعوته ، وأن يعلمها للناس ، روى عنه أنه أدلج ذات ليلة إلى المسجد ، فلما دخل مرَّ على رجل ساجد وهو يقول :

« اللهم إنى خائف مستجير فأجرنى من عذابك ، وسائل فقير فارزقنى من فضلك ،
لامذنب فأعتذر
ولا ذو قوة فأنتصر
ولكن مذنب فأستغفر »

فاستوقفه هذا الصوت الخاشع المبتهل إلى الله — سبحانه وتعالى — فى ذلة وانكسار ، واهتزّ للدعاء وجدانه كله ، فبكى ، وأخذ يردد الدعاء مع الداعى حتى حفظه ، ولما أصبح الصباح راح يعلمه للناس إعجاباً به .

هذا الذكر الدائم لله ، وهذا الفناء الدائم فى حب الله لم يترك فى نفس أبى الدرداء موضعاً للضغن والحسد والكراهية ، بل صفت نفسه الإنسانية صفاء تامًّا ، وكان للود والحب والإخاء الاعتبار الأول عنده ، فهو يعتز بالأخ والصديق اعتزازه بأغلى ما يملك ، ويحث الناس دائماً على الاعتزاز بإخوتهم وأصدقائهم ، ويعاتب المقصر منهم ولا يقصيه ويلتمس للمخطئ العذر ، ويدعو له بالمغفرة ، فمن أقواله :

« معاتبة الأخ خيرٌ لك من فقده ، ومَن لك بأخيك كله ؟ أعطِ أخاك وكُن له ، ولا تُطع فيه حاسداً فتكون مثله ، غدًا يأتيك الموت فيكفيك فقده ، كيف تبكيه بعد الموت وفى حياته ما قد كنتَ تركت وصله ؟ ! »

وقالت أم الدرداء :

« كان لأبى الدرداء ستون وثلاثمائة خليل فى الله ، يدعو لهم فى الصلاة » .

فقلت له فى ذلك ، فقال :

« إنه ليس رجل يدعو لأخيه فى الغيب إلا وَكَلَ اللهُ به ملكين يقولان:
ولكَ بمثلٍ ، أفلا أرغب أن تدعو لى الملائكة ؟ ! »

وهو أخيراً كان يدعو الناس إلى السعى وراء الحلال والطيبات من الرزق ، وإلى التسامح والعفو عند المقدرة ، فكل ذلك خيرٌ عند الله وأبقى ، جاءه رجل فقال :

« علمنى كلمة ينفعنى الله — عز وجل — بها »

قال :

« وثنتين وثلاثاً وأربعاً وخمساً ، مَنْ عمل بهن كان ثوابه على الله عز وجل الدرجات العلا ، قال :

— لا تأكل إلا طيباً ، ولا تكسب إلا طيباً ، ولا تدخل بيتك إلا طيباً ، وسل الله عز وجل يرزقك يوماً بيوم ، وإذا أصبحت فاعدد نفسك من الأموات ، فكأنك قد لحقت بهم ، وهب عرضك لله عز وجل ، فمن سبَّك أو شتمك أو قاتلك فدعه لله عز وجل ، وإذا أسأت فاستغفر الله عز وجل » .

١١

هذا هو أبو الدرداء الصحابى الجليل ، والقاضى والعالم الزاهد ، ولم تكن زوجه أم الدرداء أقل منه شأناً ، فقد تزوج الرجل مرتين ، وكانت زوجه الأولى صحابية اسمها « خيرة » ، وكانت الثانية تابعية واسمها « هجيمة » ، ولما توفيت الأولى تزوج الثانية ، وقد اتفقت المراجع على وصف الزوجة الثانية بالفقه والعقل والفهم والزهد والحسن والجمال ، وقد روت الحديث عن زوجها وعن أبى هريرة ، وكانت وفيَّة لزوجها فى الحياة وبعد الممات ، روى أنها قالت :

« اللهم إن أبا الدرداء خطبنى فتزوجنى فى الدنيا ، اللهم فأنا أخطبه إليك وأسألك أن تزوجنيه فى الجنة » .

فقال لها أبو الدرداء :

« فإن أردت ذلك فكنت أنا الأول ، فلا تتزوجى بعدى » .

قال أبو نعيم فى كتابه الحلية :

« فمات أبو الدرداء ، وكان لها جمال وحسن ، فخطبها معاوية بن أبى سفيان ،
فقالت : لا والله ، لا أتزوج زوجاً فى الدنيا حتى أتزوج أبا الدرداء إن شاء الله فى الجنة » .

١٢

بقيت نقطة أخيرة قد تغضب أهل الإسكندرية ، ولكنها ترضى الحق والتاريخ والبحث العلمى ، فأهل الإسكندرية يعتقدون أن أبا الدرداء توفى فى الإسكندرية ودُفن بها ولهم حكمة يتناقلونها فيقولون: « اتقوا شر البرد ، فقد قتل أخاكم أبا الدرد » ، فهم يعتقدون أنه مات فى مدينتهم متأثراً بشدة البرد ، وهم يتبركون بضريحه الموجود الذى يزعمون أنه دفن فيه ، ولكن المراجع التى أرخت له تجمع كلها على أنه توفى ودفن فى دمشق وأن قبره وقبر زوجته الصغرى معروفان بباب الصغير من مدينة دمشق .

والذى أرجحه أنا أن هذا الضريح بنى فى وقت ما كمبنى تذكارى بناه أهل الإسكندرية اعتزازاً منهم بذكرى هذا الصحابى الجليل الذى شارك فى فتح مدينتهم وأقام بها مدة ما بعد الفتح ، ومع مضى الزمن اعتقد الناس أن هذا ضريحه ، وسرت الشائعة أنه مات ودفن فيه ، ورجائى ألا ييئس أهالى الإسكندرية بمعرفة هذه الحقيقة ، وليحتفظوا بالضريح تذكاراً لزيارة هذا العالم الجليل لمدينتهم ، فقديماً أقاموا عمود السوارى تذكاراً لزيارة الإمبراطور دقلديانوس لهذه المدينة .

وبعد ، فلعلى استطعت أن أوفى هذا الصحابى الجليل والعالم الكبير حقه ، فقد كان فى الحقيقة واحداً من الرعيل الأول من رجال الإسلام الذين رسموا لنا المثل العليا للإنسانية ، ولقد كان أبو الدرداء فى كل أعماله وأقواله الرجل العالم الزاهد ، فهو الذى يقول فى البيتين الوحيدين اللذين أُثرا عنه :

يريد المرء أن يُعْطَى مُناه ويأبى الله إلا ما أرادا
يقول المرء : فائدتى ومالى ، وتقوى الله أفضل ما استفادا

رحم الله أبا الدرداء ورضى عنه ، وهدانا إلى ترسم خطاه ، والعمل بتعاليمه .

مراجع

١ ــ البلاذرى (أحمد بن يحيى)
= فتوح البلدان ، القاهرة ١٣١٨ هـ

٢ ــ ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف ، أبو المحاسن)
= النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ١ ، القاهرة ١٩٢٩

٣ ــ الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد)
= تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، القاهرة ١٣٦٧ــ١٣٦٩ هـ

٤ ــ الزركلى (خير الدين)
= الأعلام ، القاهرة ، ١٩٥٤ ــ ١٩٥٩

٥ ــ ابن سعد (كاتب الواقدى)
= الطبقات الكبير ، نشر سخاو وآخرين ، ليدن ١٩٠٥ــ١٩٢١

٦ ــ السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر)
= حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزءان ، القاهرة ١٣٢٧ هـ

٧ ــ ابن عبد الحكم
= فتوح مصر

٨ ــ كرد على (محمد)
= خطط الشام ، ٦ أجزاء ، دمشق ١٩٢٥ــ١٩٢٨

٩ ــ المقريزى (تقى الدين أحمد بن على)
= إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع ، الجزء الأول ، نشر محمود محمد شاكر ، القاهرة ، ١٩٤١

١٠ ــ أبو نعيم (أحمد بن عبد الله)
= حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ

١١ ــ النعيمى (عبد القادر بن محمد)
= الدارس فى تاريخ المدارس ، نشر جعفر الحسنى ، جزءان ، دمشق ١٩٤٨ــ١٩٥١ .

١٢ ــ النووى (أبو زكريا محيى الدين بن شرف)
= تهذيب الأسماء واللغات ، القاهرة (بدون تاريخ)

١٣ ــ هيكل (الدكتور محمد حسين)
= الفاروق عمر ، جزءان ، القاهرة ١٣٦٤ هـ .

عبد الرحمن بن هرمز (الأعرج)

التابعى الجليل

(٠٠٠ ـ ١١٧ هـ / ٠٠٠ ـ ٧٣٥ م)

« خير سواحلكم رباطاً الإسكندرية »

عبد الرحمن بن هرمز

عبد الرحمن بن هرمز (الأعرج)[1]

(٠٠٠ — ١١٧ هـ) ، (٠٠٠ — ٧٣٥ م)

التابعى الجليل

لئن كانت الإسكندرية تعتز بالصحابى الجليل أبى الدرداء ، وبالضريح الموجود بها والمنسوب إليه[2] ، إنها تعتز أيضاً بتابعىّ من التابعين الأجلاء تجمع المصادر على أنه زارها وأقام بها وقتاً ما وتوفى بها [3].

هذا التابعى الجليل هو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج .

وقد زار الإسكندرية عدد من الصحابة الأجلاء ، وعدد آخر من التابعين الكرام ، ولكنها — لأمر ما — لم تحتفظ إلا بذكرى واحد من هؤلاء وهو أبو الدرداء ، وذكرى واحد من أولئك هو عبد الرحمن بن هرمز .

والمتفق عليه أن الصحابى هو كل مسلم رأى النبى — عليه السلام — ولو ساعة ، وإن لم يجالسه ويخالطه ، وإن كان معظم أهل الأصول يشترطون فى الصحابى مجالسة الرسول .

والمتفق عليه كذلك أن التابعى هو الذى رأى صحابياً ، وإن كان البعض يشترطون فى التابعى أن يكون جالس صحابياً .

وقد وفد على الإسكندرية ، وعاش فيها عدد من التابعين الكرام رواة الحديث منهم :

— ثمامة بن شفى الهمدانى أبو على المصرى ، نزيل الإسكندرية ، روى عن عقبة بن عامر وفضالة بن عبيد ، وثّقه النسائى ، ومات قبل العشرين ومائة .

---

(١) نشر هذا الفصل فى (مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، العدد السابع ، ١٩٥٨ ص٥٣—٧١) .

(٢) أثبتنا فى الفصل السابق أن أبا الدرداء لم يمت ولم يدفن بالإسكندرية ، وإنما مات ودفن فى دمشق .

(٣) تعتز الإسكندرية بضريح ينسب إلى عبد الرحمن بن هرمز ، ولكن الشكوك تحوم حول نسبة هذا الضريح إليه ، انظر الفقرات الأخيرة من هذا المقال .

— ضميم بن مالك الكلاعى الحميرى — قاضى الإسكندرية — روى عن ابن عمر .

— ربيعة بن سيف المعافرى الإسكندرانى ، روى عن فضالة بن عبيد ، وروى عنه الليث بن سعد ، ووصفه الدارقطنى بأنه مصرى صالح ، وتوفى فى حدود عشرين ومائة .

— وزاهر بن معبد بن عبد الله بن هشام التيمى ، أبو عقيل ، نزيل مصر ، روى عن جده ، وله صحبة عن ابن عمر وابن الزبير ، ومات بالإسكندرية سنة ١٣٥ ﻫ عن سن عالية .

ومنهم صاحبنا الذى نتحدث عنه فى هذا المقال : عبد الرحمن بن هرمز ، أبو داود المدنى .

وحياة ابن هرمز غامضة غموضاً عجيباً ، ولم تصلنا عنه إلا شذرات قليلة ، سنحاول — بعد جمعها ودراستها — أن نستوضحها ، وأن نستشف منها صورة لهذا العالم الجليل ، وطرفاً من سيرته .

* * *

هو عبد الرحمن بن هرمز بن أبى سعد ، وكنيته أبو داود ، المشهور بالأعرج ، القرشى ، المدنى .

كان يرتبط بأسرة بنى هاشم — أسرة الرسول عليه السلام — برابطة الولاء ، فهو مولى ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وفى رأى آخر أنه مولى محمد بن ربيعة .

لا نعرف شيئاً عن سنة ولادته ، ولكننا نعرف أنه من الطبقة الثانية من التابعين ، وأنه ولد فى المدينة النبوية ، وعاش فيها فى وقت كانت المدينة فيه مجتمع الخُلَّص من علماء المسلمين من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين ، وكان العلم الذى يشغل الناس فى ذلك الوقت هو القرآن وتفسيره ، والحديث وروايته ، والفقه ومشاكله ، والعربية وأصولها .

وقد تتلمذ عبد الرحمن بن هرمز على جمٍّ غفير من الصحابة الذين أدركهم ، فهو قد سمع الحديث ورواه عن : أبى هريرة ، وأبى سعيد الخدرى ، وعبد الله

ابن مالك بن بُحَيْنَةَ ، وأبى سَلَمة بن عبد الرحمن ، وابن عباس ، وعمير مولى ابن عباس ، ومحمد بن مسلمة ، ومعاوية بن أبى سفيان ، ومعاوية بن عبد الله ابن جعفر ، وأسيد بن رافع ، وعبد الله بن كعب بن مالك ، وكثيرين غيرهم .

ويبدو من هذا الثبت الحافل أن ابن هرمز كان تلميذاً مُجِدّاً ، وأنه كان يتحرّى الصواب فى دراسته للحديث ، ولهذا لم يقنع بالأخذ عن صحابى واحد ، ولم يلزم أستاذاً واحداً ، ومع هذا فإن المراجع تذكر أنه كان أكثر ملازمة لأبى هريرة ورواية عنه ، فقد قال السيوطى فى ترجمته له :

« هو صاحب أبى هريرة ، أحد الحفاظ والقراء ، أخذ القراءة عن أبى هريرة وابن عباس ، وأكثر من السنن عن أبى هريرة(١) » .

وقال الذهبى فى تاريخ الإسلام :

« وكان ثقة ثبتاً ، عالماً بأبى هريرة(٢) » .

وروى ابن سعد فى طبقاته قال : « أخبرنا محمد بن عمر قال : حدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبى سَبْرة ، عن عثمان بن عبيد الله بن أبى رافع ، قال : رأيت من يقرأ على الأعرج حديثه عن أبى هريرة عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيقول : هذا حديثك يا أبا داود ؟ قال : نعم ، قال : فأقول حدثنى عبد الرحمن وقد قرأت عليك ؟ قال : نعم ، قل : حدثنى عبد الرحمن بن هرمز (٣) » .

وقال ابن قاضى شهبة فى طبقاته :

« عبد الرحمن بن هرمز بن أبى سعد الأعرج أبو داود المدنى ، مولى محمد ابن ربيعة المقرئ المحدث ، صاحب أبى هريرة(٤) » .

فإذا عرفنا أن أبا هريرة — رضى الله عنه — كان من أكثر الصحابة ملازمة للرسول ورواية لأحاديثه (حتى ليقال إن الأحاديث التى تضاف إليه تقدر بخمسمائة وثلاثة آلاف حديث) أدركنا أىّ علمٍ حصَّل عبد الرحمن ابن هرمز بتتلمذه على أبى هريرة وملازمته له ، حتى لقد وصفه ابن سعد بأنه كان ثقة

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ص ١٤٥ .
(٢) الذهبى : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ .
(٣) ابن سعد : الطبقات ، ج ٥ ، ص ٢٠٩ .
(٤) ابن قاضى شهبة : الطبقات ، مخطوطة دار الكتب ، القاهرة .

كثير الحديث[١] ، وقال البخارى : « أصحّ أسانيد أبى هريرة أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة » ، ووصفه السيوطى بأنه كان وافر العلم ، مع الثقة والأمانة[٢] » .

* * *

ولم يكن الحديث هو العلم الوحيد الذى تفرّغ ابن هرمز لدراسته وروايته ، ولكنه كان من العلماء الثقات بأنساب العرب ، قال الذهبى فى طبقات القراء : « وله خبرة بأنساب قريش » ، وقال السيرافى : « كان أعلم الناس بأنساب قريش ».

وتوفرّ ابن هرمز أيضاً على دراسة القرآن وقراءته . وكان من الثقات المتثبتين ، يلجأ إليه الناس للقراءة عليه ، ويعهدون إليه بكتابة المصاحف لاطمئنانهم إلى حفظه وقراءته وعلمه ومعرفته ، ولهذا تكاد تجمع المراجع على وصفه بالمقرئ المحدث ، قال ابن سعد :

« كان الأعرج يكتب المصاحف » .

وقال الذهبى فى طبقات القراء :

«كان الأعرج أحد من برّز فى القرآن والسنة[٣] » .

ووصفه فى تذكرة الحفاظ بأنه «كاتب المصاحف » ، وبأنه « كان ثقة ثبتاً عالماً مقرئاً » ، وقال فى ترجمته له فى تاريخ الإسلام :

« وكان يكتب المصاحف ويقرئ القرآن[٤] » .

وكان عبد الرحمن بن هرمز — مع عنايته بعلوم الحديث والقرآن — عالماً مبتكراً ، فإن المراجع والروايات تكاد تجمع على أنه أول من وضع علم العربية والنحو ، فبعضها ينسب هذا إلى أبى الأسود الدؤلى ، وبعضها ينسبه إلى ابن هرمز ، والبعض الآخر ينسبه إليهما معاً ، فقد روى ابن لهيعة عن أبى النضر قال :

« كان الأعرج أول من وضع العربية » .

وقال القفطى فى إنباه الرواة :

---

(١) ابن سعد : المرجع السابق ، وانظر أيضاً : النووى : تهذيب الأسماء واللغات القسم الأول ، الجزء الأول ، ص ٣٠٥ — ٣٠٦) .

(٢) السيوطى : المرجع السابق .

(٣) رواه عنه ابن قاضى شهبة فى المرجع السابق .

(٤) الذهبى : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ .

« قال أهل العلم : إنه (أى الأعرج) أول من وضع علم العربية ، والسبب فى هذا القول أنه أخذ عن أبى الأسود الدؤلى ، وهو أول من أظهره وتكلم فيه بالمدينة وكان من أعلم الناس بالنحو [1]» .

وقال ابن قاضى شهبة :

« وهو أول من وضع النحو فى قول » .

وقد فصَّل الزبيدى فى كتابه « طبقات النحويين » الأسباب التى دعت إلى ابتكار علم النحو فى أواخر القرن الأول الهجرى ، وأرجعها إلى انتشار الإسلام بين الشعوب غير العربية ، وما تبعه من تبلبل الألسنة وخروج هؤلاء المسلمين الجدد عن قواعد النطق الصحيحة عند العرب ، وأشار الزبيدى فى حديثه هذا إلى العلماء الذين ينسب إليهم الفضل فى وضع علم النحو ، ومن بينهم : أبو الأسود الدؤلى ، ونصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز ، قال :

« ولم تزل العرب تنطق على سجيتّها فى صدر إسلامها وماضى جاهليتّها حتّى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان ، فدخل الناس فيه أفواجاً ، وأقبلوا إليه أرسالا ، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة واللغات المختلفة ، ففشا الفساد فى اللغة العربية ، واستبان منها فى الإعراب الذى هو حَلْيُها والموضح لمعانيها ، فتفطن لذلك مَن نافر بطباعه سوء أفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب ، فعظم الإشفاق من فشو ذلك وغلبته ، حتّى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم إلى أن سببوا الأسباب فى تقييدها لمن ضاعت عليه ، وتثقيفها لمن زاغت عنه .

فكان أول من أصّل ذلك وأعمل فكره فيه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلى ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، فوضعوا للنحو أبواباً ، وأصّلوا له أصولا ، فذكروا عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم ، ووضعوا باب الفاعل والمفعول والتعجب والمضاف ، وكان لأبى الأسود فى ذلك فضل السبق وشرف التقدم ، ثم وَصَل ما أصّلوه من ذلك التالون لهم والآخذون عنهم ، فكان لكل واحد منهم الفضل بحسب ما بسط من القول ومدّ من القياس ، وفتق من المعانى ، وأوضح من الدلائل وبيّن من العلل [2] » .

---

(١) القفطى : إنباه الرواة ، نشر محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج ١ ، ص ١٧٢ — ١٧٣ .
(٢) الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين ، نشر أبو الفضل إبراهيم ، ص ٢ .

وكان عبد الرحمن إلى هذا كله الأستاذ الأول للإمام مالك — إمام دار الهجرة — عنه أخذ العلم أول ما أخذ ، وظل يصاحبه ويلازمه وحده سنين طويلة ، على هذا تجمع المراجع وإن اختلفت فى تحديد العلم أو العلوم التى أخذها التلميذ عن الأستاذ ، فقد جاء فى كتاب « إنباه الرواة » للقفطى :

« يروى أن مالك بن أنس إمام دار الهجرة — رضى الله عنه — اختلف إلى عبد الرحمن بن هرمز عدة سنين فى علم لم يبثه فى الناس ، فمنهم من قال : تردّد إليه لطلب النحو واللغة قبل إظهارهما ، وقيل : كان ذلك فى علم أصول الدين وما يُرَدُّ به مقالة أهل الزيغ والضلالة . . . والله أعلم[1] » .

وُلد الإمام مالك — رضى الله عنه — فى المدينة فى أواخر القرن الأول للهجرة — فى سنة ٩٣ هـ على أرجح الأقوال — ، وفى المدينة نشأ ، وفيها عاش عمره كله لم يغادرها البتة إلا إلى مكة للحج .

وكانت المدينة فى ذلك الوقت حافلة بعدد كبير من التابعين ، وكانت موطن العلم وموئل العلماء ، وفى مقدمتهم عالمنا عبد الرحمن بن هرمز ، ولاتصال مالك به وتتلمذه عليه قصة طريفة ، روى مالك نفسه هذه القصة قال :

« كان لى أخ فى سن ابن شهاب ، فألقى أبى يوماً علينا مسألة ، فأصاب أخى وأخطأتُ ، فقال لى أبى : ألهتك الحمام عن طلب العلم ، فغضبت ، وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين (وفى رواية ثمانى سنين) لم أخلطه بغيره ، وكنت أجعل فى كمى تمراً وأناوله صبيانه ، وأقول لهم : إن سألكم أحدٌ عن الشيخ فقولوا مشغول » .

ومن هذا الحديث نستطيع أن نعرف أن مالكاً بدأ يتتلمذ على ابن هرمز فى حداثته ، أى فى نحو العاشرة من عمره ، بعد أن بلغ مبلغ من يسأل فيخطئْ أو يصيب ، ويؤاخذ على خطئه وصوابه ، ولا يمكن بداهة أن يبلغ الصبى هذا المبلغ ويؤاخذ هذه المؤاخذة قبل العاشرة ، ونستطيع كذلك أن نعرف أن عتاب أبيه كان ذا أثر قوى فى نفسه ، فدفعه إلى ترك اللهو واللعب والتفرغ إلى طلب العلم وملازمة أستاذ بعينه — هو ابن هرمز — سنين طويلة ، أقلها سبع سنين ، ونستطيع

---

(١) القفطى : إنباه الرواة ، ج ١ ، ص ١٧٢ — ١٧٣ .

أن نعرف أن التلميذ الصغير مالكاً كان حريصاً الحرص كله على الإفادة من علم أستاذه كله ، حتى ليتحايل فيهدى صبيان ابن هرمز بعض التمر ليمنعوا أيّ وافد من الدخول إليه أثناء الدرس ، ونستطيع أن نعرف أخيراً أن ابن هرمز كان قد وصل فى ذلك الوقت إلى سن الشيخوخة ، بدليل قول مالك : « وكنت أقول لصبيانه : إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا مشغول » .

وقد أعجب ابن هرمز الأستاذ ، بمالك التلميذ ، فكان أشد حرصاً على الاجتماع به وملازمته والتدريس له ، ومذكراته فى العلوم المختلفة ، فقد جاء فى المدارك :

« قال ابن هرمز يوماً لجاريته : مَنْ بالباب ؟ فلم ترَ إلا مالكاً ، فرجعت فقالت : ما ثمّ إلا ذاك الأشقر ، فقال : ادعيه فذلك عالم الناس . وكان مالكٌ قد اتخذ تُبّاناً — أى سروالا — محشوّاً للجلوس على باب ابن هرمز ، يتقى به برد صحن المسجد ، وفيه كان مجلس ابن هرمز » .

فابن هرمز يصف تلميذه مالكاً بأنه عالم الناس ، والدرس يطول ساعات وساعات لا يسأم من طوله الأستاذ ولا يضجر التلميذ ، بل إن التلميذ يتخذ لهذه الجلسات الطويلة عدتها . فيلبس سروالا مبطناً يقيه برد الحجر على باب ابن هرمز إن طال به الانتظار ، ويقيه برد الصخر بالمسجد إن طالت به ساعات الدرس ، فإنه يروى أن مالكاً كان يلازم ابن هرمز من بكرة النهار إلى الليل . جاء فى المدارك نقلا عن مالك نفسه :

« كنت آتى ابن هرمز بكرة ، فما أخرج من بيته حتى الليل » .

ومن هذا يتضح أن مالكاً كان يتلقى دروسه على ابن هرمز فى البيت تارة ، وفى المسجد تارة أخرى .

وقد عرفنا من قبل أن ابن هرمز كان من الثقات ، أجمعت المراجع على توثيقه ووصفه بالأمانة ، وأنه كان يتحرّى الصواب فى روايته للحديث ، ولهذا كان أثره فى تلميذه مالك واضحاً ، فنشأ مالك دقيقاً متثبتاً ، يترسّم خُطَى أستاذه ، ويلتزم أسلوبه فى البحث والتحرى ، ولهذا يروى أن مالكاً كان يكثر من قوله : « لا أدرى » وأنه كان يقتدى فى هذا بأستاذه ابن هرمز . جاء فى المدارك :

« قال مالك : سمعت ابن هرمز يقول : ينبغى أن يورث العالمُ جلساءه قَوْل " لا أدرى " ، حتى يكون ذلك أصلا فى أيديهم يفزعون إليه ، فإذا سئل أحدهم عما لا يدرى قال " لا أدرى " »... قال ابن وهب : كان مالك يقول فى أكثر ما يسأل عنه : « لا أدرى » .

وهكذا تكون شيمة العالم الحق ، لا يأنف أن يقول لا أدرى إذا كان لا يدرى ، ويأنف أن يفتى بما لا يعلم ، بل لقد بلغ من دقة ابن هرمز وشدة حرصه أنه كان لا يحب أن يُروى عنه ، ولهذا نهى مالكاً أن يذكر اسمه فى سنده ، وآثر بهذا أن يخمل ذكره عن أن يشيع عنه النقل وقد يكون منه الخطأ فيُجَرَّح ويُتهم بالكذب .

وكان مالك ذا عقل وبصيرة ، ينقد ما يستمع إليه نقد العارف الخبير ، ولهذا كان ابن هرمز يؤثره هو وصاحبه عبد العزيز بن أبى سلمة على غيرهما من تلاميذه ، لأنهما ينبهانه إلى الخطأ ، حتى لقد قيل له : « نسألك فلا تجيبنا ، ويسألك مالك وعبد العزيز فتجيبهما ؟ » ، فيقول : « دخل علىّ فى بدنى ضعف ، ولا آمن أن يكون قد دخل علىّ فى عقلى مثل ذلك ، وأنتم إذا سألتمونى عن الشىء فأجبتكم قبلتموه ، ومالك وعبد العزيز ينظران فيه ، فإن كان صواباً قبلاه ، وإن كان غيره تركاه » .

أما ما هو العلم الذى أخذه مالك عن ابن هرمز فهذا ما لا نعرفه على وجه التحقيق ، فقد روينا من قبل عن القفطى وغيره أن مالكاً اختلف إلى عبد الرحمن ابن هرمز عدّة سنين فى علم لم يبثه فى الناس ، « فمنهم من قال : تردد إليه لطلب النحو واللغة قبل إظهارهما ، وقيل كان ذلك من علم أصول الدين وما يرد به مقالة أهل الزيغ والضلالة » ، ولسنا نميل إلى الرأى الأول لأن علم النحو واللغة ليس به من الأسرار ما يخشى معه أن يُبَثّ بين الناس ، والرأى الثانى أقرب إلى الصواب ، ويؤكده أن مالكاً قال عن أستاذه ابن هرمز إنه « كان من أعلم الناس بالرد على أهل الأهواء وما اختلف فيه الناس » .

فهذه العبارة تدل على أنه كان يتلقى عليه اختلاف الناس فى الفتيا والفقه ، ويتلقى عنه الرد على أهل الأهواء ، وهذه كلها أمور دقيقة شائكة لا يستساغ نشرها على كل الناس ، يقول الأستاذ محمد أبو زهرة فى كتابه القيم عن الإمام مالك :

« وكأنه بذلك يقسّم العلم قسمين : علم يلقى على الملأ والجمهور ، ولا يختص به أحد إذ لا ضرر فيه لأحد ، وكل العقول تقوى على قبوله واستساغته وهضمه والانتفاع به ، وقسم لا يصح أن يعرفه الناس فلا يلقى ، لأن ضرره على بعض النفوس أكثر من نفعه ، كالرد على أهل الأهواء ، فإنه ربما يعسر فهمه على بعض العقول ، وربما يفهمونه على غير وجهه . . . فيكون الضرر حيث كان يرجى النفع ، ولذلك لم يذع كل ما علمه عن ابن هرمز ، وإن كان تلقاه » .

* * *

هذا موجز عن حياة ابن هرمز العلمية ، عرفنا منه أىّ العلوم كان يتقن ، وعرفنا منه مكانته العلمية الممتازة بين السادة الأفاضل من علماء المدينة وكبار التابعين ، وعرفنا منه صلته بتلميذه النابغة الإمام مالك — رضى الله عنه — ، ولم يكن مالك — بطبيعة الحال — تلميذه الوحيد ، بل أخذت عن عبد الرحمن أمة من العلماء والمحدثين أشارت المراجع إلى نفر منهم ، ومجمل ما فيها أنه روى عنه : الزهرى ، وأبو الزناد عبد الله بن ذكوان ، وصالح بن كيسان ، ويحيى بن سعيد الأنصارى ، وزيد بن أسلم ، وموسى بن عقبة ، وجعفر بن ربيعة ، وعلقمة بن أبى علقمة ، ومحمد بن عجلان ، وعبد الله بن لهيعة ، وغيرهم .

وقد عاش عبد الرحمن بن هرمز عمره كله فى المدينة ، لم يغادرها — قبل رحلته الأخيرة إلى الإسكندرية — إلا مرة واحدة زار فيها الشام ، وقد انفرد ابن عساكر فى « تاريخ دمشق » بذكر رحلته هذه الشامية ، قال فى ترجمته لابن هرمز : « ووفد على يزيد بن عبد الملك » ، ونستطيع أن نحدد وقت هذه الرحلة بأنها كانت بين سنتى ١٠١ و ١٠٥ هـ ، ففى السنة الأولى ولى يزيد الخلافة ، وفى السنة الثانية توفى .

وقال البلاذرى فى « فتوح البلدان » :

« وحدثنى محمد بن سعد عن الواقدى أن ابن هرمز الأعرج القارئ كان يقول : " خير سواحلكم رباطاً الإسكندرية " ، فخرج إليها من المدينة مرابطاً ، فمات بها فى سنة ١١٧ هـ » [1] .

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٣٠ ، وقال الذهبى (تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٢٧٥) فى ختام ترجمته لابن هرمز : « انتقل فى آخر أيامه إلى مصر » وتوفى غريباً بالإسكندرية سنة سبع عشرة ومائة على الصحيح » .

ويبدو أن الرجل كان قد عمّر وقارب المائة حين خرج مرابطاً إلى الإسكندرية ، فهو كما عرفنا كان أقرب تلاميذ أبى هريرة إليه . صحبه مدة ، وأخذ عنه ، وروى عنه الحديث ، وأبو هريرة توفى سنة ٥٧ أو ٥٨ هـ ، فإذا قدرنا أن سن ابن هرمز كانت عند وفاة أستاذه أبى هريرة ما بين الثلاثين والأربعين صح استنتاجنا أنه خرج إلى الإسكندرية وقد قارب المائة من عمره ، ويؤكد هذا الاستنتاج ما ذكرناه سالفاً من تسويغ ابن هرمز لإيثاره مالكاً وعبد العزيز دون بقية تلاميذه، حين قال : « دخل علىّ فى بدنى ضعف ، ولا آمن أن يكون قد دخل علىّ فى عقلى مثل ذلك » ، وقد ذكرنا من قبل أيضاً أن مالكاً ولد فى سنة ٩٣ هـ وأنه بدأ يتتلمذ على ابن هرمز فى العاشرة من عمره ، أى فى سنة ١٠٣ أو نحوها ، وأنه لازمه مدة أقلها سبع سنوات ، أى إلى سنة ١١٠ ، ولهذا نرجح أن ابن هرمز خرج إلى الإسكندرية بعد ١١٠ هـ ، ولهذا فهو لم يقم بالإسكندرية إلا سنوات قليلة ، نحو الخمس سنوات ، ثم توفى إلى رحمة الله فى سنة ١١٧ هـ ، وهو تاريخ اتفق عليه جميع من ترجموا له .

ولم تشر المراجع بكلمة واحدة إلى هذه السنوات القليلة التى قضاها الشيخ ابن هرمز فى الإسكندرية قبل وفاته وكيف قضاها ، وأغلب الظن أن الرجل قضى هذه السنوات فى التدريس ورواية الحديث ، فقد كانت الإسكندرية — خير السواحل رباطاً كما وصفها ابن هرمز — تجتذب إليها عدداً كبيراً من علماء المسلمين ومن أفاضل التابعين ، وكان يقيم بها وقت مقام ابن هرمز عدد كبير من هؤلاء التابعين ممن ذكرنا ، من أمثال ثمامة بن شفى الهمدانى ، وربيعة بن سيف المعافرى الإسكندرانى ، وزاهر بن معبد بن عبد الله بن هشام التيمى ، وهؤلاء وغيرهم كانوا يكونون المدرسة الأولى التى أشاعت علوم القرآن والحديث والفقه واللغة ونشرتها فى مدينة الإسكندرية .

* * *

وفى الإسكندرية اليوم ، فى شارع رأس التين ، مسجد يسمى مسجد سيدى عبد الرحمن بن هرمز ، وبه ضريح ينسب إلى هذا التابعى الجليل ، ولم يشر إلى هذا المسجد وهذا القبر أحد من المؤرخين والرحالة إلا على مبارك فى كتابه « الخطط

التوفيقية » ولم ينسبه إلى سيدى عبد الرحمن ، وإنما نسبه إلى بانيه « الحاج درويش أبى سن » فقد قال عند تعداد مساجد المدينة :

« مسجد أبى سن أصل أرضه مقبرة بها ضريح الشيخ عبد الرحمن بن هرمس، وكان عليه مقصورة من خشب ، فلما بنى ما حوله ودخل فى تنظيم المدينة بنى ذلك المسجد، وجعل داخله ضريح الشيخ المذكور، والذى بناه المرحوم درويش أبو سن، وهو مسجد تام المرافق حسن المنظر، مقام الشعائر ، ويصرف عليه من الوقف[1] » .

فالمسجد حديث البناء ، بنى فى منتصف القرن الماضى ، وقد زرته أنا مراراً ، ورأيت فى أعلى محرابه لوحة صخرية كتب عليها :

« ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، بنى هذا صاحب الخيرات حاج درويش أبى سن ١٢٦٥ » .

وإلى يسار المحراب غرفة بها ضريح تعلوه مقصورة خشبية ، هو المنسوب إلى سيدى عبد الرحمن بن هرمز ، وإلى جانبه ضريح رخامى بسيط دفن به بانى المسجد الحاج درويش أبو سن ، وعلى حائط هذه الغرفة لوحة حجرية أخرى تحمل نصًّا شبيهاً بالنص السابق المرقوم أعلى المحراب .

والباحثون فى تاريخ الإسكندرية لا يطمئنون إلى صحة نسبة هذا الضريح إلى سيدى عبد الرحمن ، وقد أكّد لى هذا الشك فضيلة الأستاذ الشيخ بشير الشندى — المدير السابق لمكتبة بلدية الإسكندرية — ، وروى لى أن الشيخ محمد البنا — أحد علماء الإسكندرية فى القرن الماضى — كان يجتاز شارع رأس التين الحالى دائماً فى طريقه إلى سراى رأس التين لزيارة الخديو إسماعيل ، وقد رأى ليلة فيما يرى النائم أن صاحب هذا الضريح يعاتبه ويقول له : « كيف تمرّ بقبرى ولا تحيينى ؟ » فسأله الشيخ: « ومن أنت؟ » قال: «أنا عبد الرحمن بن هرمز» ، وقصّ الشيخ البنا هذه الرؤيا على نفر من أصدقائه، وكان من بينهم رجل فاضل من أثرياء المدينة هو الشيخ درويش أبو سن ، فتطوّع لبناء هذا المسجد ليضم الضريح ، ومن ثم نسب المسجد والضريح إلى سيدى عبد الرحمن بن هرمز ، ثم أوصى أن يدفن هو إلى جواره بعد وفاته .

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٧ ، ص ٧٠ .

فنسبة هذا الضريح إلى سيدى عبد الرحمن نسبة حديثة ، ترجع إلى منتصف القرن الماضى ، ولم يكن صاحب هذا الضريح معروفاً قبل هذه الحادثة ، ويؤكد هذا الشك مرة أخرى أن دارس طبوغرافية المدينة لا يطمئن إلى وجود هذه البقعة من الأرض المقام عليها الضريح فى أوائل القرن الثانى للهجرة ، وأغلب الظن أن هذه البقعة كانت وقتذاك مغمورة بمياه البحر ، شأنها شأن معظم المنطقة التى يقوم عليها حىّ الأنفوشى ورأس التين .

ونحن إذا انتهينا من هذا الشك إلى شىء من الاطمئنان ، ثار أمامنا شك آخر ، فإلى القرب من شارع رأس التين الحالى ، وفى نهاية شارع الميدان بل على امتداده يوجد شارع يسمى « شارع زاوية الأعرج » ، وتقوم فيه زاوية صغيرة تسمى « زاوية الأعرج » وليس بها ضريح ، ويجرؤ البعض فينسبونها إلى سيدى عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، فقد كان الرجل أعرج ، وشهر بهذه الصفة فى كتب الحديث .

ضريح عبد الرحمن بن هرمز

ولكن هذه النسبة خاطئة أيضاً ، والذى نرجحه أن هذه الزاوية تنسب إلى ولى آخر من أولياء الله الصالحين عاش فى الإسكندرية فى القرن الثامن للهجرة ،

وكان اسمه (الشيخ برهان الدين الأعرج) ، ولهذا الشيخ قصة طريفة ، فهو المشجع الأول للرحالة المشهور ابن بطوطة على إتمام رحلاته فى الشرق الأقصى حتى يصل إلى الهند والصين ، ذكر ابن بطوطة أنه زار هذا الشيخ أثناء زيارته لمدينة الإسكندرية ، وأنه أقام فى ضيافته ثلاثة أيام ، قال :

« ومنهم (أى من شيوخ الإسكندرية) الإمام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج ، من كبار الزهاد وأفراد العُبَّاد ، لقيته أيام مقامى بالإسكندرية وأقمت فى ضيافته ثلاثاً .

دخلت عليه يوماً فقال لى : " أراك تحب السياحة والجولان فى البلاد " ، فقلت له : " نعم ، إنى أحب ذلك " ، ولم يكن حينئذ خطر بخاطرى التوغل فى البلاد القاصية من الهند والصين ، فقال : " لابد لك إن شاء الله من زيارة أخى فريد الدين بالهند ، وأخى ركن الدين زكريا بالسند ، وأخى برهان الدين بالصين ، فإذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام " ، فعجبت من قوله ، وألقى فى روعى التوجه إلى تلك البلاد ، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم ، وأبلغتهم سلامه ، ولما ودعته زودنى دراهم لم تزل عندى محوطة ، ولم أحتج بعد إلى إنفاقها ، إلى أن سلبها منى كفار الهنود فيما سلبوه لى فى البحر[1] » .

ودارسو ابن بطوطة ورحلته يرون دائماً أن هذه الكلمات الموحية من الشيخ برهان الدين الأعرج الإسكندرى هى التى أوحت إلى ابن بطوط فكرة الارتحال إلى أن يصل إلى هذه الأطراف القاصية من بلاد المسلمين .

* * *

وبعد ، فلعلنا أزلنا بهذا التحقيق كثيراً من الشكوك التى تحيط بضريح سيدى عبد الرحمن بن هرمز ومسجده ، وبسميه برهان الدين الأعرج وزاويته ، ولعلنا قمنا ببعض الواجب علينا من التعريف بسيرة هذا التابعى الجليل الذى تعتز الإسكندرية به ، وحق لها أن تعتز به وأن تفخر ، فقد أصبح تاريخه جزءاً من تاريخها .

---

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ١٦ — ١٧ .

مراجع
عن عبد الرحمن بن هرمز

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على) .

= الكامل فى التاريخ ، ١٢ جزءاً ، المطبعة الأزهرية بالقاهرة ١٣٠١ هـ

= اللباب فى تهذيب الأنساب ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٣٥٧–١٣٦٩

ابن بطوطة (محمد بن عبد الله)

= مهذب الرحلة ، نشر أحمد العوامرى وأحمد جاد المولى ، القاهرة ١٩٣٣

البلاذرى (أحمد بن يحيى)

= فتوح البلدان ، القاهرة ١٣١٨

ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف ، أبو المحاسن) .

= النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٢٩

ابن حجر (شهاب الدين أحمد بن على العسقلانى)

= تهذيب التهذيب ، حيدر أباد الدكن ١٣٢٦ هـ ، الجزء السابع

الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد)

= تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، القاهرة ١٣٦٧–١٣٦٩

= تذكرة الحفاظ ، حيدر أباد الدكن (بدون تاريخ)

الزبيدى (أبو بكر محمد بن الحسن)

= طبقات النحويين واللغويين ، نشر محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٥٤

أبو زهرة (الشيخ محمد)

= الإمام مالك ، القاهرة ، ١٩٥٢

ابن سعد (كاتب الواقدى)

= الطبقات الكبير ، نشر سخاو وآخرين ، ١٩٠٥ – ١٩٢١

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر)
= حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزءان ، القاهرة ١٣٢٧
= بغية الوعاة ، القاهرة ١٢٢٦

ابن عساكر (أبو القاسم على بن الحسن)
= تاريخ مدينة دمشق ، المجلد الأول ، نشر صلاح الدين المنجد ، دمشق ، ١٩٥١

ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى)
= شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، القاهرة ، ١٣٥٠ — ١٣٥٣

ابن قاضى شهبة (تقى الدين أحمد بن محمد)
= طبقات الشافعية ، مخطوط بدار الكتب المصرية .

القفطى (جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف)
= إنباه الرواة على أنباء النحاة ، ظهر منه ٣ أجزاء ، نشر محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٠—١٩٥٥

مبارك (على)
= الخطط التوفيقية الجديدة ، ٢٠ جزءاً ، بولاق ، ١٣٠٤—١٣٠٦

ابن النديم (محمد بن إسحق)
= الفهرست ، طبع القاهرة (بدون تاريخ)

أبو نعيم (أحمد بن عبد الله)
= حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ، ١٣٥١

أبو بكر الطرطوشي

محمد بن الوليد

٤٥٠ ـــ ٥٢٠ هـ ، ١٠٥٨–١١٢٦ م

العالم الزاهد الثائر

« إذا عرض لك أمران ـــ أمر دنيا وأخرى ـــ فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى »

أبو بكر الطرطوشي

« إن الرعية إذا قدرت على أن تقول قدرت أن تفعل ، فاجتهد ألا تقول تسلم من أن تفعل »

أبو بكر الطرطوشي

أبو بكر الطرطوشى

١

كان لموقع مدينة الإسكندرية الجغرافى أثر كبير فى توثيق العلاقات بينها وبين بلاد المغرب والأندلس فى العصور الوسطى ، فالإسكندرية كانت ثغراً من الثغور الإسلامية الهامة ، وكانت رباطاً كبيراً ترابط فيها — منذ دخلها المسلمون — حامية مسلحة كبيرة ، فقد خصص عمرو بن العاص ربع جيشه لرباط الإسكندرية يقيمون بها ستة أشهر ثم يستبدلون بربع آخر ، وكان عمر بن الخطاب يرسل كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط فى الإسكندرية ، وذلك لأن العرب لم يكونوا يأمنون عليها غارات العدو بعد أن نقض الروم الصلح مرتين ، وحاولوا الهجوم عليها واستردادها ، وكتب عثمان إلى عبد الله بن سعد بن أبى السرح بعد نقض الروم :

« وقد علمت كيف كان همُّ أمير المؤمنين بالإسكندرية ، وقد نقضت الروم مرتين ، فألزم الإسكندرية رابطتها ، ثم أَجْرِ عليهم أرزاقهم ، وأعقب منهم فى كل ستة أشهر » .

وقد بلغت رابطة الإسكندرية فى عهد معاوية سبعة وعشرين ألف جندى ، منهم عشرة آلاف من أهل الشام ، وخمسة آلاف من أهل المدينة .

ومن الأقوال المأثورة :

« أربعة أبواب من الجنة مفتحة فى الدنيا : الإسكندرية ، وعسقلان ، وقزوين ، وجدة »

ومنها : أن الإسكندرية « كنانة الله يحمل فيها خير سهامه » .

وقال عبد الله بن مرزوق الصدفى :

« لما نُعى إلىّ ابن عمى خالد بن زيد — وكان قد توفى بالإسكندرية — لقينى

موسى بن على بن رباح ، وعبد الله بن لهيعة ، والليث بن سعد متفرقين ، كلهم يقولون : أليس مات بالإسكندرية ؟ فأقول : بلى ، فيقولون : هو حيٌّ عند الله يُرزق ويُجرى عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا ، وله أجر شهيد حتى يُحشر على ذلك » .

فالمسلمون الأول كانوا يعتقدون أن الإقامة فى الرباطات والحياة فى الثغور نوع من الجهاد ، ومن يموت أثناء مقامه بها فهو شهيد ، ولهذا جذبت الإسكندرية إليها فى العصور الإسلامية الأولى عدداً كبيراً من المسلمين ، ومن العلماء بوجه خاص ، ومن علماء المغرب والأندلس بوجه أخص .

كما أن مسلمى المغرب والأندلس كانت تتطلع نفوسهم وتهفو أرواحهم دائماً إلى المشرق منبت الدعوة الإسلامية ، ومقر البلدان المقدسة : مكة ، والمدينة ، وبيت المقدس ، وموطن العلم الإسلامى ، ودار العلماء والمعاهد العلمية المختلفة ؛ فهم كانوا فى شوق دائم إلى الرحلة إلى هذا المشرق ، وهدفهم الأول أداء الفريضة ، والحج إلى بيت الله ، وزيارة قبر الرسول ، والإلمام بالمساجد ومعاهد العلم ، ومقابلة العلماء والأخذ عنهم .

وكان المحط الأول لرحلتهم المشرقية هو مدينة الإسكندرية ، الرباط والثغر الإسلامى الكبير ، يصلون إليها بعد رحلة طويلة شاقة مضنية عبر الصحراء حيناً ، وعلى ظهور السفن حيناً آخر ، وهم كانوا إذا وصلوا إليها أقاموا فيها فأطالوا الإقامة ، طلباً للراحة من عناء السفر ، ولزيارة معالمها التاريخية التى كانت تبهر أنظارهم وقتذاك ، مثل : المنارة — إحدى عجائب الدنيا — ، وعمود السوارى ، والمسلات ، والقصور ، والكنائس القديمة ، والأسوار الشاهقة وما يتخللها من أبراج وحصون وأبواب ، وأخيراً المساجد التى بنيت فى العصر الإسلامى الأول لتكون معابد يذكر فيها اسم الله كثيراً ومدارس لنشر العلم .

وكان هؤلاء المغاربة والأندلسيون يستأنفون رحلتهم بعد ذلك فيؤدون الفريضة ، وقد تشوق البعض منهم الرحلة ومباهجها ، فيتنقلون فى مدن الشرق وأمصاره الكبرى ، مثل بغداد أو دمشق أو بيت المقدس ، وغيرها ، لزيارتها والإفادة من علمائها ، ثم يعودون بعد هذه الرحلة الطويلة إلى الإسكندرية ليستأنفوا منها طريق العودة إلى

بلادهم ، ولكن كثيرين منهم — وخاصة العلماء وطلاب العلم — كانوا يؤثرون البقاء فى الإسكندرية واتخاذها وطناً ودار إقامة ، لينالوا شرف المقام فى هذا الثغر والرباط العظيم ، وليستزيدوا من علم يطلبونه ، أو لينشروا علماً حصّلوه .

وقد زادت صلة الإسكندرية بالمغرب توثقاً منذ أتى الفاطميون بجيوشهم من المغرب وفتحوا مصر واتخذوها مقرّ خلافة ، فقد أصبح المغرب منذ ذلك الفتح ولاية تابعة لمصر الفاطمية ، ونتيجة لهذا كثرت رحلات المغاربة والأندلسيين إلى مصر وإلى الإسكندرية بوجه خاص .

وبرغم أن المذهب الرسمى للدولة فى العصر الفاطمى كان هو المذهب الشيعى ، وبرغم أن الدولة بذلت جهوداً كبيرة لنشر هذا المذهب بين المصريين جميعاً ، فقد ظلت مدينة الإسكندرية مدينة سنية ، وكان المذهب المنتشر بين السكندريين والمعمول به بينهم هو مذهب مالك منذ انتشر هذا المذهب فى المغرب بين المغاربة ، ولهذا نرى أن عدداً كبيراً من علماء الإسكندرية فى العصر الإسلامى — المصريين منهم والمغاربة — كانوا مالكى المذهب .

ومن كبار هؤلاء العلماء المالكية الذين رحلوا من المغرب والأندلس إلى الإسكندرية ، واستقروا بها فى القرن الخامس الهجرى — أى فى العصر الفاطمى — واتخذوها وطناً ودار مقام لهم ، الفقيه العالم والصوفى الكبير أبو بكر الطرطوشى .

٢

ولد هذا العالم الجليل فى سنة ٤٥٠ أو ٤٥١ هـ فى مدينة طُرْطُوشة ، وإليها ينسب ، وطُرْطُوشة — كما وصفها ياقوت الحموى — : مدينة كبيرة من مدن الأندلس تقوم على سفح جبل إلى الشرق من بلنسية وقرطبة ، بينها وبين البحر عشرون ميلا ، وهى مدينة منيعة يحيط بها سور من الصخر حصين بناه بنو أمية ، وللسور أربعة أبواب ملبسة كلها بالحديد ، وبها دارٌ لصناعة السفن ، فى المدينة ، وعلى جبالها ينبت شجر الصنوبر الذى لا يوجد له نظير فى الطول والغلظ ، لا يفعل فيه السوس ما يفعله فى غيره من الخشب ، ومنه تتخذ صوارى السفن .

وكانت طرطوشة إلى هذا مدينة تجارية عظيمة ، بها أسواق وعمارات وضياع وسوقها فى الرَّبَض القبلى جامعة لكل صناعة ومتجر ، وكان بها جامع كبير من خمس بلاطات ، وله رحبة واسعة ، بنى سنة ٣٤٥ هـ ، كما كان بها أربعة حمامات .

فى هذه المدينة الأندلسية الكبيرة نشأ فقيهنا وعالمنا أبو بكر الطرطوشى ، وفيها درج ينعم بجمالها الطبيعى الملهم ، فالمدينة تحتضنها الجبال الشاهقة ، وتغطيها أشجار الصنوبر الفارعة السامقة ، وتطل من بعيد على البحر المتوسط ، بأمواجه الصاخبة حيناً ، الهادئة المتهادية حيناً آخر ، وفى مسجدها الكبير تلقَّى علومه الأولى ، ولما شبَّ عن الطوق رحل إلى مدن الأندلس الكبيرة يستزيد من العلم ، فذهب إلى مدينة سَرَقُسْطَة ، واتصل بكبير علمائها فى ذلك الوقت ، القاضى أبى الوليد الباجى ، وأخذ عنه مسائل الخلاف ، وسمع منه ، وأجاز له .

وأبو الوليد الباجى هو شيخ الأندلس وعالمها فى ذلك الوقت دون منازع ، وخاصة بعد وفاة ندِّه ومنافسه ابن حزم ، فإليه كانت تُشَدُّ الرحال ، وإلى حلقته كانت تفد جموع الطلاب من مشارق الأندلس ومغاربها ، ويبدو أن الطرطوشى بدأ يتتلمذ على الباجى وهو فى سن العشرين أو نحوها ، أى حوالى سنة ٤٧٠ هـ ، لأن أبا الوليد الباجى توفى سنة ٤٧٤ هـ .

وتجمع المراجع أيضاً على أن الطرطوشى قرأ الفرائض والحساب بوطنه ، وإن كانت لا تذكر الشيوخ الذين أخذ عنهم هذين العلمين ، وانفرد المقَّرى فى كتابه « نفح الطيب » بأن الطرطوشى قرأ الأدب على أبى محمد بن حزم بمدينة أشبيلية ، ولسنا نميل إلى تصديق المقَّرى فى قوله هذا ، لأن ابن حزم توفى سنة ٤٥٦ هـ ولم يكن الطرطوشى فى هذه السنة قد جاوز الخامسة أو السادسة من عمره ، ولا يعقل أن يرتحل الطرطوشى فى هذه السن الصغيرة إلى أشبيلية ، وأن يتتلمذ على ابن حزم ، ويأخذ عنه الأدب أو يفقهه ، وقد يكون قرأ كتبه فى الأدب بعد ذلك بنفسه ، أو على واحد من تلاميذ ابن حزم ، ومن هنا ذكر هو أو ذُكر عنه أنه تلميذ لابن حزم فى الأدب .

٣

ولسنا نعرف شيئاً عن أسرة فقيهنا أبي بكر الطرطوشي ، فإن المراجع التي أرّخت له لم تذكر حرفاً واحداً عن هذه الأسرة :

هل كانت هذه الأسرة غنية فنقول : إنه نشأ في بحبوحة من العيش ؟

أو هل كانت فقيرة فنقول إنه ذاق مرارة العوز منذ طفولته الأولى ؟

هل كان أهلوه ذوي جاه وسلطان ؟

هل كانوا من المشتغلين بالتجارة ، وطُرْطُوشة كما رأينا مدينة تجارية ؟

هل كانوا من رجال العلم ولهذا نشأ فقيهنا عالماً ؟

هل كانوا رجال حرب ، والأندلس كلها كانت تضطرم في ذلك الوقت بالفتن وتنتهبها الانقسامات ؟

لا نستطيع في الحقيقة أن نجيب عن هذه الأسئلة إلا استنتاجاً ، فإن الطرطوشي يروي في كتابه « سراج الملوك » قصة واحدة عن فرد واحد من أسرته ، نفهم من هذه القصة أن أسرة والدته كانت من سرقسطة ، ولعل هذا يفسر لمَ اتجه في رحلته العلمية الأولى إلى هذه المدينة ، ونفهم منها أن بعض أفراد الأسرة كانوا من رجال الحرب الشجعان المبرزين ، فهذه القصة تتحدث عن الشجاعة الخارقة لرجل اسمه أبو الوليد بن فتحون ، كان خالا لوالدة الطرطوشي .

ولنستمع إلى الطرطوشي نفسه يروي هذه القصة :

« وكان بسرقسطة فارس يقال له ابن فتحون ، وكان يناسبني فيقع خال والدتي ، وكان أشجع العرب والعجم ، وكان المستعين أبو المقتدر يرى ذلك له ويعظمه ، وكان يجري عليه في كل عطية خمسمائة دينار ، وكانت النصرانية بأسرها قد عرفت مكانته ، وهابت لقاءه ، فيحكى أن الرومي كان إذا سقى فرسه فلم يشرب يقول له : اشرب ، هل ابن فتحون رأيتَ في الماء ؟ فحسده نظراؤه على كثرة العطاء ، ومنزلته من السلطان ، فأوغروا به صدر المستعين ، فمنعه أياماً ، ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم فتواقفت المسلمون والمشركون صفوفاً ، ثم برز علج إلى وسط الميدان ينادي : هل من مبارز ؟ فخرج إليه فارس من المسلمين ،

فتجاولا ساعة ، فقتله الرومى ، وصاح الكفار سروراً ، وانكسرت نفوس المسلمين .

وجعل الرومى يكر بين الصفين وينادى : هل من اثنين لواحد ؟ فخرج إليه فارس من المسلمين ، فقتله الرومى ، فصاح الكفار سروراً ، وانكسرت نفوس المسلمين .

وجعل يجول بين الصفين وينادى ويقول : ثلاثة لواحد ؟ فلم يستجرِ أحد من المسلمين أن يخرج إليه ، وبقى الناس فى حيرة .

فقيل للسلطان : مالها إلا أبو الوليد بن فتحون ، فدعاه ، وتلطف به ، وقال له : أما ترى ما يصنع هذا العلج ؟ فقال : هو بعينى ، فقال : فما الحيلة فيه ؟ فقال أبو الوليد : فماذا تريد ؟ فقال اكفِ المسلمين شرّه ، فقال : الساعة يكون ذلك إن شاء الله تعالى .

فلبس قميص كتان ، واستوى على سرجه بلا سلاح ، وأخذ بيده سوطاً طويل الطرف وفى طرفه عقدة معقودة ، ثم برز إليه ، فعجب منه النصرانى ، ثم حمل كلٌّ واحد منهما على صاحبه ، فلم تخط طعنة النصرانى سرج بن فتحون ، وإذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس ، ونزل إلى الأرض لا شىء منه فى السرج ، ثم طفر على سرجه وحمل عليه ، وضربه بالسوط فى عنقه ، فالتوى على عنقه فجذبه بيده من السرج ، فاقتلعه من سرجه ، وجاء به يجره فألقاه بين يدى المستعين .

فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ فى صنعه معه ، فأكرمه ، وردّه إلى أحسن أحواله » .

فوالدة الطرطوشى كانت إذن من أسرة ذات جاه فى سرقسطة ، يمتهن أحد رجالها فن الحرب والقتال ، ويبرز فى هذا الفن فيتفوق على أقرانه جميعاً ، حتى يقربه السلطان إليه ويغدق عليه العطايا ، ويعتز بشجاعته ، فيلجأ إليه فى الملمات .

أما والد الطرطوشى ، فاسمه الوليد ، وإن كانت المراجع تذكر أن أبا بكر الابن كان يعرف بابن أبى رَنْدَقة .

فهل كانت « أبو رندقة » كنية لأبيه ؟ وما معناها ؟

الذى تذكره المراجع أيضاً أنها لفظة إفرنجية ، فإذا صح أنها كانت كنية لأبيه فهل كان أبوه ينحدر إذن من أصل إسبانى مسيحى ؟

أغلب الظن أنه لم يكن كذلك ، فإن نسبه فيما وصل إلينا واضح، وينتهى إلى قريش ، فهو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشى الفهرى ، فهو من أصل عربى واضح ، ولعله كنى بهذه الكنية الفرنجية لأمر لا نعرفه يتصل بمعنى هذا اللفظ .

أما مهنته فلسنا نعرف عنها شيئاً كذلك ، ولكنى أرجح أنه لم يكن يمتهن التجارة أو الصناعة وإلا لنشّأ ابنه على إحدى هاتين الحرفتين ، كما كانت العادة الغالبة بين سكان المدن الكبرى فى العصور الوسطى .

وأبو بكر الطرطوشى نفسه يصرح أنه لم يكن يفقه شيئاً فى التجارة ، وأنه لم يحترف حرفة ما ، فإن هذه كانت كبرى مشاكله عندما فكر فى الرحلة إلى المشرق ، يقول فى كتابه « سراج الملوك » :

« وأما أنا ، فلما هممت بالرحيل من بلدى إلى المشرق فى طلب العلم كنت لا أعرف التجارة ، ولا لى حرفة أرجع إليها ، فجزعت من الخروج ، وكنت أقول :

إذا ذهبت نفقتى ماذا أفعل ؟ وكان أقوى الآمال فى نفسى أن أحفظ البساتين بالأجرة وأدرس العلم بالليل ، ثم استخرتُ الله فرحلت ، وكانت معى نفقة وافرة فى هميان على وسطى » .

فالذى نرجحه أن والده كان عالماً أو من المشتغلين بالعلم ، وأنه لهذا وجّه ابنه هذه الوجهة التى يرضاها ، وأن أسرته كانت على شىء من الثراء ، ولهذا استطاع أن يعيش فى وطنه حتى الخامسة والعشرين من عمره وهو عالة على أهله ، يطلب العلم وهم يكفونه مؤونة السعى وراء الرزق ، ولهذا استطاع أيضاً أن يزود قبل خروجه للرحلة بنفقة وافرة — كما يقول — ، ولكن الذى كان يشغل باله أن تنفد هذه النفقة أو تفقد ، وهو لا يعرف حرفة يرتزق منها ، فهداه تفكيره إن حدث له شىء من هذا أن يعمل حارساً للبساتين ، ليفرغ فى الليل لدراسة العلم ، ثم استخار الله وتوكّل عليه ، وبدأ رحلته .

وشاق الطرطوشى ما كان يشوق رصفاءه من فقهاء الأندلس ، شاقته الرحلة

إلى المشرق للحج ولطلب العلم ، أو لعله أعجب بسيرة أستاذه أبى الوليد الباجى ، فأراد أن ينهج نهجه ، فقد رحل الباجى من قبل إلى المشرق ، وحج ومكث فى مكة ثلاث سنوات ، ثم زار مدن الشرق الكبرى : بغداد ، والموصل ، ودمشق ، واتصل بأعلامها وعلمائها ، وأخذ عنهم ، وأخذوا عنه ، ورجع إلى وطنه بعد ثلاثة عشر عاماً حصّل فى إبّانها علماً كثيراً ، وأفاد تجربة وقدرة على الجدل والمناقشة ، فأثار فى محافل العلم الأندلسية ضجة كبرى .

فلم لا يحتذى التلميذ حذو أستاذه ؟ فلعله يبلغ من المجد العلمى ما بلغ أستاذه .

٤

فى سنة ٤٧٦ هـ غادر الطرطوشى وطنه — وهو غضّ الشباب فى الخامسة والعشرين من عمره — ليبدأ رحلته إلى الشرق .

ونحن لا نعرف شيئاً عن المرحلة الأولى من رحلته هذه .

فلا نعرف مثلا هل سلك طريق البحر أو طريق البر ؟ ولا نعرف أىّ الأقطار أو البلدان زار فى طريقه ؟

ولكننا نلقاه فى مكة ، وقد استقرّ بها قليلا بعد أداء الفريضة ، يلقى بعض الدروس ، فقد روى مواطن من مواطنيه ، زامله فى شبابه الأول ، وتتلمذ معه فى سرقسطة على أبى الوليد الباجى ، أنه رآه فى مكة ، واستمع إلى بعض دروسه هناك .

هذا المواطن هو القاضى أبو على الحسين بن محمد بن فرو الصدفى ، قال : « صحبته عند الباجى ولقيته بمكة ، وأخذت عنه أكثر السنن لأبى داود عن التُّسْتُرِى » .

ولم يمكث أبو بكر الطرطوشى فى مكة طويلا ، بل استأنف رحلته ، واتجه إلى بغداد ، فإن مواطنه وزميله أبا على الحسين بن محمد الصدفى ، الذى قابله فى مكة ، يستطرد فى حديثه عنه فيقول : « ثم دخل بغداد وأنا بها » .

فقد كانت بغداد فى ذلك الوقت مركزاً من أكبر مراكز العلم فى العالم

الإسلامى، وكانت محط رحال العلماء ، يفدون إليها من أقصى المشرق ومن أقصى المغرب ، فكان لابد لأبى بكر الطرطوشى — وقد رضيت نفسه بأداء فريضة الحج — أن يرحل إليها ليستكمل دراسته ، ويتصل بعلمائها الأعلام ، ويتتلمذ عليهم ويأخذ عنهم .

وكان يلى أمور الشرق فى ذلك الوقت نظام المُلْك وزير الملكيْن السلجوقييْن : ألْب أرسلان ، ومَلِك شاه، وهو وزير عالم يحب العلم والعلماء ، ويقربهم إليه ، ويغدق عليهم العطايا .

وقد شهد الطرطوشى أثناء مقامه فى بغداد آثار هذه السياسة العلمية الحصيفة التى اصطنعها نظام الملك لنفسه وللدولة ، وأشاد بذكرها فى كتابه سراج الملوك قال :

« وذلك أنى لما كنت بالعراق ، وكان الوزير نظام الملك قد وزر لأبى الفتح — ملك الترك — ابن ألْب أرسلان ، وكان قد وزر لأبيه من قبله ، فقام بدولتهما أحسن قيام ، فشدّ أركانها ، وشيّد بنيانها ، واستمال الأعداء ، ووالى الأولياء ، واستعمل الكفاة ، وعمّ إحسانه العدو والصديق ، والبغيض والحبيب ، والبعيد والقريب حتى ألقى الملك بجرانه ، وذل الخلق لسلطانه .

وكان الذى مهّد له ذلك بإذن الله تعالى وتوفيقه أنه أقبل بكليته على مراعاة رجال الدين ، فبنى دور العلم للفقهاء ، وأنشأ المدارس للعلماء ، وأسس الرباطات للعُبّاد والزُّهّاد ، وأهل الصلاح والفقراء ، ثم أجرى لهم الجرايات والكساوى والنفقات . . . . وعم بذلك أقطار مملكته فلم يكن من أوائل الشام — وهى بيت المقدس — إلى سائر الشام الأعلى ، وديار بكر ، والعراقين ، وخراسان بأقطارها إلى سمرقند من وراء نهر جيحون ، مسيرة زهاء مائة يوم ، حاملُ علم أو طالبهُ ، أو متعبد أو زاهد فى زاويته ، إلا وكرامته شاملة له ، وسابغة عليه ، وكان الذى يخرج من بيوت أمواله فى هذه الأبواب ستمائة ألف دينار فى كل سنة » .

وذكر الطرطوشى بعد أن تحدّث عن هذه النهضة العلمية وآثارها فى تدعيم ملك السلاجقة أن بعض الوشاة وشوا بالوزير نظام الملك عند السلطان ملك شاه

ليوغروا صدره ضده ، وقالوا : إن هذا المال الوفير الذى يصرف على الفقهاء والعلماء كله أولى به أن يصرف لتكوين جيش ضخم يهاجم به القسطنطينية ويضمها إلى ملكه ، وأخذ ملك شاه ببريق هذا الحديث الواشى ، واستدعى إليه نظام الملك ، ودار بين الرجلين حديث رائع يرويه الطرطوشى معجباً به فى كتابه سراج الملوك :

قال ملك شاه لوزيره : « يا أبت : بلغنى أنك تخرج من بيوت الأموال كل سنة ستمائة ألف دينار إلى من لا ينفعنا ولا يغنى عنا ؟ »

فبكى نظام الملك وقال : « يا بنى أنا شيخ أعجمى ، لو نودى على فيمن يُزيد لم أحفظ خمسة دنانير ، وأنت غلام تركى لو نودى عليك عساك تحفظ ثلاثين ديناراً ، وأنت مشتغل بلذاتك ، منهمك فى شهواتك ، وأكثر ما يصعد إلى الله تعالى معاصيك دون طاعاتك ، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب إذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان ، وقوس لا ينتهى مدى مرماه ثلاثمائة ذراع ، وهم مع ذلك مستغرقون فى المعاصى والخمور والملاهى والندماء والطنبور ، وأنا أقمت لك جيشاً يسمى جيش الليل ، إذا نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفاً بين يدى ربهم ، فأرسلوا دموعهم ، وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم ، ومدوا إلى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك ، فأنت وجيوشك فى خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون ، وببركاتهم تمطرون وترزقون ، تمرق سهامهم إلى السماء السابعة بالدعاء والتضرع » .

قال الطرطوشى :

« فبكى أبو الفتح الملك بكاء شديداً ثم قال : شاباش يا أبتِ شاباش !! أكثر لى من هذا الجيش » .

فنظام الملك كان يرى إذن أن جيش الليل ، جيش العلماء والصوفية ، الذى يكونه ويغدق عليه العطاء ، أجدى على الدولة من جيش الجنود والقواد ، وأن دعاء هذا الجيش أجدى فى تدعيم الدولة وتثبيت أركانها من سلاح الجنود اللاهين العابثين وأقواسهم وسهامهم .

وأخصُّ ما يذكر به نظام الملك فى التاريخ أنه منشىء المدارس فى العالم

الإسلامى ، فقد كانت المساجد إلى عصره هى معاهد العلم ، فيها تُعقد حلقاته ودروسه ، فكان نظام الملك أول من أنشأ معاهد مستقلة للتعليم ، يتفرغ فيها الطلاب للتعليم والمدرسون للتدريس ، وأوقف الأوقاف الكثيرة للصرف عليها وعليهم ، وأسماها المدارس ، وحملت كل مدرسة منها اسمه ، فكانت تسمى « النظامية » ، وكانت أكبرها وأشهرها المدرسة النظامية ببغداد التى بنيت قبيل وصول فقيهنا أبى بكر الطرطوشى إلى بغداد بسنوات قليلة ، وقد شهد الطرطوشى نظامية بغداد وهى فى أوج عظمتها وتتلمذ بها ووصفها ، وذكر قصة بنائها قال :

« ومن مناقب هذا الرجل وفضائله — يقصد نظام الملك — أن رجلا قصده يقال له أبو سعيد الصوفى ، فقال له : يا خواجا أنا أبنى لك مدرسة ببغداد مدينة السلام لا يكون فى معمور الأرض مثلها ، يخلد بها ذكرك إلى أن تقوم الساعة ، قال : افعل ، وكتب إلى وكلائه ببغداد أن يمكنوه من الأموال ، فابتاع قطعة على شاطىء دجلة ، وخطّ المدرسة النظامية وبناها أحسن بنيان ، وكتب عليها اسم نظام الملك ، وبنى حولها أسواقاً تكون محبسة عليها ، وابتاع ضياعاً وحمامات وأوقف عليها ، فكملت لنظام الملك بذلك رياسة وسؤدد ، وذكر جميل طبق الأرض خبره ، وعم المشارق والمغارب أثره ، وكان ذلك فى سنى عشر الخمسين وأربعمائة من الهجرة » .

وكان أول من عُيّن للتدريس بها أبو نصر عبد السيد بن محمد بن الصباغ ، ثم تولى منصب التدريس بها عدد من كبار الفقهاء الشافعية ، من أمثال أبى إسحق الشيرازى ، وأبى سعد عبد الرحمن بن مأمون المتولى ، وأبى بكر محمد بن أحمد الشاشى ، وحجة الإسلام أبى حامد الغزالى .

ورغم أن أبا بكر الطرطوشى كان مالكى المذهب ، فقد تتلمذ على معظم هؤلاء الفقهاء الشافعية وعلى بعض فقهاء الحنابلة ، وقد نصت المراجع التى ترجمت له على أسماء هؤلاء الأساتذة الذين أخذ عنهم الطرطوشى فى بغداد ؛ قال الحميرى فى كتابه « صفة جزيرة الأندلس » : « وسكن بغداد وتفقه على أبى بكر الشاشى وسمع بها الحديث » .

وقال ياقوت فى معجم البلدان :

« ودخل بغداد والبصرة فتفقه على أبى بكر الشاشى ، وأبى سعد بن المتولى

وأبي أحمد الجرجاني ، أئمة الشافعية ، ولقي القاضي أبا عبد الله الدامغاني . . . وسمع ببغداد عن أبي محمد التميمي الحنبلي وغيرهم » .

دخل أبو بكر الطرطوشي بغداد إذن وهي تنتعش بالعلماء الأعلام ، وتضج بالنشاط العلمي المتشعب النواحي ، والمدرسة النظامية هي واسطة العقد ومركز هذا النشاط ، وكبار العلماء يتنافسون في سبيل الوصول إلى كرسي الأستاذية بها ، ولكل أستاذ تلاميذه الذين يتعصبون له ، ويفخرون بالتتلمذ عليه ، روى ابن خلكان أن المدرسة النظامية بدئ في بنائها سنة ٤٥٧ هـ ، وفتحت يوم السبت العاشر من ذي القعدة من سنة ٤٥٩ هـ ، وكان نظام الملك قد أصدر أمره بتعيين كبير فقهاء الشافعية في بغداد أبي إسحق الشيرازي للتدريس بها ، واجتمع الناس يوم الافتتاح للاستماع إلى درسه ، ولكنه لأمرٍ ما اختفى في ذلك اليوم ولم يحضر ، فعُيِّن مكانه عالم آخر لا يقل عنه مكانة هو أبو نصر بن الصباغ ، وظهر الشيخ أبو إسحاق بعد أيام في مسجده ، وكان أصحابه وتلاميذه قد آلمهم موقفه وتولى منافسه ابن الصباغ التدريس بالنظامية ، فأعلنوا غضبهم منه ، وانفضوا عن دروسه احتجاجاً ، ثم راسلوه ، وما زالوا به يقنعونه أن يقبل وظيفة الأستاذية بالنظامية وهددوه أن ينفضوا من حوله وينضموا إلى ابن الصباغ إن هو أصرّ على موقفه ، فاضطر أن يذعن ، وقبل المنصب ، وبدأ التدريس بالنظامية ، وعزل ابن الصباغ بعد أن درّس عشرين يوماً .

٥

وكان رجال هذه المدرسة جميعاً الذين تعاقبوا على التدريس بها والذين أخذ عنهم الطرطوشي من العلماء البارزين ، تجمع المصادر على وصفهم بالفضل والعلم والتقوى والقدرة على التأليف والإنتاج ، وأبو إسحاق الشيرازي عندهم إمام وقته ببغداد ، وروى الطرطوشي نفسه شعراً قاله غيره يصف الشيرازي بالذكاء المتوقد ، قال ابن خلكان في الوفيات :

قال الشيخ أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي : كان ببغداد شاعر مفلق يقال له عاصم ، فقال يمدح الشيخ أبا إسحاق قدّس الله سره :

تراه من الذكاء نحيفَ جسمٍ عليه من توقُّده دليلُ
إذا كان الفتى ضخمَ المعالى فليس يضيره الجسمُ النحيلُ

أما أبو بكر الشاشى فتصفه المراجع بأنه كان فخر الإسلام ، فقيه بغداد ، تتلمذ على أبى إسحق الشيرازى ، ثم انتهت إليه رياسة الطائفة الشافعية ، وله تصانيف حسنة ، وتعيّن فى الفقه بالعراق بعد أستاذه أبى إسحاق، وتولى التدريس بالمدرسة النظامية بمدينة بغداد سنة ٥٠٤ .

ووُصف أبو نصر ابن الصباغ بأنه كان فقيه العراقين فى زمنه ، وكان يضاهى أبا إسحاق الشيرازى ، وكانت الرحلة إليه من البلاد ، وكان ثقة حجة صالحاً ، تولى التدريس بالنظامية ببغداد أول ما فتحت ، ولما توفى أبو إسحاق أعيد للتدريس بها .

أما حجة الإسلام أبو حامد الغزالى فيصفه ابن خلكان بقوله « لم يكن للطائفة الشافعية فى آخر عصره مثله ، والراجح أن الطرطوشى لم يتصل به ولم يأخذ عنه ، فقد عُيّن الغزالى للتدريس فى نظامية بغداد فى سنة ٤٨٤ هـ بعد خروج الطرطوشى منها ، ولكننا سنعرف فيما بعد أن العالمين الكبيرين سيتقابلان معاً فى الإسكندرية ، وستنشأ بينهما خصومة علمية سيكون لها شأنها .

اندمج أبو بكر الطرطوشى إذن فى هذه الحياة العلمية النشطة ، واستمع إلى هذه النخبة الممتازة من العلماء الأجلاء ، ولا بد أنه شارك فيها ، وأسهم فى حلقاتها ، فإنه يروى فى بعض كتبه التى ألفها بعد خروجه من العراق شعراً كثيراً سمعه أثناء مقامه فى بغداد والبصرة من بعض هؤلاء الشيوخ ، من أمثال أبى العباس الجرجانى ، وأبى محمد التميمى .

٦

وهذا الشعر الذى يرويه أبو بكر الطرطوشى يعطينا صورة أخرى لهؤلاء العلماء الذين أخذ عنهم ، فهم كانوا فى جملتهم — مع تضلعهم فى الفقه والعلوم الدينية — من المتصوفة الذين يعتقدون أن الحياة الدنيا نعيم زائل ، والذين كانوا يفرغون لحياة كلها زهد وتقشف وعبادة وذكرٌ لله . وسنرى فيما بعد أن هذا النوع من الحياة الذى شاهده الطرطوشى فى بغداد قد أثّر فيه تأثيراً كبيراً ، فبدأ منذ ذلك الحين يأخذ نفسه به ، حتى عدّه من كتبوا عنه واحداً من المتصوفة الزاهدين .

كان هذا الشعر الذى سمعه من شيوخه العراقيين ورواه عنهم فيما بعد فى كتابه سراج الملوك ، يضرب كله المثل بالأمم الغابرة ، وما بنت من قصور ، وما زيّنت من عمائر ، وكيف انتهى كل هذا الزخرف إلى زوال ، ويدعو إلى اتخاذ الموعظة من هذا كله ، فهو يقول :

أنشدنى القاضى أبو العباس الجرجانى رحمه الله بالبصرة :

بالله ربِّك كم قَصْرٍ مررتَ به ... قد كان يعمر باللذاتِ والطربِ
طارت عقاب المنايا فى جوانبه ، ... فصاح من بعده بالويل والحربِ

وأنشدنى أيضاً :

أيها الرافع البناء رويداً ... لن تذودَ المنون عنك المبانى
إن هذا البناء يبقى ، وتفنى ، ... كل شىء أبقى من الإنسان

وأنشدنى بالبصرة :

إن كنت تسمو إلى الدنيا وزينتها ، ... فانظر إلى مَلِكِ الأملاك قارون
زم الأمور فأعطتْه مقادتَها ... وسخّر الناس بالتشديد واللين
حتّى إذا ظن أن لا شىء غالبه ... ومُكنت قدماه أى تمكين
راحت عليه المنايا روحةً تركتْ ... ذا الملْكَ والعزَّ تحت الماء والطين

وروى أن شيخه أبا محمد التميمى أنشده ببغداد :

لمن أبنى ؟ لمن أسيمُ المطايا ؟ لمن أستأنف الشيء الجديدا ؟
إذا ما صار إخوانى رُفاتـًا وصرتُ لفقدهم فرداً وحيداً
أعاينُ معشراً لهم شكولٌ ، وأشكالى قد اعتنقوا اللحودا

وقد روى الطرطوشى فى كتابه سراج الملوك حديثاً آخر جرى بينه وبين أحد العراقيين يدل دلالة واضحة على أن هذه الموضوعات بالذات كانت مجال المناقشة دائماً بينه وبين أنداده من علماء العراق : موضوعات الحياة الدنيا وقيمتها وزوالها ، والإنسان وجهوده ومصيره ، والعبرة المأخوذة من هذا كله .

يروى الطرطوشى طرفاً من إحدى هذه المناقشات فيقول :

« وها أنا أحكى لك أمراً أصابنى طيّش عقلى وبلبل حرمى وقطّع نياط قلبى ، فلا يزال يراه حتى يوارينى التراب ، وذلك أنى كنت يوماً بالعراق وأنا أشرب ماء ، فقال صاحبٌ لى — وكان له عقل — : يا فلان : لعلّ هذا الكوز الذى تشرب فيه الماء قد كان إنساناً يوماً من الدهر فمات ، فصار تراباً ، فاتفق للفخارى أن أخذ تراب القبر وضربه خزفاً وشواه بالنار فانتظم كوزاً كما ترى ، وصار آنية يمتهن ويستخدم بعد أن كان بشراً سويًّا يأكل ويشرب ، وينعم ويلذ ويطرب » .

هذه النظرة الفلسفية العميقة إلى الإنسان ومصيره :

كيف خلق ومم خلق ؟
وكيف ينتهى وإلى أين يصير ؟
وكيف تنتهى الحياة إلى الموت ؟
ثم كيف تتجدد الحياة من الفناء ؟

هذه النظرة الفلسفية هزّت كيان الطرطوشى هزًّا ، أو على حد قوله هو : « طيّشت عقلى وقطعت نياط قلبى » .

وأدرك ما وراء هذه اللفتة من حقيقة ، فاستطرد فى حديثه يؤكدها ويحللها تحليلا يؤكد إيمانه بها ، قال :

« فإذا الذى قاله من الجائزات ، فإن الإنسان إذا مات عاد تراباً كما كان فى النشأة الأولى ، ثم قد يتفق أن يحفر لحده ويعجن بالماء ترابه ، فيتخذ منه آنية ، فتمتهن فى البيوت ، أو لبنة فتبنى فى الجدار ، وقد يجوز أن يُغرس عند قبره شجرة ، فيستحيل تراب الإنسان شجرة وورقاً وثمرة ، فترعى البهائم أوراقها ، ويأكل الإنسان ثمرها ، فينبت منها لحمه ، وينشر منها عظمه ، أو تأكل تلك الثمرة الحشرات والبهائم ، فبينما كان يقتات صار قوتاً ، وبينما كان يأكل صار مأكولا ، ثم يعود فى بطن الإنسان رجيعاً فيقذف فى بيت الرحاضة ، أو بعراً ينبذ بالعراء ، ويجوز إذا حفر قبره أن تسفى الرياح ترابه ، فتتفرق أجزاؤه فى بطون الأودية والتلول والوهاد » .

هذا الحديث الذى ألقى إلى الطرطوشى أثناء مقامه فى بغداد ، وهذا التعليق الذى راح يحلل به الحديث فى كتابه « سراج الملوك » يذكرنا بشاعر فارسى مجيد يدور كثير من شعره حول هذا المعنى بالذات : تجدد الحياة ، وخروج الميت من الحى ، وانبثاق الحى من الميت ، يذكرنا بالشاعر عمر الخيام فهو الذى يقول فى رباعياته :

قد كان هذا الدنُّ صَبًّا أسير مثلى ، سبته مسدلاتُ الشعور
وما يَدُ الإبريقِ إلا يَدٌ قد طوّقتْ جيدَ حبيبٍ عزيز

وهو الذى يقول — ويكاد يحيل قول البغدادى للطرطوشى شعراً :

رأيتُ خزّافاً رحاه تدور ، يجدُّ فى صَوْغِ دِنان الخمور
كأنه يخلط فى طينها جمجمةَ (الشاه) بساقِ الفقير

ومن العجيب أن الخيام كان معاصراً للطرطوشى ، تُرى هل سمع شعره هذا أو نُقل إليه أثناء مقامه فى بغداد ، فتأثر به وبان هذا الأثر فيما كتبه فيما بعد فى كتابه « سراج الملوك » ؟ هذا سؤال افتراضى أوحى به التشابه الغريب بين كلام الطرطوشى وشعر الخيَّام ، ولا نستطيع الإجابة عنه الآن فإن المعروف عن حياة الخيام لا زال قليلا غير واضح المعالم .

انطلق إذن أبو بكر الطرطوشي يفكر فى هذه اللافتة الفلسفية فيطيل التفكير ، ويحلل فيطيل التحليل ، وراح يعرض كل الاحتمالات الممكنة التى قد ينتهى إليها الإنسان بعد موته ، وراح يكوّن لنفسه فلسفة خاصة ، بدأ يعتنقها منذ ذلك الحين ، ويصوغ حياته صياغة خاصة تتفق وهذه الفلسفة ، وهى فلسفة الزهد ، والعزوف عن اللذات والشهوات ، والجرأة على كل كبير فى سبيل الحق ، وفى سبيل تدعيم أوامر الله سبحانه وتعالى ، فهو ينظر إلى كل كبير بهذه العين المحللة التى لا ترى فيه قوته وسلطانه وجبروته ، ولكنها ترى فيه قيمته ومصيره ، وأنه لن يكون بعد الموت إلا كوزاً يشرب فيه الماء ، أو ما يشبه ذلك .

تبدو فلسفته هذه واضحة فى الفقرة التى ختم بها حديثه السالف حيث يقول :

« أليس فى هذا ما أذهل العقول وطيّش الحلوم ومنع اللذات ، وهان عنده مفارقة الأهل والمال واللحوق بقلل الجبال ، والأنس بالوحوش حتى يأتى أمر الله ؟

أليس فى هذا ما صغّر الدنيا وما فيها ؟

أليس فى هذا ما حقّر الملك عند من عظمه والمال عند من جمعه ؟

أليس فى هذا ما زهّد فى اللذات وسلّى عن الشهوات ؟ »

سيلتزم الطرطوشي إذن منذ يغادر العراق وفيما يقبل من أيامه حياة الزهد والبعد عن مباهج الدنيا ، سيلتزم الزهد لا عبادةً وإنما تفلسفاً .

٧

وقد زار الطرطوشي أثناء مقامه فى العراق مدينة البصرة ، وتتلمذ فيها على أبى على محمد بن أحمد التسترى ، ثم يمّم وجهه شطر قطر آخر وهو الشام .

ولسنا نعلم على وجه التحديد كم سنة بقى الطرطوشى فى العراق ، ولكننا نستطيع أن نستنتج أنه لم يقم به طويلا ، فنحن نعرف أن عدداً كبيراً من شيوخه فى العراق توفوا فى المدة بين سنتى ٤٧٨ و ٤٧٩ هـ ، فأبو سعد المتولى وأبو عبد الله الدامغانى توفيا سنة ٤٧٨ ، وأبو على التُّسْتُرى توفى سنة ٤٧٩ ، والطرطوشى بدأ

رحلته من المغرب سنة ٤٧٦ ، فلا بد إذن أنه وصل إلى العراق فى أواخر سنة ٤٧٧ ، أو أوائل سنة ٤٧٨ ، وأنه غادرها سنة ٤٧٩ أو سنة ٤٨٠ وقد بلغ الثلاثين من عمره .

دخل أبو بكر الطرطوشى الشام بعد أن أتم دراسته ، وبعد أن حصّل من العلوم ما حصّل ، وبعد أن بلغ من النضج الفكرى درجة تؤهله للتدريس لينفع الناس بعلمه ، وبعد أن كوّن لنفسه فلسفة خاصة قوامها الزهد والسعى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فالسمة الظاهرة التى تميز أبا بكر الطرطوشى منذ دخل الشام إلى آخر حياته أنه عالم زاهد ، بل لعله أقرب إلى الحقيقة أن نقول زاهد عالم ، فإن ابن فرحون يروى فى كتابه « الديباج المذهب » أن بعض الجِلّة من الصالحين كان يقول :

« الذى عند أبى بكر الطرطوشى من العلم هو الذى عند الناس ، والذى عنده مما ليس مثله عند غيره دينه » .

وقال الحميرى فى كتابه « صفة جزيرة الأندلس » :

« زهده أكثر من علمه » .

والذى تجمع عليه المراجع التى ترجمت له أنه قضى الفترة التى عاشها فى الشام يعلّم الناس ، فأقبلوا عليه ، وأحبوه ، وأفادوا منه ، فعلا اسمه ، وبعد صيته ، وأنه عاش هناك متقشفاً عابداً زاهداً منقبضاً عن الناس ، إذا أكل أكل فى شقف من الفخار ، وكان أصحاب الحكم والسلطان يسعون إليه وإلى بره ، ولكنه كان ينصرف عنهم ، ويشتد عليهم فى القول وإسداء النصيحة .

قال ابن فرحون :

« وسكن الشام مدة ودرّس بها ، ولازم الانقباض والجماعة وبَعُدَ صيته هناك ، وأخذ عنه الناس هناك علماً كثيراً ، وكان إماماً عالماً عاملا زاهداً ، ورعاً ديّناً متواضعاً ، متقشفاً متقللا من الدنيا راضياً باليسير منها ، وتقدّم فى الفقه مذهباً وخلافاً . . . وكان له — رحمه الله تعالى — نفس أبيّة ، قيل إنه كان ببيت المقدس يطبخ فى شقف ، وكان مجانباً للسلطان معرضاً عنه وعن أصحابه شديداً عليهم مع مبالغتهم فى بره » .

ووصفه القاضى أبو بكر محمد بن عبد الله المعافرى بالفضل والعلم والزهد

فى الدنيا وروى عنه أنه كان يقول :

« إذا عرض لك أمران ، أمر دنيا وأخرى فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى » .

ويبدو أن نفسه الأبية وصراحته والتزامه القول الحق أثارت ضده بعض الشانئين والحاسدين من أهالى بيت المقدس ، فسعوا به لدى حاكمها ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منه ، واستدعاه الحاكم إليه ، فلم يأبه لدعوته ورفض أن يذهب ، قال ياقوت فى ترجمته له :

«كانت له نفس أبيّة ، وكان ببيت المقدس يطبخ فى شقف ، وكان مجانباً للسلطان ، استدعاه فلم يجبه ، وراموا الغضّ من حاله فلم ينقصوه قلامة ظفر » .

والطرطوشى الذى كان يجانب السلطان وينأى عنه كان يقوم الليل متعبداً أثناء مقامه فى بيت المقدس ، يشجيه الصوت يسمعه فى هدوء الليل يناجى الله ويلوم النفس والقلب إن أغفيا أو توانيا عن ذكر الله ، ويروى الطرطوشى عن نفسه أنه كان نائماً فى بيت المقدس فسمع صوتاً حزيناً ينشد :

أخوفٌ ونومٌ ؟ إن ذا لعجيبُ ؟ ثكلتُك من قلبٍ ، فأنت كذوبُ
أما وجلالِ الله ، لو انكَ كنتَ صادقًا لما كان للإغماض منك نصيبُ

يقول رحمه الله :

« فأيقظ الصوتُ النُّوام وأبكى العيون » .

ولسنا نعرف أىّ المدن الشامية زار الطرطوشى — غير بيت المقدس — ولكن من المرجح أنه زار دمشق وأقام بها ، وأنه طوّف فى معظم مدن الشام الأخرى ، وأنه ذهب فى تطوافه إلى أقصى الشمال ، فزار حلب ثم انحدر منها إلى أنطاكية ، فهو يروى فى « سراج الملوك » حادثة حدثت له يفهم منها أنه زار أنطاكية ، فيقول :

«كان معى نفقة وافرة فى هميان على وسطى ، وكنت أسمع المسافرين يقولون : من نام بالليل فى الفيافى وله نفقة على وسطه فليحلها ، فإن اللصوص

إذا كابدت الخلق يبتدرون أوساطهم ، فخرجت من بلاد السويدية إلى أنطاكية — وهى إذ ذاك حرب للروم — فسرينا ليلتنا ، وأصبحنا فى باب أنطاكية ، فأخذتنى عينى وحللت الهميان ونمت ، ولم أستيقظ إلا ضحوة النهار ، فاستيقظت ومددت يدى إلى الهميان فلم أجده ، فجعلت أنظر إلى القافلة ، والتفت إلىّ الناس ، وقد أسقط فى يدى ولم يبقَ لى حيلة ، فاسترجعت ورفعت أمرى إلى الله سبحانه وتعالى ، وإذا رجل من أهل القافلة ملتفتًا إلىّ ، فوقع وجهى فى وجهه ، فإذا هو يضحك لما رأى ما بى ، فقال : مالك أيها الفقيه ؟ قلت : خير ، فراجعنى فقلت : خير ، فقام إلىّ وقال : خذ هميانك عافاك الله ، فسألته كيف ظفر به ؟ فقال : رأسك قد تدحرج ذراعين أو ثلاثة ، والتفتُّ فرأيت سواداً فى الموضع الذى كنتَ فيه نائماً ، فسرتُ إليه وأخذته فإذا هو الهميان . رحمة الله ورضوانه عليه » .

وقد نستنتج من هذا النص شيئاً آخر هامًّا وهو أن الطرطوشى كان فى أنطاكية حوالى سنة ٤٩٠ ﻫ فهو يقول عند ذكره لها :

« وهى إذ ذاك حرب للروم » .

ولعله يقصد الصليبيين ، فإن الحملة الصليبية الأولى وفدت إلى الشرق فى سنة ٤٩٠ ﻫ ، ثم لم تلبث أن استولت على سواحل الشام كلها بما فيها أنطاكية ، وأغلب الظن أن هذا الحديث الخطير هو الذى دفع الطرطوشى دفعاً إلى ترك الشام وأنه غادرها منذ ذلك الحين ، واتجه إلى مصر ونزل بالإسكندرية حيث اتخذها مقرًّا له .

ومما يقوى استنتاجنا أن المراجع تذكر أن الطرطوشى وصل إلى مصر والوزير بها هو الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى ، والأفضل ولى الوزارة بعد وفاة أبيه فى سنة ٤٨٧ ﻫ . فإذا صح استنتاجنا يكون الطرطوشى قد وصل إلى الشام حوالى سنة ٤٨٠ ﻫ وهو فى الثلاثين من عمره وغادرها حوالى سنة ٤٩٠ ﻫ وهو فى الأربعين من عمره بعد أن قضى فيها عشر سنوات يطوف فى مدنها الكبرى ، ويستزيد من

التحصيل ويشتغل معظم وقته بالتدريس حتى أصبح له تلاميذ كثيرون يعجبون به وبعلمه ، ويتسابقون إلى حلقات دروسه . فقد قال ياقوت فى ترجمته له :

« وسكن الشام مدة ودرّس بها وبعد صيتُه ، وأخذ عنه الناس هناك علماً كثيراً » .

٨

وكانت مصر — وكانت الإسكندرية بوجه خاص — عند وصول الطرطوشى إليها وشيكة الخروج من أزمة خطيرة ، فقد كانت السلطة الفعلية كلها فى الدولة فى يد الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى ، فلما مات الخليفة المستنصر الفاطمى سنة ٤٨٧ هـ أسرع الأفضل وبايع ابنه الأصغر أحمد ، ولقبه المستعلى بالله ، وأبعد الابن الأكبر نزار ، وفرّ نزار إلى الإسكندرية واتفق مع حاكمها ابن مصال الذى أحضر له أهل الثغر وأعيانه فبايعوه بالخلافة ، وخرج الوزير الأفضل بجيش كبير وحاصر الإسكندرية مدة ، وهزم فى أول الأمر ، ثم انتصر بعد ذلك وقبض على نزار وقتله ، وأصاب الإسكندرية من هذا النزاع ومن هذا الحصار والقتال كثير من التخريب ، وانتقم الأفضل من أهليها انتقاماً شديداً لتأييدهم لنزار ومبايعتهم له ، ويبدو أن انتقامه كان شديداً حتى إنه قتل عدداً من علمائها ، فتعطلت الشعائر الدينية ، ولم تقم الجمعة فى مساجدها .

فإن ابن فرحون يقول فى ترجمته للطرطوشى إن أبا الطاهر بن عوف قال :

« وكان نزوله بالإسكندرية بأثر قتل الأمير بها علماءها ، فوجد البلد عاطلا عن العلم ، فأقام بها وبثّ علماً جمًّا » .

كانت الإسكندرية تعيش عند نزول الطرطوشى بها فى حالة من الرعب والفزع شديدة ، والشعائر الدينية معطلة ، وعلماؤها مضطهدون لا يستطيعون الجهر بالعلم أو بالقول لأن الغالبية العظمى منهم يتبعون المذهب المالكى ، والمذهب الشيعى هو المذهب الرسمى للدولة ، ولكن الطرطوشى الرجل الجرىء الذى لم يهب

السلطان فى بيت المقدس لم يهب السلطان فى مصر أو الإسكندرية فبدأ يدرس وينشر العلم على مذهبه مذهب مالك وكان يقول .

« إن سألنى الله تعالى عن المقام بالإسكندرية لما كنت عليه فى أيام الشيعة العبيدية من ترك إقامة الجمعة ومن غير ذلك من المناكر التى كانت فى أيامهم أقول له : وجدت قوماً ضلالا فكنت سبب هدايتهم » .

ولم يلبث الطرطوشى فى الإسكندرية إلا قليلا حتى عرف واشتهر وجذب الطلاب والعلماء إلى حلقات دروسه ، وتزوج بعد وصوله بقليل من سيدة موسرة من نساء الإسكندرية ، فأطلقت يده فى أموالها وتحسنت أحواله ، ووهبته داراً من أملاكها جعل سكنه معها فى الدور الأعلى ، واتخذ من الدور الأسفل مدرسة يلقى فيها دروسه .

وبعد أن استقرت الحياة بالطرطوشى فى الإسكندرية خرج لزيارة العاصمة القاهرة ، وهناك ذهب لزيارة الوزير الكبير صاحب السلطان الأعلى الملك الأفضل شاهنشاه ، ذهب لزيارته بعد أن سمع عن جبروته وقوته وسلطانه ، لا ليسأله منحة أو عطية ، ولا ليقدم له المديح ويشيد بذكره ، بل لينصحه نصيحة العلماء المخلصين ، وليعظه الموعظة الحسنة ، وليطلب إليه الرفق بالرعية وإشاعة العدل بينهم ، وفتح أبواب قصره لكل شاك أو متظلم ، ولم يكن هذا غريباً من الطرطوشى الرجل العالم الزاهد الجرىء الذى لا يخشى فى الحق لومة لائم ، والذى لا يخاف صاحب السلطان ولا يهابه ، فهو الذى وصفه ابن فرحون بأنه كان أبى النفس ، والذى وصفه المقرى بأنه كان قوالا للحق .

وقد أثبت الطرطوشى موعظته هذه للأفضل فى كتابه « سراج الملوك » ، قال :

« فلما دخلتُ على ملك مصر وهو الأفضل بن أمير الجيوش ، فقلت : سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد السلام على نحو ما سلمت رداً جميلا ، وأكرم إكراماً جزيلا وأمرنى بدخول مجلسه ، وأمرنى بالجلوس فيه ، فقلت :

أيها الملك : إن الله سبحانه وتعالى قد أحلك محلا عالياً شامخاً ، وأنزلك منزلا شريفاً باذخاً ، وملّكك طائفة من ملكه ، وأشركك فى حكمه ، ولم يرض

أن يكون أمر أحد فوق أمرك ، فلا ترض أن يكون أحدٌ أولى بالشكر منك .

وإن الله تعالى ألزم الورى طاعتك فلا يكونن أحدٌ أطوع لله منك .

وإن الله تعالى أمر عباده بالشكر ، وليس الشكر باللسان ولكنه بالفعال والإحسان ، قال الله تعالى : « اعملوا آل داود شكراً » .

واعلم أن هذا الملك الذى أصبحت فيه إنما صار إليك بموت من كان قبلك وهو خارج عن يدك مثل ما صار إليك ، فاتّق الله فيما خوّلك من هذه الأمة ، فإن الله سائلك عن النقير والقطمير والفتيل ، قال الله تعالى : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » ، وقال تعالى : « وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » .

واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد آتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليهما السلام ، فسخّر له الإنس والجن والشياطين والوحوش والبهائم ، وسخّر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع فقال له : « هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » ، فوالله ما عدّها نعمة كما عددتموها ، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها ، بل خاف أن يكون استدراجاً من الله تعالى ومكراً به فقال : « هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر » .

فافتح الباب ، وسهّل الحجاب ، وانصر المظلوم ، أعانك الله على ما قلّدك ، وجعلك كهفاً للملهوف وأماناً للخائف » .

واستطرد الطرطوشى فى حديثه فقال للأفضل :

« قد دوختُ البلاد شرقاً وغرباً ، فما اخترت مملكة تزوجت فيها وولد لى فيها غير هذه المملكة » .

مما يفهم منه أن زيارته هذه للأفضل كانت بعد إقامته فى الإسكندرية بمدة طويلة وبعد أن تزوج بها وأنجب .

وختم حديثه أخيراً بهذا البيت من الشعر :

والناس أكيس من أن يحمدوا رجلا   حتى يروا عنده آثار إحسان

هكذا خاطب الطرطوشى العالم الزاهدُ الملك الأفضل ذا الحول والطول وهو فى أوج سلطانه وعظمته ، والكل يأتمرون بأمره ، حتى خليفته الآمر نفسه ، ولم يرو لنا الطرطوشى كيف تقبّل الأفضل هذا الحديث ، وأغلب الظن أنه هز كيانه هزًّا ، وأنه استنكره فيما بينه وبين نفسه ، وإن كان قد تظاهر بقبوله قبولا حسناً ، فإن الرجل المستبد يأنف عادة من النقد وتستهويه آيات المديح .

٩

وعاد الطرطوشى إلى الإسكندرية ليستأنف سيرته الأولى ، وليفرغ للعلم والتعليم وتكاثر طلابه وأقبلوا على دروسه وأحبوه ، واصطنع هو لهم طريقة هى أقرب شىء إلى طرق التربية الحديثة ، فلم يقصر اجتماعاته بهم على حلقات الدرس ثم ينفضون من حوله ، بل كان يصطحبهم ويخرج معهم فى معظم الأوقات فى رحلات خارج المدينة إلى البساتين والأماكن الخلوية ، وهناك فى الهواء الطلق يلقى دروسه أو يذاكرهم فيما حفظوه ودرسوه ، وشاقت هذه الطريقة تلاميذه ، فأقبلوا عليه ، وكثر عددهم حتى كان إذا خرج فى رحلة من هذه الرحلات خرج فى كوكبة لا تقل عن أربعمائة طالب .

وصف لنا هذه الطريقة خادم الطرطوشى الخاص وأحد تلاميذه أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن التجيبى الإسكندرانى قال :

« كان — أى شيخه الطرطوشى — صاحب نزهة مع طلبته فى أكثر الأوقات ، يخرج معهم إلى البستان فيقيمون الأيام المتوالية فى فرحة ومذاكرة ومداعبة مما لا يقدح فى حق الطلبة بل يدل على فضلهم وسلامة صدرهم ، وخرجنا معه فى بعض النزهة فكنا ثلاثمائة وستين رجلا لكثرة الآخذين عنه المحبين فى صحبته وخدمته » .

ولكن هذا الإقبال جر على الطرطوشى الوبال ، فقد ضاق به قاضى الإسكندرية ابن حديد ضيقاً شديداً ، ولابن حديد مع الطرطوشى قصة طويلة :

كانت أسرة بنى حديد كبرى الأسرات السكندرية فى ذلك الوقت مكانة

وعلماً وثروة وجاهاً وسلطاناً ، وقد ولى منصب القضاء فى المدينة أكثر من واحد من أفرادها ، وكان القاضى وقت وجود الطرطوشى بالإسكندرية هو مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد .

ولكى نعرف أى الرجال كان ابن حديد هذا يكفى أن نعلم أن منصب القاضى كان يلى فى الترتيب والمكانة منصب حاكم المدينة ، وكان يعزز هذه المكانة أن قاضى المدينة كانت له — إلى جانب اختصاصاته القضائية الدينية الواسعة — اختصاصات مالية وإدارية وضرائبية كثيرة ، فكان يشرف على الأحباس — أى الأوقاف — ، وعلى الجوالى — أى ضريبة الجزية التى تجمع من أهل الذمة من يهود ونصارى — ، وعلى دار الضرب ، وعلى المكوس — أى الضرائب المدنية غير الشرعية — ، وكان يعزز هذه المكانة أيضاً أن ابن حديد نفسه كان ذا ثروة طائلة ، وأنه كان يحيا حياة العلية من القوم ، فيفتح قصره لكل قاصد ، ويكرم الناس ، ويغدق العطايا ، مما دفع الكثيرين من شعراء العصر إلى مدحه والإشادة بذكره ، وقد صدق المقريزى فى وصفه حين قال :

« وله مروءة عظيمة ويحتذى أفعال البرامكة ، وللشعراء فيه مدائح كثيرة » .

وقد روى المقريزى فى كتابه الخطط أكثر من قصة لبيان هذه المروءة والهمة العالية ، ولوصف حياة البذخ والترف التى كان يحياها القاضى ابن حديد ، وأطرفها أن قصر ابن حديد فى الإسكندرية كان له بستان جميل ، وفى البستان نافورة كبيرة تتكون من قطعة واحدة من الرخام البديع ينحدر فيها الماء فتكون كالبركان فى اتساعها ؛ وكان صاحبها يباهى بها أهل العصر ، إلى أن علمت بها البدوية حبيبة الخليفة الآمر الفاطمى ، فطلبتها منه ، وأجابها ابن حديد مضطراً إلى طلبها ، وحملت النافورة إلى القاهرة ، وركبت فى بستان الهودج ، وهو القصر الجميل الذى بناه الآمر لمحبوبته فى جزيرة الروضة ، وتألم ابن حديد لفقده هذه النافورة ألماً بالغاً ، وما زال يتقرب للبدوية بالهدايا إلى أن أمرت برد النافورة إليه .

كان رجل كابن حديد ينتظر من الطرطوشى عند نزوله بالمدينة أن يسعى إليه ، وأن يمدحه ، وأن يكون من حاشيته ، ولو أنه فعل هذا لأغدق عليه ابن حديد العطايا وليسر عليه شئون الحياة جميعاً ، ولكن الطرطوشى كان من صنف

آخر من الرجال ، كان رجلا يعتد برجولته ، وكان عالماً يعتز بعلمه ، وكان بعد هذا زاهداً لايحبذ ذلك النوع من الحياة المترفة الباذخة التى كان يحياها ابن حديد، ولعله أخذ على ابن حديد أيضاً بعض تصرفاته المالية ، وبعدها عن قواعد الشرع والإسلام ، وأغلب الظن أنه أطلق لسانه يتحدث إلى الناس بهذه المآخذ المالية ويعيد الحديث ويكرره فى عنف وقسوة مما آلم ابن حديد وآذاه .

وكانت للطرطوشى إلى جانب هذا فتاوى كثيرة يعارض بها بعض النظم والقواعد القائمة التى تأخذ بها الدولة ، فهو مثلا قد أفتى فى الإسكندرية بتحريم الجبن الذى يأتى به الروم إلى المدينة ، وألّف فى تحريمه رسالة صغيرة ، وهو ينتقد كثيراً من العادات السائدة فى المجتمع والتى تنافى الدين الإسلامى وأصوله ، ويؤلف فى نقدها كتاباً اسماه « بدع الأمور ومحدثاتها » .

ثم هو بعد هذا قد جذب إليه عدداً ضخماً من تلاميذ المدينة وعلمائها ، فصار إذا انتقل من مكان إلى مكان أو إذا خرج إلى رحلاته خرج فى موكب حافل مهيب ، يثير الانتباه ويلفت الأنظار ، وفى هذا دون شك منافسة خطيرة لقاضى المدينة ورجلها ابن حديد ، وفيه خطورة محققة على مركزه ومكانته ، لقد انفضّ السامر من حوله وأصبح الحديث بين الناس فى الإسكندرية عن الطرطوشى وعلم الطرطوشى ورحلات الطرطوشى وفتاوى الطرطوشى ، بل لهج الناس بنقد الطرطوشى لتصرفات ابن حديد كقاضٍ ، وتناقلوا هذا النقد فيما بينهم مما أساء إلى سمعة القاضى .

لهذا جمع ابن حديد هذه المآخذ كلها ورفعها إلى الوزير الأفضل شاهنشاه وبين له خطورة هذا الرجل على الإسكندرية وأهلها . يؤكد هذه الحقيقة ابن فرحون فى ترجمته للطرطوشى ، قال تعقيباً على حديثه عن رحلات الطرطوشى العلمية مع طلابه :

« وهذا من جملة ما رفعه عنه القاضى ابن حديد إلى العبيدى — يقصد الخليفة الفاطمى — ووشى به إليه فى أمور غيرها ، وكان الطرطوشى يذكر بنى حديد ذكراً قبيحاً ، لما كانوا عليه من أخذ المكوسات والمعونة على المظالم ، وكان يفتى بتحريم الجبن الذى يأتى به النصارى ويفتى بقطع

محرمات كثيرة ، فخاطب بذلك بنو حديد وذكروه للسلطان » .

والسلطان المقصود هنا هو الوزير الأفضل شاهنشاه ، والأفضل لم ينس بعد كيف ثارت الإسكندرية مع نزار منذ قليل ووقفت تقاومه مدة ، وهو لا يريد أن يثور شيء من الشعب فى هذه المدينة ، ولو أن هذا العالم الزاهد الثائر ظل على سياسته هذه ينتقد المجتمع وينتقد الحاكم ، وينتقد القاضى وأحكامه ، وينتقد القواعد والنظم المالية المتبعة ، ويحرم الجبن الرومى وغيره من المأكولات التى تأتى من أوربا ، فإنه سيسبب للدولة متاعب كثيرة ، وسينقص من مهابتها فى أعين الشعب ، وسيحرض هذا الشعب على مقاطعة التجارة الأجنبية ، فتنقص إيرادات الدولة بنقصان الضرائب التى تؤخذ على هذه التجارة الواردة ، والأفضل يدرك خطورة هذا التقرير الذى رفعه القاضى ابن حديد إليه بشأن الطرطوشى ، فالطرطوشى ليس غريباً عليه ، فهو يعرفه معرفة أكيدة منذ مقابلته الأولى له ، وهو يذكر جيداً موعظته الجريئة ، وما تضمنته من كلِمٍ قاسٍ لاذعٍ ومن جرأة نادرة فى قول الحق ، لهذا أراد أن يحسم الشر قبل وقوعه ، فأرسل إلى والى المدينة يأمره بإرسال الطرطوشى إليه .

وجاء الرسول إلى الطرطوشى وأراد أن يعطيه فرصة يستعد فيها للسفر فقال له :

« يسِّر حوائجك فإنك تمشى يوم كذا » .

فقال الطرطوشى :

« وأى حوائج معى ؟ ريشى رياشى ، وطعامى فى حوصلتى » .

وفى القاهرة قابل الأفضلُ الطرطوشى مقابلة طيبة ، ولكنه أمره بالبقاء فى الفسطاط وحدّد إقامته فى مسجد الرَّصَد جنوبى الفسطاط ، ومنع الناس من الاتصال به والأخذ عنه ، وعين له راتباً شهرياً بضعة دنانير يأخذها من متحصل جزية اليهود ، وسمح لخادمه بالإقامة معه .

ويبدو أن الطرطوشى قضى فى اعتقاله مدة طويلة تبلغ شهوراً ، فضجر من التضييق على حريته ، واشتد كرهه للأفضل ؟ تقول المراجع :

« وكان الشيخ يكره الأفضل ، فلما طال مقامه به — أى بالمعتقل — ضجر وقال لخادمه : إلى متى نصبر ؟ اجمع لى المباح من الأرض ،

فجمع له ، فأكله ثلاثة أيام ، فلما كان عند صلاة المغرب قال لخادمه : "رميته الساعة" فلما كان من الغد ركب الأفضل فقُتل » .

ومعنى هذا أن الطرطوشى لما اشتد به الضيق أعلن امتناعه عن أكل شىء مما يأتيه به الأفضل ، وأمر خادمه أن يجمع له شيئاً حلالا من المباح من نبات الأرض ، وأكل هذا المباح ثلاثة أيام ، وقد اعتكف يصلى ويتعبد ويبتهل إلى الله ، فلما كان اليوم الثالث قتل الأفضل ، ومن الثابت أن الأفضل قتل فى اليوم السابق لعيد الفطر من سنة ٥١٥ ﻫ .

وهذا بالتالى يحدد لنا المدة التى اعتقل فيها الطرطوشى ، فهو قد اعتقل فى أواخر سنة ٥١٤ ﻫ أو أوائل سنة ٥١٥ ﻫ وظل فى الاعتقال إلى شوال سنة ٥١٥ﻫ .

وانكشفت الغمة عن الطرطوشى ، فقد ولى الوزارة بعد الأفضل المأمونُ البطائحى ، وكان يعلم ما بين الرجلين ، فأفرج عن الشيخ وأكرمه إكراماً زائداً وقرّبه إليه .

١٠

وعاد الطرطوشى إلى الإسكندرية واستأنف بها حياته ونشاطه العلمى ، ولكن هذه المحنة لم تنل منه ولم تفل من حدته ، فقد كانت تشغله دائماً الأمور التى كان يراها منافية للشرع والعدل ، والتى سبق أن تقدم للأفضل يطلب تغييرها فلم يستمع إليه ، بل أبعده عن داره وحدّد إقامته ، وقد خشى الطرطوشى أن تأخذ الوزيرَ الجديدَ عزةُ الحكم وأبهة السلطان فيسير على نهج سلفه .

لهذا بدأ بعد عودته إلى الإسكندرية مباشرة يؤلف كتاباً فى فن السياسة والحكم وما يجب أن يكون عليه الراعى والرعية ، وأتم هذا الكتاب فى سنة كاملة ، وسماه « سراج الملوك » ، وفى شوال سنة ٥١٦ حمل الكتاب وسافر إلى القاهرة ليقدمه إلى الوزير الجديد المأمون البطائحى ، وليعيد الحديث معه فى الأوضاع السقيمة القائمة فى الدولة والتى لا يقرها الشرع .

ولم يكد المأمون يسمع بوصوله ــ وكان بين يديه الكتاب وكبار الموظفين

يعرضون شئون الحكم — حتى أمر فى الحال برفع الدفاتر ، وفضّ المجلس ، وأمر بمد السماط ، واستدعى الفقيه لمقابلته ، فلما دخل عليه ، وقف الوزير ، ونزل من مرتبته وجلس بين يدى الطرطوشى ، وفى هذا الدليل أكبر الدليل على عظم مكانة الطرطوشى وما كان يحسه الوزير نحوه من تبجيل واحترام ، فلم تكن من عادة الوزير فى العصر الفاطمى أن يقوم لتحية القادم عليه مهما كانت مكانته ، ولكن المأمون لم يقنع بالوقوف لتحية الطرطوشى فقط ، بل ترك مرتبته ونزل فجلس بين يديه كما يجلس التلميذ بين يدى الأستاذ ، وبعد المقابلة أمر بإنزاله فى مكان خاص أعد له ، وأمر أن يرتب له خمسة دنانير فى اليوم ، ولكن الطرطوشى رفضها ، وطلب أن يصرف له ديناران فقط ، وهو المبلغ الذى كان يصرف له أيام الأفضل .

ثم كان المأمون يستدعيه لمجلسه الخاص الذى يعقده يومى راحته من كل أسبوع فيستمع إلى شكاواه ويجيب شفاعاته . وصف هذه المقابلة وهذا الإكرام المقريزى فأحسن الوصف ، قال :

« فى شوال سنة ٥١٦ وصل الفقيه أبو بكر محمد بن محمد الفهرى الطرطوشى من الإسكندرية بالكتاب الذى سماه سراج الملوك ، فأكرمه وأمر بإنزاله فى المجلس المهيأ للإخوة ، وتقدم برفع أدوية الكتاب وأوطية الحساب وسلام الأمراء ، وعمل السماط ، وسارع إلى البادهنج ، واستدعى بالفقيه ، فلما شاهده وقف ونزل عن المرتبة وجلس بين يديه ، ثم انصرف ومعه أخو المأمون إلى مكان أعِدّ له ، وحمل إليه ما يحتاج إليه ، وأمر مشارف الجوالى أن يحمل إليه فى كل يوم خمسة دنانير بمقتضى توقيع مقتضب ، فامتنع الفقيه ، وأبى أن يقبل غير الدينارين اللذين كانا له فى الأيام الأفضلية ، وصار المأمون يستدعيه فى يومى راحته ويبالغ فى كرامته ويقضى شفاعاته » .

وحضر الطرطوشى لمقابلة المأمون ليقدم له كتاب « سراج الملوك » الذى ألفه باسمه وأهداه إليه ، وليعرض عليه تلك الأمور الظالمة المنافية للشرع التى سبق أن تحدث بشأنها فى أيام الأفضل فلم يستمع إليه ، أما الكتاب فله حديث خاص سنعود إليه بعد قليل ، وأما تلك الأمور فكانت تتلخص فى النظم المتبعة فى

الميراث : فقد كان القضاة فى مصر على العصر الفاطمى يتبعون المذهب الشيعى ، والمذهب الشيعى يقضى بأن ترث البنت كل ما يترك أبوها إذا كانت وحيدة لا أخ لها أو أخت ، ويحرم العصبة من المشاركة فى الميراث ، وكانت النظم الوضعية المتبعة تقضى أيضاً بأن يأخذ أمناء الحكم — أى الموظفون القضائيون المشرفون على شئون الميراث — ربع العشر من أموال الأيتام عند توزيع التركة .

وكان الطرطوشى يرى فى الأمر الأول مخالفة للشرع فى نظره ، أى للمذاهب السنية ، فالمذاهب السنية ترى ألا ترث البنت أكثر من نصف التركة ، وكان يرى فى الأمر الثانى ظلماً فاحشاً واغتصاباً لحق الأيتام ، ومن واجب الحكومة أن تحافظ على أموالهم وتصونها لا أن تقتطع جزءاً منها لموظفيها .

وتناقش الطرطوشى طويلا مع المأمون فى هذه الموضوعات ، واعتذر المأمون عن الأمر الأول بأنه مما جرت العادة السابقة به ، وأنه لم يحدث فى أيامه ، وأنه يتفق ومذهب الخليفة ، فليس من اليسير أن يوافق على تغييره ، لأنه يتصل بصميم المذهب الشيعى ، وبعد نقاش طويل وافق على حل وسط يرضى المذهب الرسمى للدولة ويرضى الطرطوشى ، وافق على إصدار أمر للقضاة بأن يتبع فى الميراث مذهب الميت ، فإن كان سنياً اتبع المذهب السنى ، وإن كان شيعياً اتبع المذهب الشيعى . أما الأمر الثانى فقد وافق عليه الوزير منذ اللحظة الأولى لأنه رأى فيه إجحافاً حقيقياً بأموال اليتامى وحقوقهم ، وأمر بأن يصرف للموظفين — أمناء الحكم — راتب من خزانة الدولة بدلا من المبالغ التى كانوا يقتطعونها من أموال اليتامى .

وصدر سجل رسمى موقع عليه من الخليفة الآمر والوزير المأمون بهذه الأوضاع الجديدة ، وأرسل إلى القضاة فى كل أنحاء الدولة للعمل به .

ولما اطمأنت نفس الطرطوشى بهذا الاتفاق أخذ — كما يقول المقريزى — فى ذكر بقية حوائج أصحابه ، فحقَّق له الوزير ما أراد ، وأجاب شفاعاته فيهم .

وبعد نحو شهرين من إقامته فى القاهرة أزمع العودة إلى الإسكندرية ، فذهب إلى الوزير يشكره ويودعه ، وتقدم إليه فى هذه المقابلة بمطلب أخير ، طلب

الموافقة على إنشاء مسجد جديد بالإسكندرية بظاهر الثغر على البحر ، فرحّب الوزير بطلبه ، وكتب فى الحال إلى ابن حديد قاضى الإسكندرية يأمره بالإشراف على بناء المسجد فى المكان الذى يتخيره الطرطوشى ، وأن :

« يبالغ فى إتقانه وسرعة إنجازه ، وتكون النفقة عليه من مال ديوانه دون مال الدولة » .

ويقول المقريزى :

« وتوجّه — أى الطرطوشى — فبنى المسجد المذكور على باب البحر» .

وباب البحر كان قريباً من ميدان المنشية الحديث ، وهذا المسجد للأسف من المساجد التى هدمت وتلاشت معالمها فلا وجود له الآن فى المدينة .

١١

قلنا من قبل إن الطرطوشى قدم إلى الإسكندرية حوالى سنة ٤٩٥ ﻫ وقد بلغ الأربعين من عمره ، وأنه قضى هذه السنوات الأربعين متنقلا مرتحلا فى بلدان المغرب والمشرق يطلب العلم أولا ، وينشر العلم ويشتغل بالتدريس ثانياً ، وخاصة فى المرحلة التى قضاها فى الشام ، فلما وصل إلى الإسكندرية استقر بها ، ولم يكن يغادرها إلا لزيارة القاهرة ، ثم يعود ثانية إلى مدرسته وتلاميذه وحياته العلمية الغنية فى الإسكندرية .

وهذه الحياة القلقة الثائرة غير المستقرة لم تمنع الطرطوشى من التأليف ، فقد ذكرت المراجع المختلفة أن له تآليف كثيرة ، وأغلب الظن أنه وضع معظم هذه المؤلفات أثناء مقامه فى الإسكندرية ، فإن حياة الارتحال والطلب الأولى فى الأندلس والحجاز والعراق والشام لم تتح له الفرصة للتفرغ للتأليف ، كما أن سن الأربعين التى بلغها عند نزوله الإسكندرية هى سن النضوج الفكرى ، وهذه الحياة المستقرة نسبيًّا التى حييَها فى الإسكندرية وخاصة بعد أن تزوج بها وأنجب واطمأن إلى معيشة هادئة فى كنف هذه الزوجة السكندرية الصالحة ، كل هذه الأسباب تؤيد ترجيحنا أن الطرطوشى وضع الغالبية العظمى من مؤلفاته إبان الحقبة

التى عاشها فى الإسكندرية ، ومداها نحو الثلاثين عاماً ، فهو قد نزل بها حوالى سن الأربعين — كما سبق أن ذكرنا — وتوفى بها فى سنة ٥٢٠ هـ وهو فى سن السبعين ، ويؤكد ترجيحنا السابق الملابسات والظروف التى ألفت فيها وبسببها معظم كتب الطرطوشى ، فسنرى عند استعراضنا لها أن الأسباب التى دفعته لتأليفها كانت ظروفاً أو أحداثاً تتصل بالمدة التى قضاها فى مصر بوجه عام وفى الإسكندرية بوجه خاص .

ويبدو واضحاً من قائمة المؤلفات التى ذكرتها المراجع ونسبتها إلى الطرطوشى أن الرجل كان نشطاً منتجاً خصب الإنتاج ، وقد أحصيت له اثنين وعشرين مؤلفاً ، الموجود منها تسعة ، والباقى مفقود ، ومن هذه المؤلفات التسعة طبع اثنان فقط ، والسبعة الأخرى ما زالت مخطوطة ، وبعض هذه المؤلفات تتصل بعلوم التفسير ومسائل الخلاف والفقه — وفقه مالك بوجه خاص — ، والبعض الآخر يتناول بالبحث علم السياسة وفن الحكم والمجتمع وأدوائه وأحواله ، وفيما يلى عرض تحليلى تفصيلى لهذه الكتب :

١ — أولها مختصر لتفسير الثعالبى :

والثعالبى أو الثعلبى هو أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ ، قال عنه ابن خلكان : كان أوحد زمانه فى علم التفسير ، وصنف التفسير الكبير الذى فاق غيره من التفاسير ، وله كتاب العرائس فى قصص الأنبياء .

وهذا التفسير الكبير الذى فاق غيره من التفاسير هو الذى أسماه صاحبه « الكشف والبيان فى تفسير القرآن » ، وهو الذى اختصره الطرطوشى فى كتاب خاص ، وقد قام بتأليفه أثناء مقامه فى الشام ، وكان يدرسه فى المسجد الأقصى ، ذكر ذلك العالم الأندلسى أبو بكر محمد بن خير فى « فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين » .

وتوجد فى دار الكتب المصرية بالقاهرة نسخة مخطوطة من الجزء الثانى من هذا المختصر .

٢ ــ والكتاب الثانى تسميه المراجع « الكتاب الكبير فى مسائل الخلاف » أو « التعليقة فى الخلافات » ، وذكر مرجع من المراجع أن هذا الكتاب كان كبيراً يقع فى خمسة أجزاء .

والخلاف كما نعلم أحد العلوم الأولى التى بدأ الطرطوشى يتلقى أصولها منذ صباه المبكر فى وطنه الأول الأندلس على أستاذه أبى الوليد الباجى ، والتى استزاد منها حتى أتقنها أثناء تحصيله فى بغداد والبصرة وغيرهما من مدن العراق ، وبعد أن تم نضجه الفكرى فى الإسكندرية وأصبح أستاذاً ومرجعاً فى هذا العلم وضع هذا المؤلف الكبير فى مسائل الخلاف فى خمسة أجزاء .

٣ ــ أما الكتاب الثالث فهو « شرح لرسالة الشيخ ابن أبى زيد القيروانى » .

وأبو بكر محمد عبد الله بن أبى زيد عالم من أكبر أعلام الفقه المالكى الأوائل الذين وضعوا أسسه وقواعده ، وقد عاش فى القرن الرابع ، وسكن القيروان مدة ، وكان إمام المالكية فى وقته ، وهو جامع مذهب مالك وشارح أقواله ، حتى لقد عرف باسم مالك الصغير ، وقد توفى سنة ٣٨٩ هـ ، وله تآليف كثيرة أهمها : الرسالة فى الفقه المالكى ، وقد شرح الرسالة كثيرون من علماء المالكية ، والطرطوشى كما نعلم نشأ مالكى المذهب ، وظل طوال حياته مالكى المذهب ، وعاش الفترة الأخيرة من حياته فى مدينة الإسكندرية حيث كان يسود المذهب المالكى ، ومن المرجح إذن أن يكون هذا الشرح بعض دروسه فى المذهب المالكى التى كان يلقيها فى مدرسته بالإسكندرية .

٤ ــ والكتاب الرابع لم تذكره المراجع التى أرخت للطرطوشى ، ولكن الطرطوشى نفسه أشار إليه فى أكثر من موضع من كتابه « سراج الملوك » وسماه هناك « كتاب الأسرار » .

قال مرة أثناء حديثه عن العقل :

« قد ذكرت فى كتاب الأسرار حقيقة العقل وأقسامه ومحله وأحكامه ، بما لا مزيد عليه ، ونذكر هاهنا منافعه ومداركه ولباب ما تحرر من القول فيه . . . إلخ »

وقال مرة عند كلامه عن القضاء والقدر :

« وقد كنت جمعتُ فيه كتاباً من جملة كتابى فى الأسرار : هل التوفيق مكتسب أو موهبة بلا سبب فلا مزيد عليه . . . . إلخ » .

فللطرطوشى إذن كتاب اسمه « كتاب الأسرار » ويبدو من هذه الشواهد أن الكتاب يتناول موضوعات تتصل بالإنسان وبالعقل ، وبالقضاء والقدر ،وما يشبهها من موضوعات .

٥ ــ والكتاب الخامس كتاب « نقد إحياء علوم الدين للغزالى » ولم يذكر هذا الكتاب بهذا العنوان أحد من المؤرخين القدامى الذين ترجموا للطرطوشى ، والذى ذكره بهذا العنوان هو الأستاذ خير الدين الزركلى فى كتابه « الأعلام » .

وهناك مؤرخ قديم واحد أشار إلى رأى الطرطوشى فى الغزالى وفى كتابه إحياء علوم الدين ، وهو الحميرى ، فقد قال فى كتابه « صفة جزيرة الأندلس » عند ترجمته للطرطوشى :

« وعاصر الغزالى ، وله فى إحيائه كلام ، وكان منحرفاً عنه ، سيئ الاعتقاد فيه » .

فهو لم يذكر صراحة أن الطرطوشى كتب كتاباً لنقد الإحياء للغزالى ، ولكنه قال :

« وله فى إحيائه كلام »

ولعل الأستاذ الزركلى استنتج من هذا النص أن الطرطوشى ألف كتاباً فى نقد الإحياء ومعارضته ، وقد بحثت كثيراً عن هذا الكتاب فلم أعثر له على أثر ، وإنما عثرت على ما يفيد أن الطرطوشى كتب رسالة لصديق له يذكر فيها أنه اجتمع بالغزالى وتحدث إليه وناقشه فى موضوعات كثيرة ، ويشير إلى رأيه فى الإحياء وينقده ، وقد ذكرنا من قبل أن الغزالى تولى وظيفة التدريس فى المدرسة النظامية ببغداد ، ولكننا قلنا إن الطرطوشى لم يقابل الغزالى فى بغداد ، لأن الغزالى وصل إلى بغداد ودرس فى النظامية بعد مغادرة الطرطوشى للعراق ، ولكننا نرجح أن العالمين تقابلا فى الإسكندرية بعد ذلك ، فإن المراجع التى ترجمت للغزالى تذكر أنه زار الإسكندرية فى السنوات الأخيرة من حياته ، وأنه كان يزمع السفر إلى بلاد المغرب لزيارة الأمير يوسف بن تاشفين صاحب مراكش ، ولكنه تلقى

أثناء مقامه فى الإسكندرية خبراً بموت يوسف بن تاشفين ، فعدل عن عزمه ، وعاد إلى وطنه طوس . ونحن نعرف أن يوسف بن تاشفين مات سنة ٥٠٠ هـ ، وفى هذه السنة كان الطرطوشى يقيم فى الإسكندرية ، فلا بد إذن أن يكون العالمان قد تقابلا فى الإسكندرية فى هذه السنة .

وللسيد محمد المرتضى الزبيدى — وهو واحد من كبار علماء مصر فى القرن الماضى — شرح كبير لكتاب إحياء علوم الدين يقع فى عشرة أجزاء سماه « اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين » ، وقد عرض فى مقدمته للعلماء السابقين الذين تناولوا إحياء الغزالى بالدراسة أو بالمدح والتقريظ ، أو بالنقد والتجريح ، وذكر من بين الناقدين العالميْن المالكييْن : المازرى والطرطوشى ، وعرض أولا كلام المازرى فى الإحياء ثم ناقشه ورد عليه ، واستطرد فعرض لكلام الطرطوشى وقال :

« هذا ملخص كلام المازرى ، وسبقه إلى قريب منه من المالكية الإمام أبو الوليد الطرطوشى نزيل الإسكندرية ، فذكر فى رسالته إلى أبى مظفر : « فأما ما ذكرت من أمر الغزالى فرأيتُ الرجل وكلمتُه ، فرأيته من أهل العلم ، قد نهضتْ به فضائله ، واجتمع فيه العقل والفهم وممارسة العلوم طول عمره ، وكان على ذلك طول زمانه ، ثم بدا له البعد عن طريق العلماء فدخل فى غمار العمال ثم تصوّف فهجر العلوم وأهلها ، ودخل فى علوم الخواطر وأرباب القلوب ووساوس الشيطان ، ثم شابها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج ، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين ، فلقد كاد ينسلخ من الدين ، فلما عمل الإحياء عمد يتكلم فى علوم الأحوال ومرامز الصوفية ، وكان غير أنيس بها ، أو خبير بمعرفتها ، فسقط على أم رأسه ، وشحن كتابه بالمعلومات » .

هذه هى الفقرة التى نقلها المرتضى الزبيدى لعرض رأى الطرطوشى فى الغزالى وإحيائه ، ومنها نفهم أن الطرطوشى لم يؤلف كتاباً فى نقد الإحياء ، وإنما كتب رسالة إلى صديق له هو أبو مظفر أبدى فيها رأيه فى الغزالى وكتابه ، ومنها يتأكد استنتاجنا السابق أن العالمين تقابلا ودارت بينهما مناقشات ومساجلات علمية .

ولم يستطع الطرطوشى فى أول الرسالة أن يخفى إعجابه بالغزالى فصرح بأن الرجل من أهل العلم ، وقد اجتمع فيه العقل والفهم وممارسة العلوم طول عمره ، ولكنه لم يلبث أن استدرك فقال ما قال يجرّح الرجل وكتابه .

والذى نراه أن الطرطوشى كان متحاملا ومتجنياً على الغزالى ، وتفسير هذا التحامل بسيط ، فهو نوع من الغيرة التى تنشأ عادة بين العلماء المتعاصرين ، فالرجلان ولدا فى سنة واحدة ، وإن كان الغزالى ولد فى طوس فى أقصى الشرق ، والطرطوشى ولد فى طرطوشة فى أقصى الغرب ، والغزالى شافعى والطرطوشى مالكى ، والرجلان اشتغلا بالعلم وتحصيله ودراسته وتدريسه فى الحقبة الأولى من حياتهما ، ثم ركنا إلى حياة الزهد والتصوف حتى عُدّا من المتصوفة الزاهدين فى أخريات حياتهما ، والطرطوشى أدرك شهرة وذاع صيته فى الشام أولا ثم فى الإسكندرية ثانياً ، والغزالى طبق ذكره الآفاق فى جميع أنحاء العالم الإسلامى وخاصة بعد تأليفه « المنقذ من الضلال » « وإحياء علوم الدين » وقد سبقته شهرته إلى الإسكندرية قبل وصوله إليها ، ولم يكن للطرطوشى وقتذاك مؤلف يستطيع أن يطاول به « الإحياء » .

ولهذا جاء نقد الطرطوشى للغزالى وكتابه ضعيفاً متهافتاً ، لا يزيد على أن يضم بعض الاتهامات التى لا تقوم على دليل ، ولهذا لم يعنَ المرتضى الزبيدى بالرد على كلام الطرطوشى كثيراً ؛ بل نقل رداً لعالم آخر عليه ، نقل رد السبكى ، قال السبكى :

« وأما كلام الطرطوشى فمن الدعاوى العارية عن الدلالة ، ولا أدرى كيف استجاز أن ينسب هذا الحبر إلى أنه دخل فى وساوس الشيطان ، ولا من أين اطلع على ذلك ، وأما قوله : شابها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج فلا أدرى أى رموز فى هذا الكتاب غير إشارات القوم التى لا ينكرها عارف ، وليس للحلاج رموز يعرف بها ، وأما قوله : كاد ينسلخ من الدين ، فيالها كلمة وقاه الله شرها ، وأما دعواه أنه غير أنيس بعلوم الصوفية ، فمن الكلام البارد ، فإنه لا يرتاب ذو نظر بأن الغزالى كان ذا قدم راسخ فى التصوف ، وليت شعرى إن لم يكن الغزالى يدرى

التصوف فمن يدريه ؟ وأما دعواه أنه سقط على أم رأسه فوقعة فى العلماء بغير دليل ، فإنه لم يذكر لنا بماذا سقط ، كفاه الله وإيانا غائلة التعصب ، وأما الموضوعات فى كتابه ، فليت شعرى أهو واضعها حتى ينكر عليه ؟ ! إنْ هذا إلا تعصب بارد وتشنيع بما لا يرتضيه ناقد » .

والحقيقة أن الغزالى إذا قورن بالطرطوشى يبزه ويتفوق عليه فى جميع النواحى ، فالغزالى إمام مدرسة فكرية كبيرة ، وكان لآرائه وكتبه وفلسفته آثار جد واضحة على الفكر الإسلامى والمجتمع الإسلامى قروناً طويلة ، ولا يصح أن نأخذ نقد الطرطوشى هنا إلا على أنه نوع من الغيرة التى تثيرها الخصومة بين العلماء المتعاصرين المتنافسين .

٦ــ والكتاب السادس « رسالة فى تحريم جبن الروم » :

وهذا الكتاب ألفه قطعاً أثناء مقامه فى الإسكندرية ، وكان من بين الأسباب التى أثارت عليه القاضى ابن حديد والوزير الأفضل .

٧ ــ والكتاب السابع هو كتاب « الحوادث والبدع » أو كتاب « بدع الأمور ومحدثاتها » :

وأغلب الظن أنه ألفه فى الإسكندرية كذلك ، ينتقد فيه المجتمع الإسلامى والبدع التى انتشرت فيه ، ليثبت أن هذه البدع والمحدثات مما يتنافى مع أصول الدين والشريعة ، وهذا هو ثانى كتاب طبع من مؤلفات الطرطوشى ، نشره أخيراً فى سنة **١٩٥٩** الأستاذ محمد الطالبى من علماء تونس نشرة علمية محققة اعتمد فيها على مخطوطتين للكتاب ، توجد إحداهما فى المكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة ، وتوجد الثانية فى مكتبة مدريد .

٨ ــ والكتاب الثامن اسمه « كتاب الفتن » .

ولعله تناول فيه الفتن التى سادت العالم الإسلامى فى ذلك الوقت شرقه وغربه ، فقد كان العالم الإسلامى يجتاز حينذاك مرحلة تسودها الانقسامات والفتن فى كل جزء من أجزائه .

٩ ــ والكتاب التاسع اسمه كتاب « بر الوالدين » .

ولسنا نعرف شيئاً عن موضوعه أو عن الدافع إلى تأليفه ، إلا أن يكون

الطرطوشى — وقد تزوج فى الإسكندرية وأنجب — قد أحس عاطفة الأبوة تطغى عليه وتملك عليه نفسه ، فألف هذا الكتاب ، وخاصة أن الرجل تزوج وأنجب بعد أن تقدمت به السن أى بعد سن الأربعين ، وهى السن التى بلغها عند وصوله إلى الإسكندرية . والرجل إذا أنجب فى سن متأخرة تكون عاطفة الأبوة عنده عارمة قوية ، ومما يرجح استنتاجنا أن ياقوت أورد فى ترجمته للطرطوشى بعض الشعر الذى قاله فى هذا المعنى ، قال :

« فمن شعره فى بر الوالدين :

لو كان يدرى الابنُ أيَّةَ غُصَّةٍ　　يتجرَّعُ الأبوان عند فِراقِهِ

أمٌّ تهيج بوجده حيرانةً ،　　وأبٌ يسح الدمع من آماقه

يتجرَّعان لِبَيْنه غُصَصَ الرَّدى　　ويبوح ما كَتَماه من أشواقِهِ

لرثى لأمٍّ سُلَّ من أحشائها ،　　وبكى لشيخٍ هام فى آفاقه

ولبدَّلَ الخُلُقَ الأبِىَّ بعطفه ،　　وجزاهما بالعذب من أخلاقِهِ

وأغلب الظن أن هذا الشعر لم يكن إلا تعبيراً عن عاطفته وشعوره هو ، فالشيخ الذى عناه فى قوله :

« وبكى لشيخ هام فى آفاقه »

لم يكن إلا الطرطوشى نفسه .

١٠ — والكتاب العاشر هو كتاب « سراج الملوك » :

وهو أهم كتبه جميعاً وأقيمها ، وهو واحد من كتب الطرطوشى القليلة التى وصلتنا ، فإن معظم كتبه قد فقدت للأسف ، وهو الكتاب الوحيد من بين هذه القلة الباقية الذى طبع أكثر من مرة .

وقد ذكرنا من قبل أن الطرطوشى ألف هذا الكتاب بُعَيْد إطلاق سراحه من المعتقل الذى حددت إقامته فيه فى الفسطاط ، وأنه ألفه فى الإسكندرية خلال سنة كاملة ، من شوال سنة ٥١٥ إلى شوال ٥١٦ ، وأنه قدمه هدية إلى الوزير الذى أطلق سراحه المأمون البطائحى ، وقال فى الإهداء مشيداً بذكر الوزير وعدله :

« ولما رأيت الأجل المأمون ، تاج الخلافة ، عز الإسلام ، فخر الأنام ، نظام الدين ، خالصة أمير المؤمنين ، أبا عبد الله محمد الآمدى أدام الله

لإعزاز الدين نصرَه ، وأنفذ فى العالمين بالحق أمره ، وأوزع كافة الخلق شكره ، وكفاهم فيه محذوره وضره ، فقد تفضل الله تعالى به على المسلمين ، فبسط فيهم يده ، ونشر فى مصالح أحوالهم كلمته ، وعرف الخاص والعام يمنه وبركته ، وتقلد أمور الرعية ، وسار فيهم على أحسن قضية ، متحرياً للصواب ، راغباً فى الثواب ، طالباً سبل العدل ومناهج الإنصاف والفضل ، رغبتُ أن أخصَّه بهذا الكتاب ، رجاء لطف الله تعالى "يوم تجد كلُّ نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً" ، ولتذكر فضائله ومحاسنه ما بقى الدهر كما قيل :

الناس يهـــدون على قدرهم لـــكننى أهدى على قـــدرى
يهدون ما يفنى ، وأهدى الذى يبقى عـــلى الأيام والدّهـــر »

ثم يعلل الطرطوشى السبب فى إهدائه الكتاب إلى المأمون ، ويلمح إلى موقف الأفضل منه ومن العلماء ، ويدعو الوزير الجديد إلى أن يقف موقفاً آخر من العلماء ، فهم السياج الذى يمنع الحكام من الظلم ومن أن يسدروا فى غيهم ، فيقول :

« إن العلم عصمة الملوك والأمراء ، ومعقل السلاطين والوزراء ، لأنه يمنعهم من الظلم ، ويردهم إلى الحلم ، ويصدهم عن الأذية ، ويعطفهم على الرعية ، فمن حقهم أن يعرفوا حقه ، ويكرموا حملته ويستبطنوا أهله » .

والطرطوشى فى هذا الكتاب من الطلائع ومن رواد الفكر الإسلامى الأوائل الذين حاولوا التأليف فى علم السياسة وفن الحكم ، فالعلماء المسلمون الذين ألفوا فى هذا الفن قليلون ، ومنهم الغزالى فى كتابه « الذهب المسبوك فى نصيحة الملوك » ، والطرطوشى فى كتابه « سراج الملوك » ، والشيزرى فى كتابه « المنهج المسلوك فى سياسة الملوك » ، وابن طباطبا فى كتابه « الفخرى فى الآداب السلطانية » ، وخيرهم جميعاً ابن خلدون فى مقدمته ، وقد أشار ابن خلدون فى مقدمته إلى كتاب الطرطوشى « سراج الملوك » واعترف أنه من المفكرين القلائل الذين سبقوه بالتأليف فى علم الاجتماع أو العمران ، ولكنه قال إن الطرطوشى أحسن فى تقسيم كتابه وتحديد موضوعاته ، ولكنه لم يحسن علاج هذه الموضوعات أو التفكير فيها أو عرضها ،

أو هو — على حد قول ابن خلدون — « حوّم على الغرض ولم يصادفه ، ولا تحقق قصده ولا استوفى مسائله » .

والطرطوشى قسّم كتابه « سراج الملوك » إلى أربعة وستين فصلا ، جعل الفصل الأول فى مواعظ الملوك ، والفصل الثانى فى مقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين ، ومن بينها فصل لمنافع السلطان ومضاره ، وفصل آخر لمعرفة الخصال التى هى قواعد السلطان ، وفصل للوزراء ، وعقد فصلا للحديث عن علاقة السلطان بالجند وبيت المال ، وفصلا للحديث عما يصلح الرعية من الخصال .... وما إلى هذا من موضوعات كثيرة تتصل بسياسة الملك وفن الحكم وتدبير أمور الرعية .

ومنهج الطرطوشى فى تأليف هذا الكتاب أن يبدأ الفصل بتقرير المبدأ الخلقى الذى يرى أن يتحلى به صاحب الوظيفة سواء أكان ملكاً أم وزيراً أم والياً أم قاضياً ، وقد يشرح هذا المبدأ شرحاً يسيراً ولكنه لا يطيل ، بل يسرع بإيراد كثير من الحكم والأمثال والقصص التى تؤيد صحة هذا المبدأ ، وهو يقتبس هذه الحكم والقصص والنوادر من سير الأنبياء والخلفاء والصالحين ، ومن سير الملوك والحكماء السابقين من مختلف الأجناس والعصور ، فالطرطوشى فى كتابه هذا واحد من المفكرين
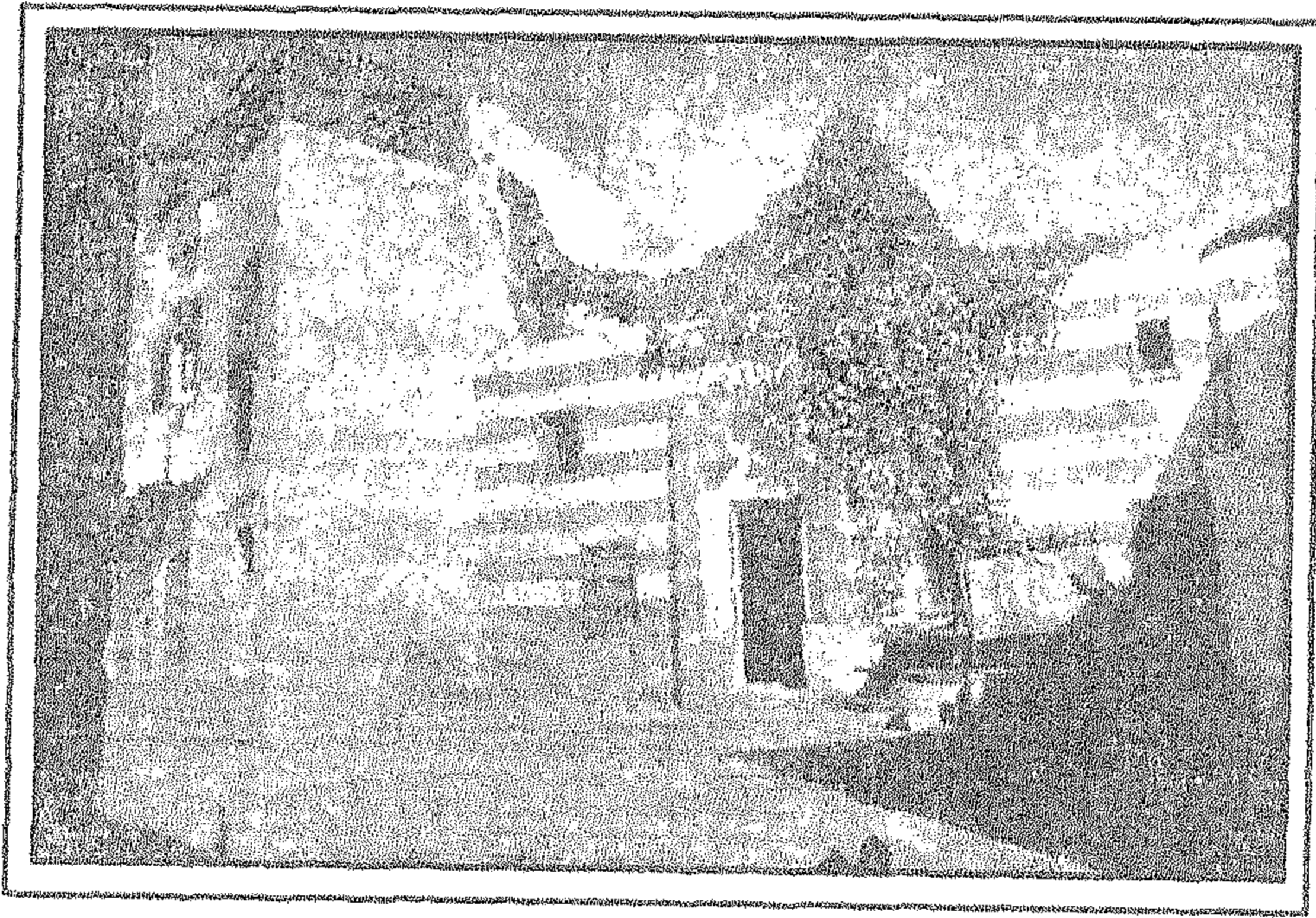
مسجد أبى بكر الطرطوشى

الذين لا يفرقون بين السياسة والأخلاق ، بل هو يراهما شيئاً واحداً متفقاً ، وهو يشبه فى هذا فلاسفة اليونان القدامى ومفكريهم ، ويختلف اختلافاً كبيراً عن فلاسفة أوربا فى عصر النهضة والعصر الحديث من أمثال هوبز ولوك وروسو وهيجل وماركس ، الذين كانوا يفرقون بين السياسة والأخلاق ، ويفكرون فى مشاكل السياسة وموضوعاتها تفكيراً مستقلا عن تفكيرهم الخلقى، وهو يشبه فى هذا أنداده من المفكرين الإسلاميين ، فهم جميعاً لم يفرقوا فى مؤلفاتهم بين السياسة والأخلاق .

وابن خلدون يعترف للطرطوشى بفضل الأسبقية فى ارتياد هذا الموضوع ولكنه أراد فى نفس الوقت أن يتعالى عليه ، وأن يفخر بما آتاه الله من نعمة التوفيق فى مقدمته ، فقال :

« وكذلك حوّم أبو بكر الطرطوشى فى كتابه سراج الملوك ، وبوّبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله ، ولكنه لم يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة ، ولا استوفى المسائل، ولا أوضح الأدلة، وإنما يبوب للمسألة ، ثم يستكثر من الأحاديث والآثار ، وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس وغيرهم من أكابر الخليقة، ولا يكشف عن التحقيق قناعاً ، ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجاباً ، وإنما هو نقل وترغيب شبيه بالمواعظ ، وكأنه حوّم على الغرض ولم يصادفه ، ولا تحقق قصده ، ولا استوفى مسائله ونحن ألهمنا الله ذلك إلهاماً » .

وإنصافاً للطرطوشى نقول إن هدفه من تأليف سراج الملوك لم يكن كهدف ابن خلدون من تأليف المقدمة هدفاً علميًّا خالصاً ، وإنما كان هدفه فنيًّا يريد أن يؤثر فى النفوس بالقصة يرويها أو بالمثل والحكمة والموعظة الحسنة ، يلمح ولا يصرح ، حقيقة إن الطرطوشى لم يكن ندًّا لابن خلدون ، ولكن من العدل أن يقاس نجاح المؤلف بمقدار نجاحه فى تحقيق أهدافه التى كان يتطلع إليها عند وضع مؤلفه ، والحقيقة أن « سراج الملوك » كتاب حافل بالقصص الممتعة والأخبار الطريفة والنوادر الشائقة ، كما ضمنه الطرطوشى كثيراً من تجاربه المفيدة ونظراته السديدة وآرائه القيمة مما يدل على اطلاع واسع ومعرفة شاملة لمسائل الفقه والتشريع والتاريخ والأدب .

ومن الفصول القيمة فى هذا الكتاب الفصل الذى عقده للدلالة على فضل الولاة والقضاة إذا عدلوا ، فهو يقول فى أوله :

« ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة ، كما أن خيره يعم ، كذلك ليس دون رتبة السلطان الجائر الشرير رتبة لأن شره يعم ، وكما أنه بالسلطان العادل تصلح البلاد والعباد ، كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد وتقترف المعاصى والآثام ، وذلك أن السلطان إذا عدل انتشر العدل فى رعيته فأقاموا الوزن بالقسط ، وتعاطوا الحق فيما بينهم ، وإذا جار السلطان انتشر الجور وعم العباد فرقت أديانهم واضمحلت مروءاتهم ، ففشت فيهم المعاصى وذهبت أماناتهم فضعفت النفوس ، وقنطت القلوب ، فمنعوا الحقوق وتعاطوا الباطل ، وبخسوا المكيال والميزان . . . فرفعت منهم البركة ، ، وأمسكت السماء غيثها » .

ويروى الطرطوشى حادثة من مشاهداته بالإسكندرية للدلالة على أن السلطان إذا جار وظلم انتشر الجور وعم البلاد فرفعت البركة وقل الرزق . يقول :

« وشهدت أنا بالإسكندرية والصيد فى الخليج مطلق للرعية ، والسمك فيه يغلى الماء به كثرة ، ويصيده الأطفال بالخرق ، ثم حجزه الوالى ومنع الناس من صيده فذهب السمك حتى لا يكاد يرى إلا الواحدة إلى يومنا هذا » .

ويعلق على هذا الخبر مرة أخرى بقوله :

« وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم إلى الرعية ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر » .

ومن كلماته القيمة فى وصف خطورة منصب السلطان والمهام الملقاة على عاتقه :

« . . . الخلق فى شغل عنه وهو مشغول بهم ، والرجل يخاف عدواً واحداً وهو يخاف ألف عدو ، والرجل يضيق بتدبير أهل بيته وإيالة ضيعته وهو مدفوع لسياسة أهل مملكته ، وكلما رتق فتقاً من حواشى مملكته انفتق آخر ، وكلما لم منها شعثاً رث آخر . . . »

وهو يبرهن على ضرورة قيام الحكومات بالإشراف على شئون الرعية وإلزام كل فرد حقوقه وحدوده والانتصاف للمظلوم من الظالم بقوله :

«جبلت الخلائق على حب الانتصاف وعدم الإنصاف ، ومثلهم بلا سلطان كمثل الحوت فى البحر يزدرد الكبير الصغير ، فمتى لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر » .

ومن عجب أن الطرطوشى الذى غمز الغزالى غمزته التى أشرنا إليها ونقد موسوعته الضخمة «إحياء علوم الدين» قد تأثر به وحاكاه عندما أراد أن يؤلف « سراج الملوك » فقد بدا لى أن أقارن بين كتاب الغزالى « الذهب المسبوك فى نصيحة الملوك » وكتاب الطرطوشى « سراج الملوك » فتبين لى أن منهج الرجلين واحد ، فكلاهما يمزج تفكيره الأخلاقى بتفكيره السياسى مزجاً تامًّا ، وكلاهما يبدأ الفصل بتقرير المبدأ الأخلاقى تقريراً موجزاً ، ثم يورد من قصص الأقدمين وحكمهم ما يبرهن به على صحة هذا المبدأ ، والغزالى أهدى كتابه لملك سلجوقى هو السلطان محمد بن ملك شاه ، والطرطوشى أهدى كتابه لوزير فاطمى كان يتمتع بسلطان الملك المطلق هو المأمون البطائحى .

وقد يتردد الدارس الناقد طويلا قبل أن يحكم على بعض الفقرات المتشابهة فى الكتابين بأنهما من باب توارد الخواطر .

وسنورد فيما يلى مثالين يؤيدان ما لاحظناه من تشابه بين الكتابين فى بعض الأفكار بل فى التعبير عنها .

يقول الغزالى عند حديثه عن مكانة العلماء وما يجب على الملوك والولاة من تقريبهم إليهم واستشارتهم والأخذ بنصيحتهم :

« أيها السلطان : خطر الولاية عظيم ، وخطبها جسيم ، ولا يسلم الوالى إلا بمقاربة علماء الدين ليعلموه طريق العدل ويسهلوا عليه خطر هذا الأمر » .

ويقول الطرطوشى فى نفس المعنى :

« إن العلم عصمة الملوك والأمراء ، ومعقل السلاطين والوزراء ، لأنه يمنعهم من الظلم ، ويردهم إلى الحلم ويصدهم عن الأذية ، ويعطفهم على الرعية ، فمن حقهم أن يعرفوا حقه ويكرموا حملته ويستبطنوا أهله » .

ويقول الغزالى عند حديثه عن أثر السلطان العادل أو السلطان الجائر فى الرعية وعمران البلدان :

« ينبغى أن تعلم أن عمارة الدنيا وخرابها من الملوك ، فإذا كان السلطان عادلا عمرت الدنيا وأمنت الرعايا . . . وإذا كان السلطان جائراً خربت الدنيا » .

ويقول الطرطوشى فى نفس المعنى :

« ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة كما أن خيره يعم ، وكما أنه بالسلطان العادل تصلح البلاد والعباد ، كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد » .

ولكن من الإنصاف أن نذكر أن كتاب « الذهب المسبوك » للغزالى موجز ، فقد قسمه إلى سبعة أبواب تناول فيها أمهات المسائل ، أما كتاب « سراج الملوك » للطرطوشى فكتاب ضخم مفصل قسمه إلى أربعة وستين باباً ، وقد تناول فيه كثيراً من الموضوعات التى لم يعرض لها الغزالى فى كتابه ، وحصيلة الطرطوشى فى سراج الملوك من القصص والنوادر والحكم والأخبار التاريخية والمسائل الفقهية أغنى وأوفر من حصيلة الغزالى فى كتابه « الذهب المسلوك » .

١١ — والكتاب الحادى عشر هو « رسالة فى تحريم الغناء واللهو على الصوفية فى رقصهم وسماعهم » .

وتوجد منه نسخة خطية وحيدة ضمن المجموعة التى تضم كتاب البدع والحوادث فى مكتبة مدريد تحت رقم ٥٣٤١ ، وتشتمل على الصفحات من ١٠٤ إلى ١٢١ .

١٢ — والكتاب الثانى عشر هو كتاب « تحريم الاستمناء » .

وتوجد منه نسخة خطية فى مكتبة برلين تحت رقم ٤٩٨١ .

١٣ — والكتاب الثالث عشر هو كتاب « نزهة الإخوان المتحابين فى الله » .

وتوجد منه نسخة خطية فى مكتبة جوتا تحت رقم ٩٠٩ .

١٤ و ١٥ — وهذان الكتابان هما :

رسالة العدة عند الكروب والشدة ،

وحاشية على إثبات الواجب .

وقد ذكرا فى فهرس مكتبة استنابول ، الجزء الأول ، منسوبين للطرطوشى .

١٦ — كتاب الدعاء .

١٧ — كتاب النهاية فى فروع المالكية .

١٨ — كتاب نفائس الفنون .

وهذه الكتب الثلاثة انفرد بذكرها حاجى خليفة فى « كشف الظنون » منسوبة إلى الطرطوشى .

١٩ — اختصار كتاب أخلاق رسول الله ، والأصل لأبى محمد عبد الله ابن جعفر بن حيان . ذكره ابن خير فى فهرسه قال :

« كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن حيان ، اختصار الشيخ الإمام أبى بكر محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى — رحمه الله .

« حدثنى به القاضى أبو بكر بن العربى — رحمه الله — قال : أخبرنى به شيخنا الإمام أبو بكر الطرطوشى — رحمه الله — به وبالأصل عن أبى بكر المفيد الحافظ المعروف بابن الخاصبة . ولم يزد ابن العربى — رحمه الله — على هذا فى سند الأصل . وحدثنى بالأصل المذكور الشيخ أبو الحسين عبد الملك بن محمد الصدفى ، قال : قرأت جميعه على الشيخ الإمام أبى القاسم عبد الله بن طاهر التميمى ، حدثنا به عن أبى بكر أحمد بن الحارث المقرئ عن أبى محمد عبد الله بن جعفر بن حيّان — رحمه الله — ستة أجزاء ».

٢٠ — جزء فيه منتخب من عيون خصائص العباد .

ذكره ابن خير فى فهرسه .

٢١ — ثلاثة أجزاء فيها الكلام فى الغنى والفقر .

ذكره ابن خير فى فهرسه قال :

« ثلاثة أجزاء فيها الكلام فى الغنى والفقر ، تولى جمعها الفقيه أبو بكر الطرطوشى — رحمه الله — حدثنى بها القاضى أبو بكر بن العربى — رحمه الله — » .

٢٢ — رسالة أبى بكر الطرطوشى إلى ابن تاشفين .

ذكرها ابن خير فى فهرسه ، قال :

« رسالة الفقيه أبى بكر محمد الطرطوشى — رحمه الله — إلى ابن تاشفين ، حدثنى بها القاضى أبو بكر محمد بن العربى — رحمه الله — قراءة عليه

وأنا أسمع غير مرة ، قال : أخبرني بها أبو بكر الطرطوشي ــ رحمه الله ــ » .

وهي رسالة طويلة في نحو عشر صفحات كتبها الطرطوشي إلى أبي يعقوب ابن تاشفين يوصيه بتقوى الله وطاعته وإشاعة العدل بين رعاياه، وحشد فيها الشواهد الكثيرة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأحداث التاريخية التي تتضمن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

والرسالة لحسن الحظ موجودة كلها في الجزء الذي لم ينشر من مخطوطة « مفاخر البربر »[١] وهي لمؤلف مجهول ، وفي ختام هذه الرسالة أوصى الطرطوشي السلطان المرابطي أبا يعقوب يوسف بن تاشفين بصديقه وتلميذه أبي بكر محمد ابن العربي خيراً ، قال :

« والفقيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي ممن صحبنا أعواماً يدارس العلم ويمارسه ، بلوناه وخبرناه وهو ممن جمع العلم ووعاه ، ثم تحقق به ورعاه ، وناظر فيه وجد حتى فاق أقرانه ونظراءه ، ثم رحل إلى العراق فناظر العلماء ، وصحب الفقهاء ، وجمع من مذاهب العلم عيونها ، وكتب من حديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وروى صحيحه وثابته ، والله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء ، وهو وارد عليك بما يسرك ، فاشدد عليه يديك ، واحفظ فيه وفي أمثاله وصية الله سبحانه لنبيه عليه السلام ، قال الله سبحانه وهو أجل القائلين : "وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة " .

والحمد لله رب العالمين ، والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين ، وآله الطيبين الطاهرين وسلم وشرف وكرم ، وأفضل وأنعم[٢] » .

والشبه كبير بين النصائح التي أزجاها الطرطوشي للوزير الفاطمي الأفضل شاهنشاه والتي ضمنها كتابه « سراج الملوك » والنصائح التي أزجاها للسلطان

---

(١) أشكر الصديق الدكتور أحمد مختار العبادي فقد تفضل وأطلعني على صور شمسية من هذه المخطوطة ، وعنها نقلت نص هذه الرسالة .

٢) وقد عقب مؤلف « مفاخر البربر » على هذه الرسالة بقوله : " هكذا كانت سيرة العلماء مع الأمراء ، ومنذ عدم الناس أمثال هؤلاء العلماء أصابهم ما أصابهم " .

المرابطى أبى يعقوب يوسف بن تاشفين فى رسالته إليه ، والطرطوشى فى نصائحه هذه وتلك هو هو لم يتغير، يمثّل عالم الدين الجرىء الذى يرى من واجبه أن يتقدم لولى الأمر — مهما علت مكانته أو قوى سلطانه — بالنصح أن يلتزم حدود الدين فى أوامره ونواهيه وأن يرعى الله فى رعيته ، وأن يفتح بابه لكل صاحب مظلمة ، وهذا طراز من العلماء نادر الوجود .

١٢

والطرطوشى بعد هذا كله أديب ممتاز ، وأسلوبه النثرى فى كتابه « سراج الملوك » أسلوب سهل ممتع جميل ، تزينه أحياناً بعض المحسنات البديعية كالسجع والجناس والتضمين وغيرها ، ولكنه لا يبالغ فى استعمال هذه المحسنات كما كان يفعل معاصروه من كتاب مصر بوجه عام ، ومن كتاب الإنشاء بها بوجه خاص ، فقد كانت المدرسة الأدبية فى مصر والشام فى العصر الفاطمى تعنى كلها بزركشة الأسلوب وتجميله وتطريزه بهذه المحسنات حتى أصبحت هذه الزركشة هى هدفهم الأول من الكتابة ، فطغى الأسلوب على المعنى ، وأصبح للأسلوب المقام الأول وللمعنى المقام الثانى ، هذه المدرسة التى كان يقود زمامها كتاب الإنشاء فى العصر الفاطمى والتى بلغت ذروتها من الإتقان على أيدى العماد الأصفهانى والقاضى الفاضل لم يتأثر بها الطرطوشى كثيراً فى مؤلفاته النثرية ، بل سايرها بقدر ، وجاراها بحذر ، فجمّل أسلوبه بالمحسنات ، ولكنه لم يبالغ ، فأتى أسلوبه كما قلنا سهلا ممتعاً .

وكان الطرطوشى إلى هذا شاعراً ولكن يبدو أنه كان مقلا ، وقد روى هو فى كتابه سراج الملوك بعض هذا الشعر وروى عنه مؤرخوه بعضاً آخر ، وقد نقلنا فيما سلف أبياتاً من هذا وذاك ، والأبيات القليلة المتفرقة التى وصلتنا من شعر الطرطوشى تدل على أنه شعر وسط فلا هو بالجيد ولا هو بالردئ ، وهويدور فيه حول موضوعات تتصل بالسمات التى اتسم بها فى حياته ، فبعض هذا الشعر فى الزهد وقد عرفنا الطرطوشى عابداً زاهداً ؛ وبعضه صدى لانفعالاته وتجاربه فى الحياة ، وقد لاحظنا كيف يروى الكثير من تجاريبه فى كتابه « سراج الملوك » ،

وبعضه فى الغزل ولسنا نعرف شيئاً عن حياة الطرطوشى العاطفية نستطيع أن نحكم به إن كان هذا الشعر صادقاً أو كاذباً ، ولكن القطعتين اللتين بقيتا من شعره الغزلى تدلان فى وضوح على أن الرجل كان ذا عاطفة مشبوبة ، وأنه أحسّ لوعة الحب وألم بعد الحبيب ، وهما لهذا من أجمل ما قال من الشعر .

ومن شعره فى الزهد قوله :

إنّ لله عبـــادًا فُطَنــا ... طلّقوا الدنيا وخافوا الفتنا
فكروا فيها ، فلمــا علموا ... أنها ليستْ لحىٍّ وَطَنــا
جعلوهـــا لُجّةً ، واتخذوا ... صالحَ الأعمال فيها سُفُنا

وقوله :

اعمل لمعـــادك يا رجـــل ، ... فالناس لدنيـــاهم عملوا
وادخر لمســـيرك زادَ تُقًى ، ... فالقومُ بلا زاد رحلـــوا

وقال أيضاً فى سكان الثرى ورهائن الترب والبلى :

مقيمٌ بالحجون رهينُ رَمْسٍ ، ... وأهـــلى رائحـــون بكل واد
كأنى لم أكن لهم حبيبـــًا ، ... ولا كانوا الأحبّـــةَ فى السواد
فعوجوا للسلام ، فإن أبيتم ... فأوبوا بالسلام عـــلى بعـــاد
فإن طال المدى وصفا خليلٌ ... سوانا ، فاذكروا صفو الوداد
وذاك أقلُّ ما لك من حبيب ... وآخره إلى يـــوم التناد
فلو أنـــا بموقفـــكم وقفنـــا ... سقينـــا التربَ من مُهَجِ الفؤاد

ومن الأمثلة على النوع الثانى من شعره الذى هو صدى لانفعالاته وتجاريبه فى الحياة قوله :

إذا كنتَ فى حاجةٍ مرسلاً ، ... وأنت بإنجـــازها مغـــرمُ
فأرســـل بأكمـــه خلابـــة ... به صمم أغطش أبـــكمُ
ودع عنك كلَّ رسول سـوى ... رســـول يقال له الدرهمُ

ومن شعره العاطفى هذه الأبيات ، وهى أجمل ما وصلنا من شعره :

أقلّبُ طرْفى فى السماء تـــرددا ... لعلى أرى النجمَ الذى أنت تَنْظُرُ
وأستَعْرِضُ الركبانَ من كل وجهةٍ ، ... لعلى بمن قد شَمَّ عَرْفَكَ أظفرُ

وأستقبل الأرواحَ عند هبوبها لعلّ نسيمَ الريح عنك يخبر
وأمشى ومالى فى الطريق مآرب ، عسى نغمةٌ باسم الحبيب تُذكَرُ
وألمح من ألقاه من غير حاجةٍ ، عسى لمحة من نور وجهك تُسفِرُ

والمقطوعة الثانية من شعره العاطفى قالها يعارض بها شاعراً آخر ، فقد روى المقرى أن الطرطوشى سمع مرة منشداً ينشد قول الوأوأ :

قمرٌ أتى من غير وعد فى ليلة طرقت بسعد
بات الصباحَ إلى الصبا ح معانقى خدًّا بخدّ
يمتارُ فىّ ، وناظرى ما شئتَ من خمرٍ وشَهْد

فقال الطرطوشى : أوَظنّ هذا الدمشقى أن أحداً لا يحسن نظم الكذب غيره ، لو شئنا لكذبنا مثل هذا ، ثم أنشد لنفسه يعارض :

قمرٌ أتى من غير وَعْدِ حفت شمائله بسعد
قبّلتُه ورشفتُ ما فى فيه من خَمْرٍ وشهد
فزجتُ مُزْنَ السلسبيـ ل بزنجبيلٍ مستعد
ولثمتُ فاه من الغرو ب إلى الصباح المستجد
وسكرتُ من رشف العقيـ ق على أقاح تحت زبد
فنزعت عن فمه فمى ، ووضعتُ خدًّا فوق خد
وشممتُ عَرْفَ نسيمه الـ جارى على مسك وند
وصحوتُ من ريا القرنفـ ل بين ريحان وورد
والذى من وصلى به شكواه وجداً مثل وجدى

١٣

أشاع الطرطوشى فى الإسكندرية نشاطاً علميًّا وافراً، وتتلمذ عليه عدد كبير من فقهاء الثغر وطلابه، ونبغ من هؤلاء التلاميذ نفرٌ من العلماء سيكونون عُمُدَ الحركة العلمية وشيوخها فى الإسكندرية فيما بعد ، برز من هؤلاء العلماء اثنان سيكون لهما الشأن الخطير بعد وفاة الطرطوشى ، أما أولهما فهو سند بن عنان ،

وقد خلف أستاذه الطرطوشى فى مدرسته ، وأما ثانيهما فهو أبو الطاهر بن عوف ، وقد اتخذ له مدرسة مستقلة ، وانتقلت إليهما معاً قيادة الحركة العلمية فى الإسكندرية بعد وفاة الطرطوشى ، وظلا يحملان لواءها سنين طويلة ، لهذا كان من الواجب أن نشير إليهما وإلى جهودهما العلمية بشىء من التفصيل وقد أفردنا لكل واحد منهما فصلا خاصًّا به فيما يلى .

١٤

وبعد ، فهذا فقيهنا العالم الزاهد الثائر أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى ، وهذه هى سيرته العطرة ، وهذا هو نشاطه العلمى الوافر ، وهؤلاء هم بعض تلامذته النوابغ ، والإسكندرية فى تاريخها العلمى تدين له ولهم بالشىء الكثير ، فقد أجمع الذين ترجموا له على وصفه بالعلم والزهد والفضل والجرأة ، وصفه ياقوت — نقلا عن أبى الحسن المقدسى فى كتاب الرقيات — بقوله :

« هذا الذى نشر العلم بالإسكندرية وعليه تفقه أهلها » .

وكتب إليه القاضى عياض يطلب إجازته بجميع رواياته ومصنفاته فأجازه ، واعتبر لهذا من تلاميذه وإن لم يقابله ، ولهذا وصفه بأنه « الإمام الورع » .

وعبر عنه ابن الحاجب فى مختصره الفقهى « بالأستاذ » .

وقال ابن فرحون فى ترجمته : « وانجلب إليه أكثر من مائتى فقيه مفتٍ ».

ونعته السيوطى بأنه « أحد الأئمة الكبار » .

وقد توفى الطرطوشى فى التاسعة والستين من عمره فى ثلث الليل الأخير من ليلة السبت لأربع بقين من جمادى الأولى سنة ٥٢٠ هـ . وصلى عليه ولده محمد ودُفن فى مقبرة وَعْلَة .

وقد ظل قبره طوال القرون التالية حتى اليوم معلماً من أهم المعالم التى تعين الباحث على دراسة طبوغرافية المدينة ، فقد قال ابن خلكان :

« إن مقبرة وعلة كانت قريبة من البرج الجديد قبلى الباب الأخضر ، والباب الأخضر كان أحد أبواب الإسكندرية القديمة الهامة وكان يقع فى

الناحية الغربية من أسوارها » .

وقد زار قبر الطرطوشى كثير من المؤرخين والرحالة الذين زاروا الإسكندرية بعد ذلك ، وكان آخر من نصّ على وجود القبر وزيارته له المقرى صاحب كتاب « نفح الطيب » الذى عاش فى القرن الحادى عشر الهجرى (١٧ م) فقد قال :

« ودفن قبلى الباب الأخضر بالإسكندرية وزرت قبره مراراً » .

ويبدو أنه كان قد بنى فوق ضريحه مسجد صغير ، وقد أشار إلى هذا المسجد على مبارك فى الجزء الخاص بمدينة الإسكندرية من كتابه « الخطط التوفيقية » ، فقال :

« مسجد الطرطوشى — صاحب سراج الملوك — كان متخرباً فأصلحه المرحوم السيد إبراهيم مورو سنة ١٢٧٠ ، وقد تممت إصلاحه وتنظيمه المرحومة والدة الجناب الخديو ، وهو الآن مقام الشعائر من الأوقاف » .

ومسجد الطرطوشى هذا لا يزال موجوداً حتى اليوم ، فإنك إذا سرت فى شارع الباب الأخضر — ويعرف عند السكندريين اليوم بشارع السكة الجديدة — إلى قريب من نهايته وجدت زاوية أو مسجداً صغيراً هو مسجد سيدى سند بن عنان تلميذ الطرطوشى ، وقبل هذا المسجد يوجد زقاق أو حارة صغيرة إذا دخلتها واتجهت إلى اليمين وجدت مسجداً آخر صغيراً هو مسجد سيدى أبى بكر الطرطوشى .

إذا دخلت هذا المسجد وجدت إلى اليسار مباشرة ضريحاً لسيدى على العقباوى وبجانب القبلة يوجد باب يفضى إلى غرفة مهملة إهمالا عجيباً للأسف بها ضريحان ، الأول منهما لسيدى محمد الأسعد ، والثانى هو ضريح عالمنا الكبير سيدى أبى بكر الطرطوشى ، ومن المؤسف حقيقة أن يترك ضريح هذا العالم الكبير مهملا هذا الإهمال ، تعلوه وتعلو المكان كله الأتربة ، وليس به أى شاهد أو لوحة رخامية تثبت اسمه وتاريخ وفاته ونبذة قصيرة عن سيرته ، فإلى إدارة الأوقاف بمدينة الإسكندرية وإلى محافظة الإسكندرية وأهليها الكرام نتوجه بالرجاء أن يعنوا بهذا المسجد وبنظافته وتجديده وبإثبات هذه اللوحة إحياء لذكرى هذا العالم الزاهد الثائر ، فهم بهذا يعنون بناحية مجيدة من تاريخ الإسكندرية ، رحم الله الطرطوشى وأسكنه فسيح جناته .

سند بن عنان

(٠٠٠٠ — ٥٤١) — (٠٠٠٠ — ١١٤٦)

« وجلس سند بن عنان لإلقاء الدرس بعد الشيخ أبى بكر الطرطوشى ، وانتفع الناس به »

ابن فرحون فى « الديباج المذهب »

سند بن عنان

(٠٠ — ٥٤١) = (٠٠٠ — ١١٤٦)

انفرد بترجمته ابن فرحون فى كتابه « الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب » .

اسمه بالكامل : سند بن عنان بن إبراهيم بن حريز بن الحسين بن خلف الأزدى ، ويكنى بأبى على .

كان سند أنبغ تلاميذ الطرطوشى وأقربهم إليه ، وكان كأستاذه مالكى المذهب وقد سمع منه ، ولازم حلقته سنين طويلة ، ولم يأخذ عن أستاذه العلم وحده بل قبس من أخلاقه وفضله ، ومن فلسفة الزهد التى أخذ الطرطوشى بها نفسه ، ولهذا وصفه ابن فرحون بقوله :

كان من زهّاد العلماء وكبار الصالحين ، فقيها فاضلا ، تفقّه بالشيخ أبى بكر الطرطوشى » .

وقال تميم بن معين البادسى — وكان من الفقهاء — :

« رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقلت يا رسول الله : "اكتب لى براءة من النار" فقال لى : "امض إلى الفقيه سند يكتب لك براءة" فقلت : "ما يفعل" ، فقال : "قل له بأمارة كذا وكذا" . فانتبهت ، فمضيت إلى الفقيه سند ، فقلت له : "اكتب لى براءة من النار" ، فبكى وقال : "ومن يكتب لى براءة من النار" ؟ ، فقلت له الإمارة . قال : فكتب لى رقعة » .

وقال ابن فرحون بعد رواية هذه القصة :

« ولما أدركتْ تميماً الوفاة أوصى أن تُجعل الرقعة فى حلقة وتدفن معه » .

وروى فقيه آخر هو أبو القاسم بن مخلوف بن عبد الله بن عبد الحق بن جاره قال :

« أخبرنى من أثق به أنه رأى الفقيه أبا على سند بن عنان فى النوم ، قال فقلت له : " ما فعل الله بك ؟" .

فقال : عُرضت على ربى فقال لى : أهلا بالنفس الطاهرة الزكية العالمة »

ووصفه عالم مصر فى القرن السابع الهجرى هو تقى الدين بن دقيق العيد بقوله :

« كان — أى سند بن عنان — فاضلا من أهل النظر » .

وكان سند بن عنان كأستاذه الطرطوشى يقول الشعر أحياناً ، وقد روى ابن فرحون بيتين من شعره ، قال : ومن نظم سند رحمه الله :

وزائرةٍ للشيب حلّتْ بمفرقى فبادرتُها بالنتفِ خوفاً من الحَتْفِ

فقالت : على ضعفى استطلتَ ووحدتى؟ رويدك للجيش الذى جاء من خلفى

واشتغل سند بن عنان بالتأليف ، ذكرت المراجع أنه ألف كتاباً ضخماً فى شرح « المدونة » — وهى من أمهات الكتب فى فقه مالك — وسمى سند شرحه هذا « الطراز » ، وكان فى ثلاثين مجلداً ، غير أنه توفى قبل إتمامه .
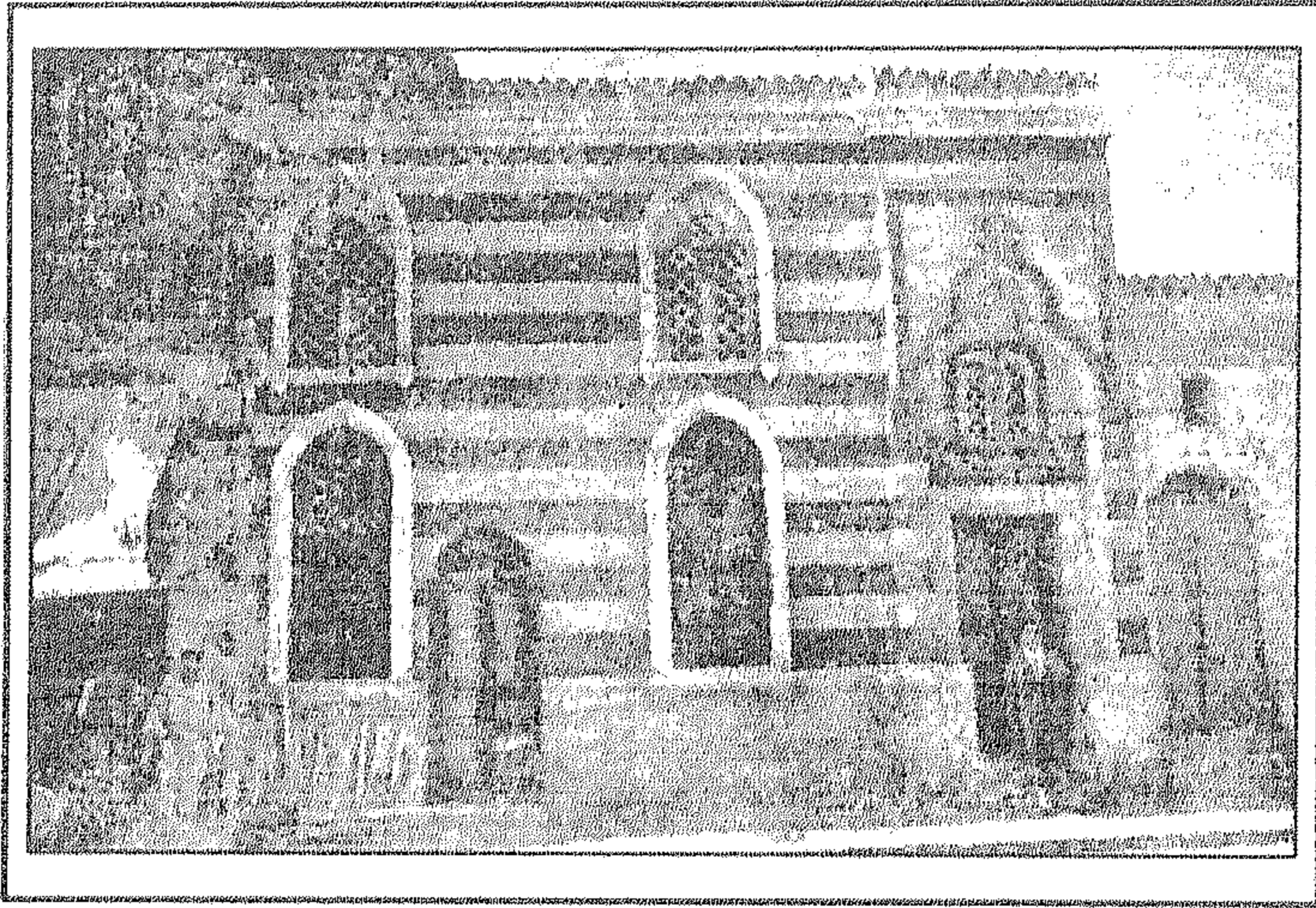
مسجد سند بن عنان من الخارج

وقد رشحت هذه المؤهلات جميعاً سند بن عنان لأن يخلف أستاذه الطرطوشى فجلس فى حلقته ومدرسته بعده يلقى الدروس فى العلوم المختلفة ، وخاصة فى فقه مالك ، قال ابن فرحون :

« وجلس — سند بن عنان — لإلقاء الدرس بعد الشيخ أبى بكر الطرطوشى ، وانتفع الناس به » .

وظل سند بن عنان يدرس إحدى وعشرين سنة بعد وفاة أستاذه الطرطوشى إلى أن توفى سنة ٥٤١ ﻫ ، ودفن بالقرب من قبر الطرطوشى ، ولا زال مسجد سيدى سند بن عنان موجوداً حتى اليوم فى شارع الباب الأخضر (أو شارع السكة الجديدة) بالإسكندرية .

أبو الطاهر بن عوف

إسماعيل بن مكى

(٤٨٥ — ٥٨١ هـ) = (١٠٩٢ — ١١٨٥ م)

أول أستاذ

لأول مدرسة فى الإسكندرية الإسلامية

محاضرة الأستاذية

ألقاها

الدكتور جمال الدين الشيال

أستاذ كرسى التاريخ الإسلامى بجامعة الإسكندرية

مارس سنة ١٩٥٧

أول أستاذ

لأول مدرسة فى الإسكندرية الإسلامية

مقدمة

السيد عميد كلية الآداب

حضرات الزملاء الأعزاء

أيها السادة والسيدات :

كلمتى الأولى فى هذا المجال تحية طيبة مباركة أرفعها إلى روح أستاذنا الجليل المرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادى أستاذ التاريخ الإسلامى السابق بهذه الكلية .

شغل الأستاذ رحمه الله هذا الكرسى عشر سنوات منذ افتتحت جامعة الإسكندرية فى سنة ١٩٤٢ إلى أن أحيل إلى المعاش فى سنة ١٩٥٢ ، وقد بدأت صلتى به منذ أن كنت أتتلمذ عليه فى جامعة القاهرة ، ثم توثقت هذه الصلة بعد تخرجى ، فكنت دائم التردد عليه ، والاتصال به والانتفاع بعلمه ، إلى أن رشحنى — رحمه الله — للنقل إلى جامعة الإسكندرية فى سنة ١٩٤٣ والعمل معه ، وتحت إرشاده أعددت رسالتى الماجستير والدكتوراه .

وأشهد أن الخطب كان فادحاً وأن الخسارة كانت كبيرة بفقد الأستاذ العبادى ، أحس بها تلاميذه وأصدقاؤه ، وأحست بها الجامعات المصرية ، بل أحس بها العالم العربى كله ، فقد فقدنا بفقده مؤرخاً ثبتاً جليلاً كان له أثر خطير فى تطوير التاريخ الإسلامى ودراساته ، فقد كان التاريخ الإسلامى قبله حكاية تروى أو بيتاً من الشعر ينشد ، أو نكتة طريفة يستشهد بها ، فكان هو أول من أخضع هذا الفرع من فروع التـــاريخ لمناهج البحث العلمى الصحيح ، من رجوع إلى المصادر الأصيلة ، وفهم صحيح لنصوصها ، مع دراسة منهجية قائمة على النقد والتحليل والمقارنة والاستقراء ، تشهد بذلك كتبه وأبحاثه ومقالاته ، وتشهد بهذا

دروسه ومحاضراته التي أفاد منها تلاميذه في مختلف الجامعات والمعاهد التي درس بها[١].

وإني مع ألمي وحزني لفقد هذا الأستاذ الجليل لأشعر بالزهو أن قُدِّرَ لي أن أشغل كرسياً كان يشغله العالم الفذ المرحوم الأستاذ العبادي ، والله أسأل أن يوفقني إلى ترسم خطاه ، واتباع منهجه وملء بعض الفراغ الذي تركه .

أما محاضرة اليوم فهي محاولة لإحياء تقليد قديم ، تقليد عرفته المدارس الإسلامية في العصور الوسطى ، ثم عرفته الجامعات الأوربية الحديثة ، وها نحن أولاء نحاول الأخذ به في جامعاتنا المصرية الحديثة .

كان المتبع في المدارس الإسلامية في العصور الوسطى — وهي بمثابة الكليات الجامعية الحديثة — أن المدرس — وهو الأستاذ في مصطلحنا الحديث — يحتفل بعد تعيينه بدرسه الأول احتفالا خاصاً ، فيحسن اختيار موضوعه ، ويبذل الجهد في إعداده ، ويسارع الطلبة والعلماء إلى حضوره ، ويحرص على الاستماع إليه الصفوة من رجال الدولة ، بل قد يحضره السلطان نفسه أحياناً .

والجامعات الأوربية الحديثة تفعل اليوم شيئاً شبيهاً بهذا ، فإن كل أستاذ يرقى إلى كرسي من الكراسي يلقي محاضرة خاصة تسمى محاضرة الأستاذية .

أما نحن في جامعاتنا المصرية الحديثة فقد نسينا هذا التقليد القديم الحميد إلى أن فكر الأستاذ محمد خلف الله عميد كلية الآداب في إحيائه في جامعة الإسكندرية ، وبدأ بكلية الآداب ، وشاء القدر أن أكون أول من رقي للأستاذية[٢] فدعيت لإلقاء هذه المحاضرة ، محاضرة الأستاذية .

أيها السادة :

عندما دعيت لإلقاء هذه المحاضرة أخذتني الهيبة وتملكتني الرهبة ، فإن الهالة التي أحيطت بها المحاضرة جعلتني أفكر وأفكر طويلا ، إنها محاضرة الأستاذية ، وسألت زملائي وإخواني عن التقاليد المتبعة في الجامعات الأوربية المختلفة ، وأي الموضوعات يختارها الأستاذ عادة عند إلقاء مثل هذه المحاضرة ؟

---

(١) درس رحمه الله في الجامعات والمعاهد الآتية : كليات الآداب بجامعات القاهرة والإسكندرية وعين شمس ، الجامعة الأزهرية ، مدرسة المعلمين العالية ببغداد ، معهد الدراسات العربية العليا التابع لجامعة الدول العربية .

(٢) رقيت إلى كرسي التاريخ الإسلامي في ٤ يونيو سنة ١٩٥٦ .

وعلمت أن التقليد فى بعض الجامعات أن يستعرض الأستاذ فى محاضرته جهوده العلمية السابقة، ثم يشير إلى أبحاثه التى لا يزال يعمل لاستكمالها ، وعلمت أن التقليد فى بعض الجامعات الأخرى أن يختار الأستاذ موضوعاً من الموضوعات التى يبحثها ويعرض فى محاضرته النتائج التى وصل إليها .

ورأيت أخيراً أن أختار موضوعاً أجمع — أثناء عرضه — بين التقليدين ، واخترت أن أتحدث إلى حضراتكم عن :

أول أستاذ لأول مدرسة فى الإسكندرية الإسلامية .

فهذا موضوع جديد لم يتعرض له أحد من قبل ، وقد وصلت فيه إلى نتائج أعتقد أنها تلقى أضواء جديدة على تاريخ التعليم فى الإسكندرية بل فى مصر كلها فى العصر الإسلامى الوسيط .

والموضوع إلى هذا له صلات وثيقة بالجهود العلمية والأبحاث التاريخية المتواضعة التى قمتُ بها حتى الآن، فأنا عنيت فى وقت ما بالتاريخ للترجمة والحركة الثقافية فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر [١] ومحاضرة اليوم وثيقة الصلة بالتاريخ الثقافى لمصر .

ثم عنيت بعد ذلك بالتأريخ لبعض المدن المصرية فى العصر الإسلامى ، فكتبت تاريخاً مختصراً لمدينة دمياط [٢] وتاريخاً موجزاً لمدينة الإسكندرية [٣] وموضوع اليوم يبحث فى لون من ألوان الحياة فى مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، ويعرف بأول مدرسة إسلامية أقيمت فيها .

ومنذ سنوات طويلة أخذت نفسى بجمع الوثائق الرسمية لمصر الإسلامية ونشرها مع دراستها دراسة تحليلية مقارنة لبيان أهميتها كمصدر جديد من مصادر التاريخ الإسلامى [٤] ومحاضرة اليوم ذات صلة وثيقة بهذا الميدان من ميادين البحث ، لأننى

---

(١) انظر : جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية ، القاهرة ١٩٥٠ ، نفس المؤلف : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ، القاهرة ١٩٥١ .

(٢) جمال الدين الشيال : مجمل تاريخ دمياط ، الإسكندرية ١٩٤٩ .

(٣) جمال الدين الشيال : الإسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، القاهرة ١٩٥١ .

(٤) انظر : — Shayyal (Gamal El-Din) : The Fatimid Documents as a Source for the History of the Fatimids and their Institutions, (Bulletin of the Faculty of arts, Alexandria University, vol. VIII, 1954, p. 1-12).==

اعتمدت فيها اعتماداً كبيراً على دراسة وثيقة رسمية من العصر الفاطمى هى سجل بتعيين هذا الأستاذ الأول لهذه المدرسة الأولى .

ومنذ عنيت بتاريخ الإسكندرية عنيت كذلك بالتأريخ لأعلام الفكر الإسلامى الذين عاشوا فيها ، وأنا الآن فى سبيل إعداد كتاب[1] يؤرخ لهؤلاء الأعلام ، وللحياة الفكرية فى الإسكندرية فى العصر الإسلامى بوجه عام، ومحاضرة اليوم فيها تعريف مفصل بعلَم من هؤلاء الأعلام،وهو العالم المحدث أبو الطاهر بن عوف .

وميدان آخر من الميادين العلمية التى بذلت فيها بعض الجهد هو ميدان نشر الأصول التاريخية القديمة التى تؤرخ لمصر الإسلامية فى عصورها المختلفة وخاصة العصرين الفاطمى والأيوبى المملوكى ، فنشرت أربع كتب[2] لعميد مؤرخى مصر الإسلامية تقى الدين أحمد بن على المقريزى ، ونشرت الجزئين الأول والثانى من كتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب[3] لجمال الدين بن واصل ، ومحاضرة اليوم تلقى بعض الأضواء على تاريخ الإسكندرية فى أواخر العصر الفاطمى وأوائل العصر الأيوبى .

هذه هى الجهود العلمية التى بذلتها وما زلت أعمل فيها ، وهذه هى محاضرة

= جمال الدين الشيال : الوثائق الفاطمية مصادر جديدة لدراسة تاريخ الفاطميين (المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الخامس ، ١٩٥٦ ، ص ١٩١ ، ٢٠٣ .

– نفس المؤلف : مجموعة الوثائق الفاطمية ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٧ (مطبوعات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية) .

(١) وهذا هو الكتاب بين أيدى القراء الكرام .

(٢) هذه الكتب الأربعة التى نشرتها تحت عنوان " مكتبة المقريزى الصغيرة " هى :
تقى الدين أحمد بن على المقريزى :

١ – نحل عبر النحل ، القاهرة ١٩٤٦ .
٢ – اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا ، القاهرة ١٩٤٨ .
٣ – الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، القاهرة ١٩٥٥ .
٤ – إغاثة الأمة بكشف الغمة (بالاشتراك مع الدكتور محمد مصطفى زيادة) ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٤٠ ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧ .

(٣) جمال الدين محمد بن سالم بن واصل :

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٣ ، والجزء الثانى ، القاهرة ١٩٥٧ (مطبوعات وزارة التربية والتعليم المصرية ، إدارة الثقافة العامة ، إدارة إحياء التراث القديم) ، وأستطيع أن أضيف هنا أن الجزء الثالث طبع فى سنة ١٩٦١ .

اليوم ترون حضراتكم — كما سبق أن أشرت — أنها تتصل من أطرافها المختلفة بكل جهد من هذه الجهود .

أيها السادة :

بقى أن أذكر كلمة سريعة عن المصطلحيْن المذكوريْن فى عنوان المحاضرة وهما : كلمة « أستاذ » وكلمة « مدرسة » ، فأستاذ كلمة فارسية الأصل معناها الماهر فى كل صنعة ، وقد حُرِّفت فى اللغة العامية فأصبحت « أسطى » ، وذلك لأن اللغة العربية لا تعرف فى ألفاظها الجمع بين السين والذال لصعوبة النطق بهما معاً ، وكل كلمة جمع فيها بين هذين الحرفين إنما ترجع فى أصلها إلى اللغة الفارسية ، مثل كلمة « ساذج » التى حرفناها فى اللهجة العامية كذلك إلى « سادة ».

وقد أطلق لقب أستاذ[1] فى الأغلب الأعم على الجهابذة الأعلام من رجال الفكر والتعليم فى العصر الإسلامى الوسيط ، ثم جُدد استعماله بهذا المعنى فى جامعات مصر الحديثة .

أما المدرسة فهى مصطلح لم يعرفه العالم الإسلامى إلا فى القرن الخامس الهجرى (١١ م) ، فقد كان المسجد هو المعهد العلمى فى العصر الإسلامى الأول ، فى صحنه وفى أركانه تعقد حلقات العلم ويدرس الطلاب .

أما « المدرسة » باعتبار كونها مبنى مخصصاً للدرس يضم عدداً من الطلاب المتفرغين للدراسة ، وعدداً من المدرسين المتفرغين للتدريس ، على أن تكفل هؤلاء وأولئك الدولة أو مؤسس المدرسة ، فتصرف لهم الرواتب أو الجامكيات من إيراد أو وقف ثابت مخصص للمدرسة ، أقول إن مصطلح « المدرسة » بهذا المفهوم وبهذا المعنى لم يعرفه العالم الإسلامى إلا فى القرن الخامس الهجرى ، وخاصة عندما أنشأ نظام الملك — وزير السلطانين السلجوقيين ألب أرسلان وملك شاه — مدارسه النظامية ، وكانت أكبرها وأهمها نظامية بغداد .

---

(١) وقد استعمل هذا المصطلح فى مصر فى العصر الفاطمى بمعنى آخر ، فكان يطلق على كبار أمراء الجيش الذين يلون الوظائف الخاصة بالخليفة ، وكان الأساتذة على مراتب ، وأجلهم الأساتذة المحنكون ، وهم الذين يدورون عمائمهم على أحناكهم كما تفعل العرب والمغاربة ، وكان من عادتهم أنه إذا احتفل بتحنيك واحد منهم حمل إليه كل أستاذ من المحنكين بدلة كاملة من ثيابه وسيفاً وفرساً ، فيصبح لا حقاً بهم ، وفى يده مثل ما فى أيديهم . انظر : (صبح الأعشى ؛ ٣ ص ٤٧٧) .

ثم انتشرت حركة إنشاء المدارس فى الشام على أيدى الأتابكة — وخاصة نور الدين محمود بن زنكى — ، وفى مصر وما يتصل بها من بلدان على أيدى الأيوبيين والمماليك .

والذى نحب أن ننبه إليه الأذهان أن المدارس إنما أنشئت أول ما أنشئت لدوافع سياسية مذهبية ، لمحاربة المذهب الشيعى أولا ، وللدعوة للمذهب السنى ثانياً ، ويكفى لنستبين صدق هذه النظرية أن نعرف أن السلاجقة مؤسسى هذه الحركة كانوا سنة مغالين فى سنيتهم ، وأن الدول التى أكملت الحركة ورعتها وأنشأت العشرات من المدارس فى كل ركن من أركان الشرق الأوسط الإسلامى كانت دولا سنية كذلك .

بقى الآن بعد هذه التقدمة السريعة أن ننتقل إلى موضوع المحاضرة .

أبو الطاهر بن عوف
أول أستاذ
لأول مدرسة فى الإسكندرية الإسلامية

المعروف المتواتر أن حركة إنشاء المدارس فى مصر الإسلامية بدأت مع قيام الدولة الأيوبية فيها ، وذلك حينما أسس صلاح الدين يوسف بن أيوب وأفراد أسرته وكبار رجال دولته المدارس المختلفة فى الفسطاط والقاهرة وغيرهما من مدن مصر .

وكان صلاح الدين بإنشائه هذه المدارس يتبع سياسة موضوعة ، وينفذ خطة مرسومة للقضاء على المذهب الشيعى ، ونشر المذهب السنى ، مقتفياً فى ذلك سياسة أستاذه نور الدين محمود بن زنكى ، ففى سنة ٥٦٦ ﻫ أنشأ صلاح الدين — وهو بعد لا يزال وزيراً للخليفة الفاطمى العاضد — مدرسته الناصرية[1] الأولى فى الفسطاط لتدريس المذهب الشافعى ، يقول المقريزى فى حديثه عن هذه المدرسة : « وكان هذا من أعظم ما نزل بالدولة » ، ثم يعقب على هذا بقوله : « وهى أول مدرسة عملت بديار مصر » .

وهذه الجملة الأخيرة تحتاج إلى تحقيق وتصحيح ، ذلك أن ابن خلكان يقول فى ترجمته للعادل أبى الحسن على بن السلار — وزير الظافر الفاطمى — :

(وكان ظاهر التسنن ، شافعى المذهب ، ولما وصل الحافظ أبو طاهر أحمد السلفى إلى ثغر الإسكندرية المحروس وأقام به ، ثم صار العادل المذكور والياً به (أى بالثغر) ، احتفل به وزاد فى إكرامه وعمّر له هناك مدرسة فوض تدريسها إليه ، وهى معروفة به إلى الآن ، ولم أرَ بالإسكندرية

---

(١) فى نفس السنة التى أنشأ فيها صلاح الدين المدرسة الناصرية ، بل فى نفس الشهر (المحرم ٥٦٦) أنشأ مدرسة أخرى فى الفسطاط — وهى المدرسة القمحية — لتدريس المذهب المالكى ، ثم بنى بعد ذلك المدرسة السيوفية بالقاهرة فى سنة ٥٧٢ ﻫ ، ثم حذا حذوه أمراء أسرته ورجال دولته ، فأنشأ ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه مدرسته التقوية — أو منازل العز — فى الفسطاط لدراسة المذهب الشافعى ، كما أنشأ مدرستين أخريين فى الفيوم ، وبنى العادل أبو بكر — أخو صلاح الدين — مدرسته العادلية بالفسطاط وخصصها لدراسة المذهب المالكى، وهكذا ، راجع (المقريزى : الخطط ج ٤ ، ص ١٩٣ — ١٩٥) و (ابن دقماق : الانتصار ، ج ٤ ، ص ٩٣ — ٩٤) و (ابن جبير : الرحلة، ص ٤٢) . و (Enc. Isl. art : Masjid)

مدرسة للشافعيين سواها)[١] .

ومن الممكن أن يقال — اعتماداً على نص ابن خلكان هذا — أن ابن السلار — لا صلاح الدين — هو أول من أوجد المدارس بديار مصر ، وأن الإسكندرية هى أول مدينة مصرية عرفت المدارس ، وذلك لأن ابن السلار كان — كما يذكر ابن خلكان — سنياً شافعياً ، كما كانت له اتصالات سياسية بنور الدين محمود ابن زنكى فى الشام[٢] .

ونحن نستطيع أن نقول إن قول ابن خلكان لا يزال يحتاج — كما احتاج قول المقريزى — إلى تحقيق وتصحيح .

حقيقة إن الإسكندرية كانت أول مدينة مصرية عرفت المدارس ، ولكن مدرسة السلفى لم تكن أول مدرسة أنشئت فى الإسكندرية ، وإنما سبقتها مدرسة أخرى هى المدرسة الحافظية التى أنشأها رضوان بن ولخشى — وزير الخليفة الحافظ الفاطمى — للفقيه المالكى أبى الطاهر بن عوف ، وقد بنيت هذه المدرسة الحافظية قبل المدرسة السلفية باثنتى عشرة سنة ، فقد بنيت الأولى فى سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ — ١١٣٨ م) ، وبنيت الثانية فى سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) .

ورغم ما لهذه المدرسة الحافظية من أهمية بالغة ، لكونها أول مدرسة أنشئت فى الإسكندرية ، بل فى مصر كلها ، فإن أحداً من المؤرخين القدامى أو المحدثين لم يشر إليها أو يعنى بالتأريخ لها .

وأبو طاهر بن عوف هو إسماعيل بن مكى بن إسماعيل بن عيسى بن عوف الزهرى ، وينتهى نسبه إلى عبد الرحمن بن عوف الصحابى الجليل ، وقد كان

---

(١) (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٢ ، ص ٧٦ — ٧٧ — ترجمة ابن السلار) وانظر أيضاً : (عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى الأول ، ص ٨٢ ، ١٥٨ و (المقريزى : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٣ ب) ، ولترجمة السلفى انظر : (السبكى : طبقات الشافعية ج ٤ ، ص ٤٣) و (السيوطى : طبقات الحفاظ ، ج ٢ ص ٣٩) و (السيوطى : طبقات المفسرين ، ص ٥٦) و (السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٥) و (الذهبى : تذكرة الحفاظ ج ٤) و (ابن العماد : شذرات الذهب) .

(٢) انظر : (أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ٧) ، ويقول (حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ، ص ٢٩٦) إن النزاع بين ابن السلار وابن مصال فى سبيل الوزارة إنما كان فى الحقيقة نزاعا بين السنيين والشيعيين ، وكان ابن السلار يطمع فى مساعدة نور الدين ، ذلك الرجل السنى المتعصب لمذهبه ، لنشر مذهب أهل السنة فى مصر بدل مذهب الشيعة .

شيخ المالكية فى مدينة الإسكندرية طوال القرن السادس الهجرى (١٢ م) دون منازع ، فقد ولد سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) وتوفى سنة ٥٨١ هـ[١] (١١٨٥ م) عن ست وتسعين سنة .

وصفه السيوطى بأنه (صدر الإسلام)، وقال إنه تفقه على أبى بكر الطرطوشى[٢] وسمع منه ، وتخرج به الأصحاب[٣] .

وقال أبو الحسن على بن الحميرى :

(كان ابن عوف — رحمه الله تعالى — إمام عصره وفريد دهره فى الفقه على مذهب مالك رحمه الله ، وعليه مدار الفتوى ، وجمع إلى ذلك الورع والزهد ، وكثرة العبادة ، والتواضع التام ، ونزاهة النفس)[٤] .

وقال عالم الإسكندرية ومؤرخها منصور بن سليم[٥] :

---

(١) (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٠٠) و (السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٩٢) .

(٢) راجع ترجمة الطرطوشى فى : (ابن فرحون : الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ ، ص ٢٧٦ — ٢٧٨) و (ابن بشكوال : كتاب الصلة ، مجريط ، ١٨٨٣ ، ج ٢ ، ص ٥١٧ — ٥١٨) و (المقرى : نفح الطيب) و (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ص ٣٩٣ — ٣٩٥) و (ياقوت : معجم البلدان ، مادة : طرطوشة) و (الحميرى : صفة جزيرة الاندلس — عن كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار — ، نشر بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ١٢٤ — ١٢٥) و (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٣١ — ٢٣٢) و (السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٩٢) و (الزركلى : الأعلام) و (المقريزى : اتعاظ الحنفا ، مخطوطة طوب قبو سراى ، ص ١٢٤ أ — ١٢٥ أ) و (المرتضى الزبيدى : اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين ، المطبعة الميمنية ، ١٣١١ ، المقدمة) و (ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ٧٤ — ٧٥) و (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ٩٠) و (الضبى : بغية الملتمس ، رقم ٢٩٥) و (الطرطوشى : سراج الملوك) و (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٧ ، ص ٧٠) و (جمال الدين الشيال : الإسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ٢١٧) ، والفصل الخاص بالطرطوشى فيما سلف هنا ، و

(M. Ben Chaneb : Etudes sur Les Personnages Mentionnés, dans l'Idjaza du Cheikh Abd Al-Qadir el Fasy, Paris 1907, p. 169-170).

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٩٢ .

(٤) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٩٥ .

(٥) هو أبو المظفر وجيه الدين منصور بن سليم بن منصور بن فتوح الهمذانى الإسكندرى ، محتسب الإسكندرية ، ولد فى ثامن صفر سنة ٦٠٧ هـ ، وأخذ عن الكثيرين ، ورحل إلى الشام والعراق ، واعتنى بالحديث والفقه والرجال والتاريخ ، وجمع لنفسه معجما ، وكتب تاريخا كبيراً لمدينة الإسكندرية ، ذكر السبكى والذهبى أنه كان فى مجلدتين، وذكر السخاوى أنه كان فى أربع مجلدات، توفى فى الحادى والعشرين من شوال سنة ٦٧٣ هـ، وتاريخه لمدينة الإسكندرية مفقود — للأسف الشديد — ، وقد كنت عثرت منذ سنوات فى (فهارس المخطوطات العربية بمكتبة أيا صوفيا باستانبول ، ١٣٠٤ هـ) على ما يفيد وجود نسخة خطية من هذا الكتاب بهذه المكتبة فى جزئين تحت رقمى ٣٠٠٣ و ٣٠٠٤ ، وبادرت فى ذلك الحين بالكتابة إلى =

« كان (ابن عوف) من العلماء الأعلام ، ومشايخ الإسلام ، ظاهر الورع والتقوى ، كتب عنه الحافظ السِّلَفى ، وروى عنه شرف الدين ابن المقدسى »[١] .

وبيت ابن عوف بيت مصرى سكندرى أصيل، نبغ فيه أكثر من عالم ملأوا المدينة علماً ، قال منصور بن سليم :

« وبيت ابن عوف بثغر الإسكندرية بيت كبير شهير بالعلم ، كان فيه جماعة من الفقهاء ، قال الشيخ شهاب الدين بن هلال: سمعت أنهم اجتمع منهم سبعة فى وقت واحد، وكانوا إذا دخلوا على الإمام أبى على سند بن عنان[١] – مؤلف كتاب الطراز – يقول: « أهلا بالفقهاء السبعة » ، تشبيهاً لهم بالفقهاء السبعة أئمة المدينة النبوية »[٢] .

وتذكر المراجع أن واحداً من أبناء أبى الطاهر بن عوف اشتغل بالتأليف، واسم هذا الابن نفيس الدين أبو الحرم مكى، وقد ألف شرحاً عظيما على التهذيب لأبى سعيد البرادعى، ويعرف هذا الشرح بالعوفية، ويقع فى ستة وثلاثين مجلداً ، قال ابن فرحون رواية عن شهاب الدين بن هلال :

« وكان يقيده على دروسه التى كان يلقيها فى المدرسة العوفية » .

ويفهم من هذا أن الابن كان يدرس فى مدرسة أبيه .

وقد ذكر ابن هلال أنه اطلع على مجلدة من مجلدات هذا الكتاب، وأن نسخة كاملة منه كانت محفوظة فى خزانة سلطان فاس بالمغرب ، قال :

« ولما قدم من المغرب ابنا الإمام أبى زيد وأخوه نسخاه ، وأنفقا على

= المستشرق الألمانى ريتر Ritter وكان يقيم حينذاك فى استانبول – أستوضحه حقيقة هذه المخطوطة ، ولكنه كتب إلى يقول إن الكتاب مفقود ، وإن الكتاب الموجود مكانه ، والذى يحمل رقمه ، هو « قصة الإسكندر الرومانى وسياحاته ودخوله فى الظلمة باحثاً عن ماء الحياة » ، وللتعريف بمنصور بن سليم راجع : (الذهبى : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، مخطوطة دار الكتب المصرية وفيات سنة ٦٧٣ ، ص ٣٩٦) و (الذهبى : تذكرة الحفاظ ، ج ٤ ، ص ٢٤٩) و (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٤١) و (السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٥ ، ص ١٥٧) و (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٤٧) و (المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ٦١٩) و (السخاوى : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ١٢٢) و (حاجى خليفة : كشف الظنون) و (الشيال : الإسكندرية ، ص ٢٠٦ – ٢٠٧) و (السلامى : منتخب المختار ، نشر العزاوى ، بغداد ، ١٩٣٨ ، ص ٢٢٩ – ٢٣١) و (Brockelmann : Geschichte der Arabichen Litteratur, Supp. vol I, p. 573-574).

(١) انظر الفصل السابق .

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٩٥ .

نسخه مالاعظيما ، وهو الآن فى خزانة سلطان فاس بالمغرب ، وبه نسخة وقف ، وهى التى بخط المؤلف ، أخذت فى تركة بيبرس الجمدار نائب السلطنة بالثغر المحروس لما عُزل، وبيعت بالقاهرة المحروسة ، فاشتراها قاضى القضاة الأخنائى المالكى ، وهو كتاب نفيس إلى الغاية ، ووقفت على مجلدة قد نسخت منها ، قبل إنها من تجزئة خمسين مجلداً فى أسفار كبار ، فعددت خمسة كراريس ونصفاً فى مسطرة سبعة وعشرين سطراً فى الكلام على سجود التلاوة فقط [١] » .

وأشارت المراجع إلى حفيد من أحفاد أبى الطاهر بن عوف ووصفته بالزهد والورع ، فقد ذكر المؤرخ الدمشقى أبو شامة فى كتابه « الذيل على الروضتين » أن الشيخ الإمام الزاهد الورع رشيد الدين عبد العزيز بن محمد بن الطاهر المعروف بابن عوف « من ذرية عبد الرحمن بن عوف صاحب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومن فقهاء الإسكندرية ومفتيها فى مذهب مالك بن أنس — رحمه الله » ، وقال إنه وفد على دمشق — لشغل عرض له — وأنه وصلها يوم الثلاثاء تاسع شعبان سنة ٦٢٦ هـ ، واستطرد فقال إنه اجتمع به ، قال :

« واجتمعت به الغد من مجيئه بالمدرسة العادلية مع شيخنا أبى عمر ، وحكى لنا أن عمره إذ ذاك ستون سنة ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً — كصيام داود عليه السلام — ، وأتى معه بدقيق من الإسكندرية ، فلم يزل يأكل منه حتى رجع لا يتناول غيره [٢] » .

وقد أخذ ابن عوف عن الكثيرين من الفقهاء المالكية بالإسكندرية ، وخاصة عن أبى بكر الطرطوشى ، ولا عجب فى هذا ، فقد كان ابن عوف ربيب الطرطوشى ، وكان الطرطوشى تزوج خالة ابن عوف [٣] .

وشهد أبو الطاهر بن عوف نهاية الدولة الفاطمية الشيعية وقيام دولة صلاح الدين فى مصر فى سنة ٥٦٧ هـ ، وقد زار صلاح الدين الإسكندرية فى سنة

---

(١) ابن فرحون : الديباج ، ص ٩٥ — ٩٦ .
(٢) أبو شامة : الذيل على الروضتين ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١٥٦ .
(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٩٦ .

٥٧٧ هـ ، وحرص فى هذه الزيارة أن يحضر هو وأولاده وكبار رجال دولته دروس أبى الطاهر بن عوف ، وسمعوا عليه جميعاً « موطأ مالك » بروايته عن أستاذه الطرطوشى .

روى خبر هذه الزيارة وهذا السماع العماد الأصفهانى ، فقد كان مصاحباً لصلاح الدين فيهما ، قال :

« وتوجه السلطان بعد شهر رمضان (٥٧٧ هـ) إلى الإسكندرية على طريق البحيرة وخيَّم عند السوارى ، وشاهد الأسوار التى جددها والعمارات التى مهَّدها ، وأمر بالإتمام والاهتمام ، وقال السلطان : نغتنم حياة الشيخ الإمام أبى طاهر بن عوف ، فحضرنا عنده ، وسمعنا عليه موطأ مالك — رضى الله عنه — بروايته عن الطرطوشى فى العشر الأخيرة من شوال ، وتمَّ له ولأولاده ولنا به السماع [١] » .

واعتقد الجميع أن صلاح الدين قد حصَّل خيراً كثيراً بتتلمذه على ابن عوف وسماعه منه ، فقد أرسل القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى رسالة جميلة بليغة إلى صلاح الدين يهنئه فيها بهذا السماع ، ويقارن فيها بين رحلة صلاح الدين مع ولديه لسماع الموطأ على ابن عوف ، ورحلة هارون الرشيد مع ولديه لسماع نفس الكتاب على مؤلفه الإمام مالك ، وفيما يلى نص الرسالة :

« أدام الله دولة المولى الملك الناصر ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيي دولة أمير المؤمنين ، وأسعد برحلته للعلم وأثابه عليها ، وأوصل ذخائر الخير إليه ، وأوزع الخلق شكراً لنعمته فيه فإنها نعمة لا توصل إلى شكرها إلا بإيزاعه ، وأودع قلبه نور اليقين فإنه مستقر لا يودع فيه إلا ما كان مستنداً إلى إيداعه ، ولله فى الله رحلتاه ، وفى سبيل الله يوماه ، وما منهما إلا أغر محجل .

والحمد لله الذى جعله ذا يومين : يوم يسفك دم المحابر تحت قلمه ، ويوم يسفك دم الكافر تحت علمه ، فى الأول يطلب حديث المصطفى — صلى الله عليه وسلم — فيجعل أثره عيناً لا تستر ، وفى الثانى يحفل

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

لنصرة شريعة هداه على الضلال فيجعل عينه أثراً لا يظهر .

وقد استغرق الناس هم العلماء فى رحلتهم لنقل الحديث وسماعه، والموالاة فى طلب ثقته وانتجاعه، وصنفوا فى ذلك تصانيف قصدوا بها التحريض للهمم والتنبيه ، والرفع من أقدار أهله والتنويه، فقالوا : رحل فلان لسماع مسند فلان، وسار زيد إلى عمرو على بُعْد المكان، هذا وصاحب الرحلة قد نصب نفسه للعلم وشغل به دهره ، ووقف عليه فكره، فلا يتجاذب عنان همته الكبائر فما القول فى ملك خواطره كأبوابه مطروقة ، وأمور خلق الله كأمور دينه به معذوقة، إذ هاجر إلى بقية الخير فى أضيق أوقاته ، وترك للعلم أشد ضروراته، ووهب له أياماً مع أنه فى الغزاة يحاسب لها نفسه على لحظاته وساعاته .

وما يحسب الملوك أن كاتب اليمين كتب لملك رحلةً فى طلب العلم إلا للرشيد هارون — رحمة الله عليه — ، على أنه خلط زيارة نبوية[1] بطلب، ورحل بولديه إلى مالك — رحمة الله عليه — لسماع هذا الموطأ ، الذى اتفقت الهمتان الرشيدية والناصرية على الرغبة فى سماعه، والرحلة لانتجاعه، وقد كان الرشيد سام مالكاً — رحمه الله — أن يجعل له ولولديْه : الأمين والمأمون مجلساً خاصًّا لإسماع مصنفه، فقال له ما معناه: إنها سُنَّةُ ابن عمك — صلى الله عليه وسلم — ، وغيرُك من سترها، ومثلُك من نشرها ، فهذه رحلة ثانية فى الزمان ، وأولى فى الإيمان، يكتبها الله للمولى بقلم كاتب اليمين، ويقوم فيها مقام الرشيد، ويقوم عليُّه وعثمانُه[2] مقام ولديه المأمون والأمين . وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد على مالك رحمة الله عليه — فى خزانة الكتب المصرية[3] فإن كان قد حصل بالخزانة الناصرية

---

(١) الأصل : زيادة نبوته ، وما هنا قراءة ترجيحية .

(٢) يقصد ولدى صلاح الدين : الأفضل على ، والعزيز عثمان ، فهما اللذان كانا معه فى هذه الرحلة وسمعا معه الموطأ على ابن عوف ، وكان عمر الأول وقتذاك اثنتى عشرة سنة ، فقد ولد سنة ٥٦٥ هـ ، وكان عمر الثانى عشر سنوات ، فقد ولد سنة ٥٦٧ هـ انظر (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٦) و (ابن تغرى بردى: النجوم ، ج ٦ ، ١٢٧) و (المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٤٤ و ١٩١) .

(٣) يقصد خزائن الكتب الفاطمية التى كانت ملحقة بالقصر الشرقى الكبير ، وقد استولى عليها صلاح الدين فيما استولى عليه من ذخائر الفاطميين ومخلفاتهم، وقد منح بعض هذه الكتب لخاصته ، وأمر =

فهو بركة عظيمة ، ومنقبة كريمة ، وذخيرة قديمة وإلا فليلتمس .
وكذلك خطُّ موسى بن جعفر فى فتيا المأمون — رحمهما الله — كان أيضاً فيها ، وكلاهما يتبرك بمثله ، ويعلم به فضل العلم ، لا خلا المولى — أبقاه الله — من فضله .
وقف المملوك على ما بشر من صنع المولى وتوفيقه ، وصحة مزاجه فى طريقه ، وانقطاع ما كان من دم ، واستراوح القلب من كل هم ، وقد استفتحت هذا الطريق بكل قال ، مباركة البكر والفال ، مأثورة عن سيد البشر ، فمن ذلك صحة جسمه ، فلتهنه الصحة ، وفسحة قلبه ، دامت له الفسحة ، وانقطاع الدم ، وطريقه إلى الشام ينقطع بها الدم ، ويتصل النصر له وينتظم السلم ، وأخرى أنه رحل إلى الموطأ رحم الله مالكه ، ويرحل فيما يطلب من الشام إلى الموطأ أسعد الله به ممالكه ، والله تعالى يحقق الخير ، ويصرف الضير ، ويبارك لمولانا فى المقام والسير إن شاء الله »[١] .

وأصبحت لابن عوف عند صلاح الدين منذ ذلك الحين مكانة كبيرة ، يجله ويحترمه ، ويقدره ويوقره ، وإذا اعترضته مشكلة من مشاكل الدين أو الدولة أرسل إليه يسأله الرأى والفتوى ، يؤكد هذا قول ابن فرحون :

« وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يعظِّم ابن عوف ويراسله ويستفتيه » .

وقد روى الصفدى فى كتابه « نكت الهميان » قصة مراسلة من هذه المراسلات عند ترجمته للقاضى شرف الدين عبد الله بن أبى عصرون ، فقد أضرَّ هذا القاضى آخر عمره أثناء توليه القضاء ، وثار الجدل حول جواز بقائه فى منصبه بعد إصابته بالعمى ، وكان ابن أبى عصرون نفسه حريصاً على أن يظل قاضياً ، فألف رسالة أيَّد فيها جواز أن يكون القاضى أعمى ، وهو رأى تقول به القلة من الفقهاء وترفضه

= ببيع الباقى ، والنص هنا يفيد حقيقة جديدة لم يشر إليها أحد ممن كتب عن هذه الخزائن ، وهى أن صلاح الدين ضم بعض هذه الكتب إلى خزانة الكتب الخاصة به ، ويسميها النص هنا « الخزانة الناصرية » ، وعن خزانة الكتب الفاطمية انظر : (المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ — ٢٥٥) و (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٠٣) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٠) .

(١) أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٤ — ٢٥ .

الكثرة ، ويبدو أن صلاح الدين كان حريصاً على إرضاء ابن أبي عصرون وعدم المساس بشعوره فى شيخوخته ، فأرسل يستفتى ابن عوف فى الأمر ، قال الصفدى :

« وكتب السلطان صلاح الدين بخطه إلى القاضى الفاضل يقول فيه :

إن القاضى قال : إن قضاء الأعمى جائز ، فتجتمع بالشيخ أبى الطاهر ابن عوف الإسكندرى، وتسأله عما ورد من الأحاديث فى قضاء الأعمى»[١].

وكان صلاح الدين يستجيب لرأى ابن عوف ومشورته ، فقد أسرع بتلبية رغبته عندما أشار عليه بإعادة ضريبة الصادر ، وهى ضريبة كانت تفرض على تجارة الفرنج الصادرة من الإسكندرية ، وتوزع حصيلتها على فقهاء الثغر ، قال ابن فرحون :

« وقيل إنه (أى ابن عوف) كان السبب فى تجديد الصادر[٢] بثغر الإسكندرية ، وهو شىء وظفه السلطان على تجار النصارى إذا صدروا من الإسكندرية ، زائداً على العشر ، رتبه لفقهاء الثغر دنانير تصرف فى كل شهر ، وجعل له ناظراً وشهوداً ، أوقفه عليهم وعلى ذريتهم »[٢] .

وقد أشارت المراجع إلى أن نشاط ابن عوف لم يكن مقصوراً على التدريس وحسب ، بل كان له نشاط مماثل فى ميدان التأليف ، فقد قال السيوطى : « وله مؤلفات » ، وقال ابن فرحون : « وله مصنفات » ، ثم أشار إلى اثنين من هذه المصنفات ، قال :

« قال ابن هلال : رأيت له مجلداً فى الرد على المتنصِّر، وهو رجل

---

(١) الصفدى : نكت الهميان ، ص ١٨٥ ، وراجع أيضاً مقدمة الكتاب ص ٦٠ فقد ناقش فيها هذا الموضوع من الناحية الفقهية ، انظر كذلك : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ — ٢٥٩) و (ابن واصل : مفرج الكروب ،نشر الشيال ، ج ٢ ، ص ١١٢) .

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٩٦ ، هذا وقد كان فى الإسكندرية فى تلك العصور ساحة أو مخازن كبيرة لتجارة الفرنج الصادرة مقابل الميناء الشرقية ، وتسمى هذه الساحة بالصادر وقد أشار إلى الصادر المؤلف السكندرى محمد بن القاسم بن محمد النويرى فى كتابه الذى لا يزال مخطوطا : « الإلمام بالأعلام بما جرت به الأحكام المقضية» عند وصفه لموكب السلطان الأشرف شعبان عند زيارته للإسكندرية فى سنة ٧٧٠ هـ فهو يقول إن السلطان بعد دخوله من باب رشيد سار فيما كان يسمى وقتذاك بالمحجة العظمى ، وهو ما نرجح أن يكون شارع فؤاد الأول الحالى أوالطريق الكانوبى القديم —، ثم مر بمسجد أبى الأشهب وعطف عطفته فمر على دارابن الحباب ومنها إلى جفار القصارين إلى الصادر إلى أن خرج من باب البحر ، فالصادر تبعاً لهذا كان قريباً من باب البحر ، أى قريباً من منطقة المنشية الحالية ومن الميناء الشرقية . راجع : (الشيال الإسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها ، ص ٢٣٧) .

يدّعى العلم وليس من أهله ، صنّف كتاباً أسماه : « الفاضح » وأعتقد أنه نقض به الشريعة المحمدية ، وادعى فيها تناقضاً فى الأحكام ، وكان جاهلا مصحِّفاً ، فمما صحّف قوله — صلى الله عليه وسلم — « ثمرة طيبة وماء طهور » بقوله « خمرة طيبة » ، وقال : انظر كيف يقول « خمرة طيبة » وهو يحرِّم شرب الخمر .

وللشيخ أبى الطاهر تذكرة التذكرة فى أصول الدين ، وغير ذلك من التآليف[١] » .

هذا هو ابن عوف ، أما مدرسته فلم أجد إشارة لها إلا عند المقريزى ، فقد قال فى كتابه « اتعاظ الحنفا » فى حوادث سنة ٥٣٢ ﻫ :

« وفيها بنى الوزير رضوان المدرسة المعروفة فى ثغر الإسكندرية ، وجعل فى تدريسها الفقيه أبا طاهر بن عوف[٢] .

فتكون بذلك أول مدرسة أنشئت فى مدينة الإسكندرية ، بل فى مصر كلها ، فقد سبقت المدرسة السلفية باثنتى عشرة سنة .

وقد عثرت لحسن الحظ فى « صبح الأعشى » على السجل الصادر من الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى بتعيين ابن عوف مدرساً لهذه المدرسة ، وهو سجل ذو أهمية كبرى لأنه السجل الوحيد الذى وصلنا من العصر الفاطمى كله بتعيين مدرس ، وهو إلى هذا يتضمن معلومات جديدة عن هذه المدرسة التى لا نكاد نعرف عنها شيئاً .

— فهو يسميها « بالمدرسة الحافظية » نسبة إلى الخليفة الحافظ الذى أنشئت المدرسة فى عهده ، وإن كانت المدرسة بعد ذلك قد غلبت عليها شهرة مدرسها فعرفت فى المراجع المتأخرة باسم « المدرسة العوفية[٣] » .

وهو يحدد اسم الشارع الذى أنشئت فيه المدرسة وهو « شارع المحجة » فقد قال : « وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر المحروس بشارع المحجة » .

---

(١) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٩٦ .
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، مخطوطة سراى ، ص ١٣٨ ب .
(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٩٦ .

وقد حققنا فيما سلف هنا موقع هذا الشارع اعتماداً على نص للنويرى ذُكر فيه شارع المحجة ، ورجحنا أنه شارع فؤاد الأول الحالى[١] .

— وهو يذكر أن الوزير السيد الأجل (ولم يذكر اسمه) هو الذى أشار بإنشاء المدرسة ، ويشير إلى الأسباب التى دعت إلى إنشائها فيقول :

« ولما انتهى إلى أمير المؤمنين ميزة ثغر الإسكندرية — حماه الله تعالى — على غيره من الثغور . . وهو يشتمل على القراء والفقهاء ، والمرابطين والصلحاء ، وأن طالبى العلم من أهله ومن الواردين إليه أو الطارئين عليه ، متشتتو الشمل ، ومتفرقو الجمع ، أبى أمير المؤمنين أن يكونوا حائرين متلددين ، ولم يرضَ أن يبقوا مذبذبين متبددين ، وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر المحروس منّاً عليهم وإنعاماً ، ومستقراً لهم ومقاماً ، ومثوى لجميعهم ووطناً ، ومحلا لكافتهم وسكناً » .

ويشير السجل أيضاً إلى أن المدرسة بنيت بحيث تتخذ — إلى جانب التدريس — مأوى للطلاب وسكناهم ، فهى قد جعلت كما يقول النص : « مثوى لجميعهم ووطناً ، ومحلا لكافتهم وسكناً » .

ونُص فى السجل أيضاً على أن يصرف للطلبة مؤنتهم وكل ما يقوم بأودهم ويعينهم على التفرغ للدراسة « من عيش وغلة » ، وأن يطلق هذا كله من ديوان الخليفة .

وأشير فى السجل إلى إسناد التقدمة فى المدرسة ، أى الإشراف عليها للفقيه الرشيد جمال الفقهاء أبى الطاهر (ولم ينص على اسمه) ، وعلل هذا الاختيار مخاطباً الفقيه بقوله :

« لنفاذك واطلاعك ، وقوتك فى الفقه واستضلاعك ، ولأنك الصدر فى علوم الشريعة ، والحال منها فى المنزلة الرفيعة ، والمشعل الذى اجتمع له الأصول والفروع ، ومن إذا اختلف فى المسائل والنوازل كان إليه فيها الرجوع ، هذا مع ما أنت عليه من الورع والتقوى » .

---

(١) انظر مافات هنا ص ١٢٠ ، هامش ٢ .

وحدَّد السجلُّ الموادَّ التى تدرس بهذه المدرسة ، فقال إنها « علوم الشريعة » .
وعهد السجل إلى الفقيه ابن عوف — إلى جانب التدريس — بالإشراف التام على شئون الطلاب ، وتوزيع المطلق عليهم ، وترك له الحرية التامة أن يقرب منهم من ارتضى طريقته ، وأن يبعد من ينكر قضيته .
ثم هو يوصى كبار الموظفين بالثغر من « الأمير المظفر ، والقاضى المكين ، وكافة الحماة والمتصرفين ، والعمال والمستخدمين برعاية هذه المدرسة ، ومن احتوت عليه من الطلبة وإعزازهم ، والاشتمال عليهم ، والاهتمام بمصالحهم ، والتوخى على منافعهم » .
وفى ختام السجل نصٌّ طريف يشير إلى أن الأمر بتعيين المدرسين كان يُتلى أولا على الكافة بالمسجد الجامع ، فهذه هى طريقة الإعلان والنشر الممكنة فى تلك العصور ، ثم يخلَّد هذا السجل — أى يُحفَظ — بالمدرسة ، ليكون « حجة بما تضمنه » .

فهذه كلها أمور هامة خطيرة تقدم مادة جديدة قيمة للباحثين الذين يريدون تأريخاً جديًّا نافعاً للمدارس الإسلامية ، أو لنظام التربية والتعليم بوجه خاص فى مصر الإسلامية .
والسجل كما أورده القلقشندى فى « صبح الأعشى » ذُكر على أنه « سجل بتدريس » ولم ينُص على اسم الخليفة ، أو الوزير ، أو المدرس الذى صدر الأمر بتعيينه ، وكاتب الإنشاء الذى كتبه ، أو التاريخ الذى كتب فيه .
وقد استطعنا نحن — عن طريق الدراسة التاريخيةالتحليلية المقارنة — أن نملأ هذه الثغرات ، وأن نقول مطمئنين إنه صدر عن الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله ، بإشارة من الوزير رضوان بن ولخشى ، بتعيين الفقيه أبى الطاهر بن عوف مدرساً للمدرسة الحافظية بثغر الإسكندرية .
ففى السجل إشارة غامضة تشير إلى أنه صدر فى عهد الحافظ ، فقد جاء فى صدر السجل : « أمير المؤمنين لما منحه الله من الخصائص التى جعلته لدينه حافظا » وجاء فى السياق : « وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية » .

أما الوزير الذى أشار ببناء المدرسة فإن اسمه لم يذكر صراحة فى السجل ،

وإنما ذكر بألقابه ، فقيل : « السيد الأجل الأفضل » ، وقد تحققنا أن هذه ألقاب رضوان بن ولخشى ، فقد قال المقريزى فى حوادث سنة ٥٣١ هـ عند حديثه عن تولى رضوان الوزارة للحافظ : « وخلع عليه خلع الوزارة يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى ، ونعت بالسيد الأجل الملك الأفضل[١] » .

أما الدافع الذى دفع الوزير رضوان إلى إنشاء هذه المدرسة الأولى لابن عوف الفقيه السنى المالكى فواضح غاية الوضوح ، وذلك أن رضوان نفسه كان — رغم وزارته لخليفة فاطمى شيعى — سنياً ، قال المقريزى فى ترجمته له : « وكان رضوان سنياً حسن الاعتقاد[٢] » . وقال فى موضع آخر : « وأخذ (رضوان) يهين حواشى الخليفة إذا حضروا إليه ، ويقدح فى مذهبه ، لأنه كان سنياً ، وكان أخوه الأوحد إبراهيم إمامياً[٣] » .

وجاء فى السجل إشارة إلى أن المدرس المقصود هو أبو الطاهر بن عوف ، وإن كانت قد ذكرت كنيته دون اسمه ، قال : « واستقرت التقدمة فى هذه المدرسة

---

(١) المقريزى : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٧ ب ، هذا وقد أشار (أحمد أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ، ص٥٤) إلى السجل موضوع الدراسة هنا ، ونفى أن يكون صدر لتعيين السلفى ثم قال : " والسجل يدل على أن الحافظية أنشئت فى عهد الوزير أحمد بن الأفضل ، وهذا خطأ واضح أدى إليه عدم التحقيق أو التثبت " .

(٢) المقريزى : المرجع السابق .

(٣) المقريزى : المرجع السابق ص ١٣٨ ، هذا ويبدو أن رضوان كان عظيم الثقة بأبى الطاهر ابن عوف ، يلجأ إليه فى الملمات ، ويستشيره فى المشكلات الكبرى ، فقد استطرد المقريزى يروى أخبار النزاع القائم بين الخليفة الحافظ ووزيره رضوان قال : « فلما كثر ذلك منه انزعج الخليفة . . . . . فتنافر كل منهما من الآخر ، وكان رضوان خفيفاً طائشاً لا يثبت ، فهم بخلع الحافظ وقال : " ما هو بخليفة ولا إمام ، وإنما هو كفيل لغيره ، وذلك الغير لم يصح " ، وأحضر الفقيه أبا الطاهر بن عوف وابن أبى كامل فقيه الإمامية ، وابن سلامة داعى الدعاة ، وفاوضهم فى الخلع واستخلاف شخص عينه لهم ، وألزم كلا منهم أن يقول ما عنده ، فقال ابن عوف : " الخلع لا يكون إلا بشروط تثبت شرعا " .

وقال ابن أبى كامل " السلطان — أبقاه الله — يحملنى على أن أتكلم على غير مذهبى فى الإمامة ؟" قال : " لا ، بل على مذهبك " .

فقال : " مذهبى معلوم " يعنى أن الأمامية لا يعتقدون فى صحة الخلافة فى بنى إسماعيل بن جعفر ، لموته فى حياة أبيه ، وانتقال الإمامة للحاضر من إخوته ، ولأنه لا ينبغى لمن لم تكن له إمامه أن يخلع ، فخلص من هذا .

وقال الداعى : " أنا داعى القوم ومولى لهم ، وما يصح لى خلعه ، فإنى أصير فيما مضى كأنى أدعو لغير مستحق ، فأكون قد كذبت نفسى ، فلا أقبل الآن ، واستخصم بذلك ، ولا يؤثر قولى فيما تريدون ، ولم تجر العادة على الفاطميين بالخلع حتى نتأسى به " .

فقابله على هذا القول بالسب ، وأقامه أقبح قيام . . . . إلخ » .

لك أيها الفقية الرشيد جمال الفقهاء أبو الطاهر[١] » .

وقد كانت الجملة التي ذكرها المقريزى عن إنشاء المدرسة هي المفتاح الذى هدانا إلى هذا التحقيق كله ، فقد قال فى حوادث سنة ٥٣٢ هـ :

« وفيها بنى الوزير رضوان المدرسة المعروفة فى ثغر الإسكندرية ، وجعل فى تدريسها الفقيه أبا الطاهر بن عوف[٢] » .

أما كاتب الإنشاء الذى كتب هذا السجل فإنا نرجح أن يكون أبو القاسم ابن الصيرفى ، فقد كان كاتب الإنشاء فى عهد الخليفة الحافظ ، وكتب عدداً كبيراً من السجلات التى وصلتنا عن عهد هذا الخليفة ، وظل يتولى هذا المنصب إلى أن توفى سنة ٦٤٢ هـ .

وفى سنة ٥٨١ هـ توفى ابن عوف ودفن فى الإسكندرية ، ولكننا نبحث اليوم عن مدرسته أو عن قبره فلا نجد لهما أثراً ، وهكذا فعل النسيان والإهمال بعالم ملأ المدينة علماً وقضى حياته الطويلة كلها يعلم ويدرس ويؤلف وينفع الناس ، فهل لى أن أطمع فى أن يسمى مدرج من مدرجات المبنى الجديد لكلية الآداب باسم هذا العالم « ابن عوف » .

ولأهمية السجل الصادر بتعيين أبى الطاهر بن عوف مدرساً لأول مدرسة أنشئت فى مدينة الإسكندرية فى العصر الإسلامى آثرنا نشر نصه كاملا فيما يلى نقلا عن : (القلقشندى صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٤٥٨ — ٤٥٩) .

---

(١) يشترك الحافظ أحمد بن محمد السلفى مع ابن عوف فى الكنية ، فكل منهما يكنى بأبى طاهر ولهذا ظن البعض أن هذا السجل صدر باسم أبى الطاهر السلفى ولتعيينه بالمدرسة التى أنشئت له بثغر الإسكندرية أيضاً فى أواخر العصر الفاطمى ، ولكن المدرسة السلفية أمر بإنشائها الوزير العادل ابن السلار فى سنة ٥٤٤ هـ فى عهد الخليفة الظافر ، وسميت أول أمرها بالمدرسة العادلية ، ثم عرفت فيما بعد باسم المدرسة السلفية ، راجع : (المقريزى : مخطوطة اتعاظ الحنفا ص ١٤٣ ب) .

(٢) المقريزى : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، ص ١٣٨ ب .

سجل بتدريس

« . . . أمير المؤمنين لما منحه الله من الخصائص التى جعلته لدينه حافظاً ، ولمصالح أمور المسلمين ملاحظاً ، ولما عاد بشمول المنافع لهم مواتراً ، وبما أحظاهم عنده تبارك وتعالى معيناً وعليه مثابراً ، لا يزال يوليهم إحساناً وفضلا ومنًّا ، ويسبغ عليهم إنعاماً لم تزل تسم (؟) هممهم إلى أن تتمنى ، وقد يسر الله تعالى لخلافته ودولته ، ووهب لإمامته ومملكته ، من السيد الأجل الأفضل ، أكرمَ ولىٍّ ضاعف تقواه وإيمانه ، وأكمل صفىٍّ وقف اهتمامه واعتزامه ، على ما يرضيه سبحانه ، وأعدل وزير لم يرضَ فى تدبير الكافة بدون الرتبة العليا ، وأفضل ظهير ابتغى فيما أتاه الله الدار الآخرة ولم ينسَ نصيبه من الدنيا ، فهو يظافر أمير المؤمنين على ما عم صلاحهُ عمومَ الهواء ، ويفاوض حضرته فيما يستخلص الضمائر بما يرفع فيه من صالح الدعاء .

ولما انتهى إلى أمير المؤمنين ميزة ثغر الإسكندرية — حماه الله تعالى — على غيره من الثغور ، فإنه خليق بعناية تامة لا تزال تنجد عنده وتغور : لأنه من أرقى الحصون والمعاقل ، والحديث عن فضله وخطير محله لا تهمة فيه للراوى والناقل ، وهو يشتمل على القراء والفقهاء ، والمرابطين والصلحاء ، وإن طالبي العلم من أهله ومن الواردين إليه ، والطارئين عليه ، متشتتو الشمل متفرقو الجمع ، أبى أمير المؤمنين أن يكونوا حائرين متلددين ، ولم يرض لهم أن يبقوا مذبذبين متبددين ، وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر المحروس بشارع المحجة منًّا عليهم وإنعاماً، ومستقرًّا لهم ومقاماً ، ومثوى لجميعهم ووطناً ، ومحلا لكافتهم وسكناً .

فجدَّد السيد الأجل الأفضل — أدام الله قدرته — الرغبة إلى أمير المؤمنين فى أن يكون ما ينصرف إلى مؤونة كل منهم والقيام بأوده ، وإعانته على ما هو بسبيله وبصدده، من عَيْنٍ وغلة مطلقاً من ديوانه،

واسترفد أمير المؤمنين المثوبة فى ذلك ، فأجابه جرياً على عادة إحسانه .

واستقرت التقدمة فى هذه المدرسة لك أيها الفقيه الرشيد جمال الفقهاء أبو الطاهر : لنفاذك واطلاعك ، وقوتك فى الفقه واستضلاعك ، ولأنك الصدرُ فى علوم الشريعة ، والحالّ منها فى المنزلة الرفيعة ، والمشتغل الذى اجتمع له الأصول والفروع ، ومن إذا اختلف فى المسائل والنوازل كان إليه فيها الرجوع ، هذا مع ما أنت عليه من الورع والتُّقى ، وأن مُجاريك لا يكون إلا ناكصاً على عقبه مخفقاً ، وأمر أمير المؤمنين أن تدرِّس علوم الشريعة للراغبين ، وتعلِّم ما علَّمك الله إياه لمن يريد ذلك من المؤثرين والطالبين ، وخرج أمره بكتب هذا المنشور بذلك شدًّا لأزْرك ، وتقوية لأمرك ، ورفعاً لذكرك .

فأخْلِص فى طاعة الله سرًّا وجهراً ، فإنه تعالى يقول فى كتابه : « ومن يتَّق الله يُكفِّر عنه سيئاته ويعظم له أجراً » .

واعتمد توزيع المطلق عليهم وتقسيمه فيهم على حسب ما يؤدى اجتهادك إليه ، ويوقفك نظرك عليه ، وقرِّب مَنْ ارتضيتَ طريقته ، وأبعد من أنكرت قضيته ، فقد وكل ذلك إليك ، وعدق بك من غير اعتراض فيه عليك .

فمن قرأه وقرئ عليه من : الأمير المظفر ، والقاضى المكين — أدام الله تأييدهما — ، وكافة الحماة والمتصرفين ، والعمال والمستخدمين ، فليعتمد رعاية المدرسة المذكورة ومن احتوت عليه من الطلبة وإعزازهم ، والاشتمال عليهم ، والاهتمام بمصالحهم ، والتوخى على منافعهم .

وليُتْلَ هذا المنشور على الكافة بالمسجد الجامع ، وليُخلَّد بهذه المدرسة حُجَّةً بما تضمنه ، إن شاء الله عز وجل » .

الحَافظ السِّلَفي

صدر الدين أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد
ابن محمد بن إبراهيم سِلَفة
(٤٧٥ — ٥٧٦ ﻫ) = (١٠٨٢ — ١١٨٠ م)

«كان — السلفي — حافظًا جليلاً ، وإمامًا كبيرًا ،
واسع الرحلة ، ديِّنًا ورعًا ، حُجَّةً ثبتًا ، فقيهًا
لغويًّا ، انتهى إليه علو الإسناد مع الحفظ والإتقان» .
السبكي

الحافظ السلفى
ومدرسته فى الإسكندرية

١

الحافظ السِّلفى علمٌ من أعلام الفكر الإسلامى ، لا تُذكر الإسكندرية فى العصر الإسلامى إلا ذكر معها ، فقد كسب هذا العَلَمُ مجداً علميًّا طبق ذكره الآفاق ، ونالت الإسكندرية النصيب الأكبر من هذا المجد ، فقد كان العلماء يشدون الرحال إليه من كل حدب وصوب ، من المشرق ومن المغرب ، يأخذون عنه ويستمعون إليه ، ويتتلمذون عليه ، وبذلك أصبحت الإسكندرية طول مدة إقامته بها كعبة يحج إليها طلاب العلم ، وعلم الحديث بوجه خاص .

لم يكن هذا العالم مصرى الأصل ، أو سكندرى المنبت ، ولكنه كان فارسيًّا ، ولد بمدينة أصبهان ، ومع هذا اعتبر عند مؤرخيه مصريًّا سكندريًّا ، فقد أقام فى الإسكندرية معظم سنى حياته ، وفيها نضج فكره وذاع ذكره ، وفيها كتب معظم مؤلفاته .

وهكذا نرى أن الإسكندرية أصبحت فى أواخر القرن الخامس الهجرى وطوال القرن السادس كعبة العلماء ، وموئل الفقهاء ، يفدون إليها من الشرق ومن الغرب ، فقد وفد إليها من قبل الفقيه المالكى والعالم الزاهد الثائر أبو بكر الطرطوشى من أقصى المغرب ، من مدينة طرطوشة بالأندلس ، وفى نفس الوقت تقريباً وفد إليها السلفى من أقصى الشرق ، من أصبهان ببلاد فارس .

أدرك الحافظ السلفى أبا بكر الطرطوشى أثناء مقامه بالإسكندرية ، وعاش معه وعاصره فيها تسع سنوات ، فقد وفد السلفى إلى الإسكندرية فى سنة ٥١١ هـ ، والطرطوشى توفى بها سنة ٥٢٠ هـ ، وبعد وفاته عاصر السلفى عدداً من تلاميذ الطرطوشى ، وبخاصة أبا الطاهر بن عوف ، وسَنَد بن عنان ، فكانوا جميعاً قادة الفكر والحركة العلمية فى الإسكندرية فى الأرباع الثلاثة الأولى من القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) .

ولا يُذكر اسم السلفى إلا مسبوقاً بلقب الحافظ ، وهو لقب يطلق على علماء الحديث المبرزين فيه ، وكان علم الحديث يحتل مكان الصدارة بين العلوم التى كان يعنى بها المجتمع الإسلامى فى تلك العصور ، وهى العلوم الدينية بجميع فروعها من فقه وتفسير وقراءات وتصوف وغيرها .

والعناية بهذه العلوم الدينية جميعاً ، وفى مقدمتها علم الحديث فى تلك العصور كانت أمراً طبيعيًّا ، فقد كان العالم الإسلامى يعيش على بركان من الفتن والقلاقل والحروب ، وكان أهم ما يهدد كيانه الحروب الصليبية وهؤلاء الأقوام الذين أتوا من أوربا فى حشودهم وجموعهم عَبْر البحر الأبيض المتوسط يقتطعون من الدولة الإسلامية خير أراضيها ، ويحاولون القضاء على استقلالها واستعباد أهليها ، وكان رد الفعل القوى لهذه الحركة الخطيرة الدعوة إلى الجهاد لاستنقاذ الوطن الضائع واستعادة الاستقلال المسلوب ، وكان لا بد لإعداد الناس لحركة الجهاد من تعبئتهم تعبئة روحية قوية ، وكانت الأساليب التى اتبعت لهذه التعبئة هى العودة بأفكار الناس إلى العصر الإسلامى الأول وأمجاده ، والعناية بسير السلف الصالح ، وبسيرة الرسول الكريم بوجه خاص ، والرجوع إلى الأصول الأولى للإسلام وهى القرآن والسنة.

ولعل هذا يفسر لنا كثيراً من مظاهر الحياة الثقافية فى العالم الإسلامى فى ذلك العصر ، وكيف اتجهت هذه الحياة فى معظمها إلى العناية كل العناية بالعلوم الدينية بجميع فروعها ، وفى مقدمتها علم الحديث .

أما لماذا اتجه هؤلاء العلماء الوافدون من الشرق ومن الغرب إلى الإسكندرية واتخذوها — دون القاهرة وهى العاصمة — دار مقام لهم ، ومجالا لنشاطهم العلمى فإن هذا يرجع إلى أن الدولة التى كانت قائمة بالحكم فى مصر فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس كانت دولة شيعية — وهى الدولة الفاطمية — ومقر حكمها القاهرة ، فالقاهرة كانت نتيجة لهذا مركزاً للدراسات الشيعية ، أما الإسكندرية فكانت مدينة سنية يغلب على أهلها التسنن ، ومعظم علمائها — إن لم يكن كلهم — من علماء السنة ومن أتباع مذهب مالك بوجه خاص ، وهؤلاء العلماء الذين أشرنا إليهم ، الوافدون من شرق ومن غرب ، كانوا كلهم كذلك سنيي المذهب .

لقد أصاب الخلافة العباسية فى المشرق فى القرنين الخامس والسادس ما أصابها من ضعف وانحلال ، وأصاب الأندلس الإسلامية ما أصابها من وهن وتفكك ، وهبط مسيحيو أوربا إلى أطرافها يقتطعونها طرفًا بعد طرف ، واتجهت الأنظار فى العالم الإسلامى إلى المركز ، إلى القلب ، إلى مصر ، يرون فيها الأمل المنشود والقيادة المرجوة ، وهرع إليها العلماء من هذا الشرق المستضعف ومن هذا الغرب المتفكك ، ولم يتجهوا عند وصولهم مصر إلى القاهرة للأسباب التى أشرنا إليها ، بل اتجهوا إلى الإسكندرية ، ولهذا كانت الإسكندرية فى أواخر القرن الخامس وطوال القرن السادس مركزًا قويًّا للنشاط العلمى الدينى . وكان مجىء الحافظ السلفى واستيطانه لها عاملا من أهم العوامل التى أدت إلى نمو هذا النشاط ، والتى عقدت للإسكندرية لواء الزعامة فى علم الحديث بين مدن العالم الإسلامى فى ذلك الوقت .

٢

هو الحافظ صدر الدين أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سِلَفَة الأصبهانى ، وينسب إلى جده الأخير إبراهيم سِلَفَة ، وسِلَفَة لفظ فارسى معناه ثلاث شفاه ، لأن شفته الواحدة كانت مشقوقة ، فصارت مثل شفتين ، غير الأخرى الأصلية .

ولد فى مدينة أصبهان ، واختلف فى سنة ولادته ، فقيل إنه ولد فى سنة ٤٧١ أو فى ٤٧٢ أو ٤٧٥ ، والمرجح عندى أنه ولد سنة ٤٧٥ ، فقد ذكر السبكى « طبقات الشافعية » أن السلفى حكى عن نفسه أنه حدث سنة ٤٩٢ وما فى وجهه شعرة ، وأنه كان ابن سبع عشرة سنة أو نحوها .

وقال الحافظ عبد الغنى إنه سمع السلفى يقول :

« أنا أذكر قتل نظام الملك فى سنة ٤٨٥ وكان عمرى نحو عشر سنين ، وقد كتبوا عنى فى أول سنة ٤٩٢ وأنا ابن سبع عشرة سنة أو أكثر أو أقل ، وليس فى وجهى شعرة — كالبخارى — » .

أى إنه حين بدأ يحدِّث لم يكن الشعر قد نبت فى وجهه، وكذلك كان البخارى إمام المحدثين حين بدأ الناس يأخذون عنه الحديث .

تلقى السلفى علومه الأولى فى مدينته أصبهان ، واتجه منذ اللحظة الأولى إلى علم الحديث ، فسمع على كبار العلماء بأصبهان من أمثال القاسم بن الفضل الثقفى وعبد الرحمن بن محمد بن يوسف السمسار ، وسعيد بن محمد الجوهرى ، ومحمد ابن محمد بن عبد الوهاب المدينى ، والفضل بن على الحنفى ، ومكى بن منصور ابن علان الكرخى وغيرهم ، وقد بدأ السماع وهو فى نحو الثالثة عشرة من عمره ، فقد قال السبكى :

« وأول سماع السلفى سنة ٤٨٨» .

وقال فى موضع آخر :

« وقد طلب الحديث وكتب الأجزاء ، وقرأ بالروايات فى سنة ٤٩٠ وبعدها » .

وبعد أربع سنوات من طلبه الحديث بدأ يحدث ، واتخذ له مجلسًا فى مساجد أصبهان ، فقد حكى هو عن نفسه أنه حدث سنة ٤٩٢ .

وقد كانت التقاليد العلمية فى تلك العصور تقضى بأن العالم الحق لا يمكن أن يستوفى أدوات علمه ، وأن يستكمل دراسته ، وأن يبلغ مبلغ العلماء إلا إذا رحل إلى عواصم الدولة الإسلامية الكبرى وإلى مراكز العلم الشهيرة بها ، ليتلقى العلم عمن بها من كبار العلماء ، ويستمع إليهم ويحصل على إجازاتهم له ، ولهذا بدأ السلفى يحس منذ هذه السن المبكرة الرغبة فى الرحلة ، فارتحل ، وكانت رحلته الأولى إلى بغداد ، ولكنه قبل أن يرتحل ألف معجمًا لشيوخه الذين أخذ عنهم بأصبهان وهذا تقليد ثان لعلماء الحديث فى تلك العصور ، أن يؤلف كلٌ منهم معجمًا أو معاجم لشيوخه الذين سمع منهم .

٣

غادر السلفي مدينته أصبهان في رمضان سنة ٤٩٣ وهو في نحو الثامنة عشرة من عمره ، واتجه أول ما اتجه إلى مدينة بغداد ، فوصلها في الرابع من شهر شوال .

وكان السلفي وقت وصوله مريضاً يشكو بعض الدماميل التي نبتت في جسمه ، ولكنه لم يبال المرض ، وقصد في الحال إلى عالم من كبار العلماء الحديث هو نصر ابن البطر ليستمع إليه ، ولم تكن المقابلة الأولى في الدرس الأول مرضية للسلفي ؛ لأنه حين جلس ليقرأ الحديث على الشيخ جلس متكئاً ، وكانت للعلماء والطلاب حين يجلسون لدروس الحديث آداب خاصة ، يلتزمون فيها الطهارة والأدب الكامل والوقار التام ، فلم يكد الشيخ نصر يرى السلفي يجلس هذه الجلسة المتكئة وهو يقرأ عليه الحديث حتى نهره وسبه وعنف عليه إلى أن بكى ، ولم يعفُ عنه إلا بعد أن اعتذر له ووصف له مرضه ، وذكر له الدماميل التي تمنعه من الجلسة المريحة العادية ، وتضطره إلى هذه الجلسة المتكئة .

روى السلفي نفسه قصة هذه المقابلة الأولى قال :

« دخلتها — أي بغداد — في رابع شهر شوال فلم يكن لي همة ساعة دخولها إلا المضي إلى ابن البطر — ، فدخلت عليه — وكان شيخاً عسراً — فقلت : قد وصلتُ من أصبهان إليك — أي لأجلك — فقال : اقرأ — جعل الراء غينا — ، فقرأت عليه وأنا متكئٌ — لأجل دمامل بي — ، فقال : " أبصر ذا الكلب " ، فاعتذرت عليه بالدماميل ، وبكيت من كلامه ، وقرأت سبعة عشر حديثاً ، وخرجت ، ثم قرأت عليه نحواً من خمسة وعشرين جزءاً » .

ولم يأخذ السلفي في بغداد عن الشيخ نصر بن البطر وحده ، بل تردد على نفر كبير من علمائها ، ودرس علوماً أخرى لا يمكن أن يستغني عنها دارس الحديث ، فدرس الفقه الشافعي — فقد كان شافعي المذهب — على كبير فقهاء بغداد في ذلك الوقت ألكيا أبي الحسن على الهرّاس ، ودرس اللغة على الخطيب أبي زكريا

يحيى بن على التبريزى اللغوى ، وسمع الحديث ورواه عن أبى بكر الطربيثى ، وأبى عبد الله ابن البسرى ، وثابت بن بندار ، وأبى محمد بن السراج ، وغيرهم من الأئمة الأفاضل .

قضى السلفى فى بغداد نحو ثلاث أو أربع سنوات ، ثم غادرها إلى الحجاز ليؤدى فريضة الحج ، ولكنه عرج فى طريقه على الكوفة ، وسمع بها من أبى البقاء المعمر بن محمد الحبال ، وانتهز فرصة وجوده فى الحجاز فسمع ممن بها من علماء الحديث ، سمع فى مكة من الحسين بن على الطبرى ، وفى المدينة من أبى الفرج القزوينى .

وعاد من رحلته هذه إلى بغداد واستأنف بها دراسته ، وخاصة فى الفقه واللغة ، وخرج فى سنة ٥٠٠ فى رحلة قصيرة إلى البصرة حيث سمع من علمائها المحدثين وخاصة من محمد بن جعفر العسكرى .

٤

وهكذا نرى أن السلفى لم يترك عالماً مبرزاً من علماء العراق إلا واتصل به وأخذ عنه وسمع منه ، فلما استوفى دراسته هناك ألف معجماً ثانياً لشيوخه الذين أخذ عنهم فى بغداد ، ثم غادرها إلى المشرق ثانية ، فلم يترك مدينة من مدنه الكبرى إلا زارها وأخذ عمن بها من العلماء الكبار ، فزار أول ما زار مدينة همذان ، واتصل بالكثيرين من علمائها ، ولاسيما أبى عبد الله الجنى الملامتى ، والشيخ أبى الفتوح أحمد بن محمد الطوسى الغزالى — أخى حجة الإسلام أبى حامد الغزالى — ، وقد أقام السلفى أثناء وجوده فى همذان مع الشيخ أحمد الغزالى فى رباط من ربط الصوفية وكان يتردد على مجالس وعظه ، فقد قال السلفى فى ترجمته له :

« حضرت مجلس وعظه بهمذان ، وكنا فى رباط واحد وبيننا ألفة وتودد ، وكان أذكى خلق الله ، وأقدرهم على الكلام ، فاضلا فى الفقه وغيره » .

وزار السلفى بعد هذا مدن الرى ودينور وقزوين ونهاوند ، وطاف بلاد

أذربيجان ، ثم انحدر منها إلى الجزيرة ، فزار مدن آمد وخلاط ونصيبين والرحبة ، واستغرقت رحلاته هذه فى مدن فارس والمشرق والجزيرة تسع سنوات ، فلما كانت سنة ٥٠٩ اتجه إلى الشام وقصد العاصمة دمشق ، قد حصل علماً غزيراً وافراً ، واشتغل فى دمشق بتدريس الحديث ، قال السبكى :

« وقدم دمشق سنة ٥٩٠ بعلمٍ جم ، فأقام بها عامين وسمع منه الكثيرون » .

وقال الحافظ بن عساكر :

« سمع ممن لا يُحصى ، وحدث بدمشق ، فسمع منه أصحابنا ، ولم أظفر بالسماع منه » .

ولم يشغله التدريس عن إتمام التحصيل ، فسمع ممن بها من كبار المحدثين ، وخاصة من أبى طاهر الحنائى وأبى الحسن بن الموازينى .

ولم تكن الشام فى ذلك الوقت المكان الصالح لإقامته ، فقد كانت الحروب الصليبية فى عنفوانها ، وكان الصليبيون قد نجحوا فى إقامة ملك لهم فى سواحل الشام وفى بيت المقدس ، ولهذا لم يُطل السلفى إقامته فى دمشق ، ولم يمكث بها إلا سنتين ثم غادرها إلى مدينة صور ، وفى سنة ٥١١ ركب سفنية من صور حملته إلى ثغر الإسكندرية .

٥

وصل السلفى إلى الإسكندرية وقد بلغ السادسة والثلاثين من عمره بعد أن اكتملت رجولته وتم نضجه العلمى ، وحصّل من العلوم واكتسب من التجارب فى رحلاته المتعددة الشىء الكثير .

ويبدو أن السلفى كان حين نزوله بالإسكندرية فقيراً رقيق الحال ، وأنه ظلّ كذلك مدة ما ، ولكنه لم يلبث أن فعل كما فعل الطرطوشى من قبل ، فتزوج سيدة ثرية من سيدات الإسكندرية ، فتحسنت أحواله المالية ، وأصبح من أهل الوجاهة ، قال السبكى :

« واستوطن الإسكندرية ، وتزوج امرأة بها ذات يسار ، وحصلت له ثروة بعد فقر ، وتصدّق وصارت له بالإسكندرية وجاهة » .

ويذكر السلفى نفسه أن زوجته هذه كانت تسمى ست الأهل ، وأنها كانت ابنة رجل فاضل ، هو الشيخ أبى عبد الله محمد بن أبى موسى الخولانى ، وأنها كانت سيدة صالحة دينة تقية ، فقد قال — فى كتابه « معجم السفر » الذى أرخ فيه لشيوخه ومن قابلهم من العلماء بمدينة الإسكندرية — عند ترجمته للسيدة ترفة بنت أحمد بن إبراهيم الرازى — :

« ترفة هذه من بيت علم ، وهى فى نفسها كانت دينة كثيرة المعروف ، وتسمى أيضاً عائشة وتدعى ترفة — رحمها الله — قرأنا عليها سنة ٣٤ ، وتوفيت بعدها بمدة قريبة ، رحمة الله عليها ، وكانت امرأة الشيخ أبى عبدالله محمد بن أبى موسى الخولانى — الذى تزوجت أنا بعد موته بابنته ست الأهل المرأة الصالحة الديّنة — رحمها الله ورحمنا إذا صرنا إلى ما صارت إليه » .

فالبيت الذى ناسبه السلفى بيت يقوم على الدين والتقوى والصلاح ، الرجل رجل فاضل ، وزوجته ترفة دينة كثيرة المعروف ، وهى فى نفس الوقت عالمة محدثة فقد اعترف السلفى بأنه أخذ عنها وقرأ عليها قبل وفاتها ، والبنت التى تزوجها السلفى صالحة دينة ، أقصى ما كان يطمح إليه السلفى أن يصير إلى ما صارت عليه .

واشتغل السلفى منذ نزوله بالإسكندرية بالتدريس ، وتدريس الحديث بوجه خاص ، وكان يعقد حلقاته أول الأمر فى مساجد المدينة ، ولم يلبث أن أقبل الطلاب عليه وقصده طلاب الحديث من جميع أنحاء مصر ومن خارج مصر ، وفى حدود سنة ٥٤٠ ولى حكم الإسكندرية أبو الحسن على بن السلار ، وهو الذى سيلى الوزارة للخليفة الفاطمى الظافر بعد سنوات قليلة ، وكان ابن السلار سنيّاً شافعى المذهب ، ولهذا قرّب إليه السلفى وأكرمه ، وأنشأ له فى سنة ٥٤٤ هـ مدرسة خاصة سميت بالمدرسة السلفية ، فكانت ثانى مدرسة أنشئت بمدينة الإسكندرية بل فى مصر كلها ، وكانت المدرسة الأولى هى المدرسة التى أنشأها الوزير رضوان ابن ولخشى وزير الحافظ لأبى الطاهر بن عوف[1] .

---

(١) انظر فيما سبق الفصل الخاص بأبى الطاهر بن عوف .

ولعل ابن السلار كان متأثراً بنور الدين محمود بن زنكى ، فقد كان سنياً شافعياً مثله ، وكان على اتصال سياسى به ، وقد كان من أهم أغراض حركة إنشاء المدارس التى بدأها السلاجقة ، وتبعهم فيها الأتابكة ثم الأيوبيون ، محاربة المذهب الشيعى والدعوة للمذهب السنى ، وقد كانت المدرسة السلفية المدرسة الوحيدة للشافعية فى الإسكندرية ، وظلت قروناً طويلة وهى كعبة لطلاب العلم ، قال ابن خلكان الذى عاش فى القرن السابع :

« وكان — أى ابن السلار — ظاهر التسنن شافعى المذهب ، ولما وصل الحافظ أبو طاهر أحمد السلفى — رحمه الله تعالى — إلى ثغر الإسكندرية المحروس وأقام به ، ثم صار العادل المذكور والياً به احتفل به ، وزاد فى إكرامه ، وعمّر له هناك مدرسة فوض تدريسها إليه ، وهى معروفة به إلى الآن ، ولم أر بالإسكندرية مدرسة للشافعيين سواها » .

٦

وصل الحافظ السلفى إلى الإسكندرية فى سنة ٥١١ هـ ، واستقرّ بها منذ ذلك الحين إلى أن توفى إلى رحمة الله سنة ٥٧٦ هـ ، أى أنه قضى بها نحو خمس وستين سنة ، وقد توفّر هذه السنين الطويلة على البحث والدراسة والقراءة وطلب العلم ، والتدريس للطلاب من أهل الإسكندرية ومصر ، وممن يفدون عليه من أطراف العالم الإسلامى المختلفة .

وقد اعتكف حين تفرغه للعلم فى داره ثم فى مدرسته ، ولم يكن يغادرها لفرجة أو لنزهة إلا لماماً ، نصّ على هذا السبكى فقال فى كتابه « طبقات الشافعية » نقلا عن الحافظ أبى نصر :

« وبلغنى أنه فى مدة مقامه بالإسكندرية — وهى أربع وستون سنة — ما خرج إلى بستان ولا فرجة غير مرة واحدة ، بل كان عامة دهره ملازماً مدرسته ، وما كنا نكاد ندخل عليه إلا نراه مطالعاً فى شىء » .

ولم يغادر السلفى الإسكندرية طوال هذه السنين إلا مرة واحدة بعيد وصوله

إليها ، حين ذهب إلى الفسطاط ليتصل بمن فيها من العلماء ويأخذ عنهم . وقد ذكر السبكى أن خروجه إلى الفسطاط كان سنة ٥١٧ هـ أى بعد وصوله إلى الإسكندرية وإقامته بها ست سنوات ، قال :

« ولم يخرج منها — أى من الإسكندرية — إلا مرة فى سنة سبع عشرة إلى مصر ، فسمع من أبى صادق المدينى والموجودين بها وعاد » .

والتاريخ الذى ذكره السبكى غير دقيق ، والصحيح أنه سافر إلى الفسطاط فى أوائل سنة ٥١٥ ومكث بها ثلاث سنوات إلى أواخر سنة ٥١٧ ، ثم عاد إلى الإسكندرية ، يؤيد هذا السلفى نفسه فى بعض النصوص التى ذكرها فى كتابه « معجم السفر » فقد قال فى ترجمته لأبى الحسن على بن المؤمل بن غسّان الكاتب المصرى :

« وتوفى سنة ٥١٥ بالإسكندرية وأنا بمصر » .

وقال فى ترجمة أبى البها عبد الكريم بن عبد الله بن محمد المقرئ الصقلى :

« وتوفى فى شعبان سنة ٥١٧ بالإسكندرية وأنا بمصر » .

فكأنه كان لا يزال مقيماً فى مصر — أى الفسطاط — إلى شعبان سنة ٥١٧ ، ولكنه غادرها عائداً إلى الإسكندرية فى ذى القعدة من هذه السنة ، فقد قال فى ترجمته لأبى الفضل عوض بن سعادة بن عبد الله الطرابلسى المغربى :

« وتوفى بعد خروجى من مصر فى ذى القعدة سنة ٥١٧ هـ » .

وكان السلفى يقيم مدة بقائه فى الفسطاط فى دار رجل صالح من علمائها وتجارها الأثرياء يمنى الأصل ، اسمه أبو عبد الله محمد بن خداداد بن إسماعيل الأهوارى ، فقد قال فى ترجمته :

« كان من رؤساء مصر الممولين بها . . . وكانت له دار وكالة ، وكان شافعى المذهب محبًّا للعلم وأهله ، ومولده باليمن ، وأقمت فى داره مدة مقامى بمصر ، وكان ظاهر المروءة — رحمه الله » .

وقد اتصل السلفى أثناء مقامه بالفسطاط بالعدد الوفير من علمائها ومدرسيها وأدبائها ورجال الفكر فيها ، فأخذ عنهم ، وأخذوا عنه ، وتردد على حلقات العلم المختلفة بجامع عمرو بن العاص ، واتخذ له حلقة وسط هذه الحلقات كان يدرس

فيها الحديث ، وفى كتابه معجم السفر تراجم لكثيرين من علماء الفسطاط الأعلام ولأدبائها الشعراء الذين اتصل بهم ؛ وأخذ عنهم أو أخذوا عنه ، ويتخلل هذه التراجم أوصاف شائقة للنشاط العلمى الوافر الذى كانت تضجّ به حلقات الدرس فى جامع عمرو بن العاص ، وفى دور العلماء ومجتمعاتهم بهذه المدينة ، وللصلات العلمية الوثيقة التى عقدها السلفى بهؤلاء العلماء .

٧

وعاد السلفى بعد هذه الرحلة إلى الإسكندرية فأقام بها بقية حياته وتوفّر أول الأمر على دراساته ودروسه ، وكان يلقى هذه الدروس أول الأمر فى داره أو فى مساجد المدينة نحواً من سبع وعشرين سنة إلى أن كانت سنة ٥٤٤ حيث بنى له الوزير العادل أبو الحسن على بن السلاّر مدرسة خاصة به سُميت أول الأمر بالمدرسة العادلية نسبة إلى بانيها ، ثم غلبت عليها النسبة إلى السلفى فيما بعد فسميت المدرسة السِّلفية .

وقد كان لأنشاء هذه المدرسة رنة فرح كبرى فى الإسكندرية ، عبر عنها شعراء المدينة فيما قالوه من شعر ، من هذا ما قاله أحد الوراقين من الشعراء السكندريين وهو أبو محمد عبد الوهاب بن إسماعيل بن توهيب ، وكان وثيق الصلة بالسلفى ومدحه — كما قال فى معجم السفر — بأكثر من خمسين قصيدة ، قال فى إحداها يفتخر بالمدرسة مادحاً بانيها مشيداً بذكر السلفى وعلمه :

لله دَرُّ العــادل المرتجى	ذى العز والتأييد والنصرِ
أنشأها لنــا مدرسة ، مثلها	لم يُنْشَ فى دهرٍ ولا عصرِ
بغــداد دارُ العلم لم تفخر	بمثلهــا قط عــلى مصرِ
فأرضها كالمســك جاتْ عن	البُسْط التى تفرش والحُصر
وما تولاهــا ســوى الحافظ	المعصوم من عىٍّ ومن حَصر
خــيرُ فقيهٍ فى الــورى ،	عالمٌ تبصره كالحسن البصرى . .

وكان السلفى هو أستاذ المدرسة ومدرسها ، وكان يعاونه عدد من المعيدين — كما كانت تقضى نظم التعليم فى ذلك العصر — وقد أشار هو إلى واحد من هؤلاء

المعيدين وترجم له فى كتابه « معجم السفر » ، وهو أبو المعالى رافع بن يوسف ابن زيدون القيسى ، ووصفه السلفى بأنه كان من أهل العلم ويصوم الدهر ، ويقوم الثلث الأخير أبداً ، وقال إنه قرأ عليه كثيراً من الحديث ، وكتب جملة من الأمالى التى كان يمليها ، ثم قال :

« وقد لازمنى عند بناء المدرسة العادلية مدة مديدة إلى أن توفى » ، ومعنى هذا أنه ظل يعيد عنه نحو سبع سنوات ، منذ بنيت المدرسة سنة ٥٤٤ إلى أن توفى سنة ٥٥١ .

وكان ابن رافع يعاون السلفى فى أمور أخرى ، فكان — كما يقول — يعيد الدرس على أربعين من الصبيان ويؤم الناس فى المدرسة فى الصلوات الخمس ، ويبدو مما كتبه السلفى أن معيده رافعاً هذا بدأ حياته خياطاً ثم اشتغل بالعلم وتفرغ له ، ولعله لم يوفق فى حرفة الخياطة فتركها ، فقد روى عنه السلفى قصة طريفة خلاصتها أن رافعاً خاط لأحد الشعراء المعاصرين قندرة ، فجاء طوقها واسعاً ، مما دعا الشاعر إلى أن يقول فى هذا الحادث أبياتاً طريفة ، قال السلفى :

« سمعت أبا المعالى رافع بن يوسف بالإسكندرية يقول : خطت فى صغرى قندرة لأبى القاسم عبد الرحمن بن مؤمن الطرابلسى المغربى فجاء طوقها واسعاً ، فقال .

لا زلتَ فى الرفعة يا رافعُ ... يزهو بك الناظرُ والسامعُ
ذا إبرة فى طولها قامة ... يتبعها مقراضُك القاطعُ
تخيط طولَ الدهر فى صحة ... أو تملى من شغلك الجامعُ
لم تألُ فى قندورتى صنعةً ... وإن شجانى طَوْقها الواسعُ
والشرعُ قد قال — وأكرِمْ به — : ... يُغَرَّمُ ما أفسده الصانعُ »

وكانت هيئة المدرسة تضم غير الأستاذ — وهو الحافظ السلفى — ، وغير معيديه مؤذناً يؤذن للناس فى أوقات الصلاة ، وقد توالى على المدرسة عدد من المؤذنين أشار السلفى إلى واحد منهم ، ومن الغريب ، أنه يذكر أن هذا المؤذن كان شديد الصمم ، وقد بدأ حياته مؤذناً فى دار الطرطوشى ، وبعد وفاته أصبح مؤذناً فى مدرسة السلفى ، قال فى معجم السفر :

« أبو القاسم نجا بن على بن الحسن الرملى المؤذن بالإسكندرية شيخ صالح ، كبير السن ، شديد الصمم ، كان يؤذن فى دار الفقيه الطرطوشى ، ثم كان يؤذن عندى وكان جهورى الصوت » .

٨

وكان منهاج الدراسة فى المدرسة منهاجاً دينيًّا ، وكانت الدروس التى يلقيها السلفى تدور كلها حول الفقه والتفسير والحديث ، أو حول علوم تتصل بها كالتاريخ مثلا وسيرة ابن هشام بوجه خاص ، وفى التراجم التى أوردها السلفى فى « معجم السفر » إشارات كثيرة إلى هذه العلوم ، ويتضح منها أن السلفى كان يتبع فى تدريسه إحدى الطريقتين : أن يقرأ نصًّا أو كتاباً من الكتب المعتمدة ويشرحه ، أو أن يملى أمالى خاصة ، أى أن يلقى محاضرات من إنشائه ، وكانت هذه الأمالى أو المحاضرات فى علم الحديث ، وكان يسميها الأمالى الحديثية ، فقد قال فى ترجمته لأبى الحجاج يوسف بن محمد بن على القروى :

« كان يحضر عندى فى المدرسة لسماع الفقه والحديث ، وكتب عنى شيئاً يسيراً من الأمالى الحديثية التى كنت أمليها » .

وقال فى ترجمة أبى الرضا عبد الله بن الفضل بن دليل الحضرمى أحد قضاة الإسكندرية :

« وكان يلازمنى ويراجعنى فى المسائل التى يتشكك فيها ، ويقرأ علىَّ شرح البخارى لابن بطال قراءة دراية لا رواية » .

وقال فى ترجمة أبى الحسن على بن عطية بن المحسن الطيبى المصرى :

« قرأ علىَّ كثيراً من الحديث ، ومن جملة ذلك مسند الموطأ لأبى القاسم الجوهرى » .

وقال فى ترجمة أبى محمد عبد الله بن محمد بن يوسف الزناتى الضرير :

« كان يحضر عندى عند إلقائى الدروس الفقهية فى المدرسة العادلية بالإسكندرية » .

وقال فى ترجمة أبى محمد عبد الله بن محمد بن ملوك التنوخى الفليشى :

« سمع علىّ رسالة أبى محمد بن أبى زيد فى فقه مالك . . . وكتاب الشهاب للقاضى القضاعى وغير ذلك » .

وقال فى ترجمة أبى محمد عبد الله بن عثمان وارّ الكزُولى :

« وكان يقرأ علىّ الموطأ ، ويحفظ كثيراً من متونه ، ويتفقه عندى فى المدرسة العادلية ، ويعلق ما ألقيه من الدرس الأول من الإبانة للفورانى على مذهب الشافعى » .

وقرأ عليه أبو محمد عبد الله بن تويت بن الوزان اللمتونى كتاب الملخص لابن القابسى .

وكان أبو الحسن على بن محمد بن فيد الفارسى القرطبى يقول للسلفى :

« كتبت عنك ألف ورقة وسمعتها » .

ومن جملة ما قرأه عليه السيرة لابن هشام ، وكتاب المجالسة لابن مروان المالكى ، وكتاب مشكل القرآن لابن قتيبة .

وكان السلفى إذا جلس لدرس الحديث يلتزم الأدب التام والوقار الكامل ، ويلزم الحضور من تلاميذه — مهما كبر مقامهم — بهذه الآداب ، فقد أخذه أساتذته الأوائل بهذه الآداب ، وأعتقد أنه ظل يذكر دائماً مقابلته الأولى لأستاذه نصر بن البطر فى بغداد ، وقد روى السبكى أن السلفى كان إذا جلس للحديث لا يشرب ماء ولا يبصق ولا يتورك ولا يبدو له قدم ، وحدث مرة أن حضر وزير مصر وأخوه للسماع عليه ، ثم شغل الرجلان أثناء الدرس بحديث شخصى خافت يتبادلانه ، فلم يأبه السلفى لمقامهما ، وبادر بزجرهما وتأنيبهما ، وقال :

« إيش هذا ؟ ! نحن نقرأ الحديث وأنتما تتحدثان ؟ ! »

فالسلفى كان يعتقد أن لدرس الحديث حرمة خاصة ، يجب على الجميع أن يقدسوها مهما علت مكانتهم الدنيوية .

٩

هذه هى المدرسة العادلية أو السلفية ، وهذا هو برنامج الدراسة بها ، وهذه هى طرق التدريس بها ، فمن كان تلاميذها ؟ يبدو أنهم كانوا على نوعين : نوع نظامى ويشمل الصبيان الصغار الذين يبدأون مراحل الدراسة الأولى ، وقد أشار إليهم السلفى عندما تحدث عن معيده رافع وقال :

« وكان يعيد الدرس على أربعين من الصبيان » .

ويبدو أن هؤلاء كانوا يدرسون دراسة يومية منتظمة فيما عدا أيام الجمع .

أما النوع الثانى فكان يشمل الشبان والرجال الكبار من هواة العلم غير المتفرغين ، وكان هؤلاء التلاميذ نخبة ممتازة من العلماء والشعراء والأدباء ورجال الفكر من سكان الإسكندرية ، ومن الوافدين عليها من الشرق ومن الغرب ، وكان من بينهم عدد من رجال الحكم فى المدينة كالولاة والقضاة والشهود والجنود ، وكان من بينهم المتصوفة والزهاد وأرباب المهن المختلفة ، وخاصة التجار ، فقد كانت الإسكندرية فى ذلك الوقت أكبر ميناء تجارى فى مصر بل فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وكان يفد عليها ويقيم بها عدد وفير من أرباب التجارة الوافدين من كل طرف من أطراف العالم الإسلامى ، من الهند والصين ، ومن اليمن وبلاد العرب ، ومن فارس والعراق وبلاد الأتراك ، ومن جزر البحر الأبيض المتوسط ، ومن بلاد المغرب والأندلس ، وكان الكثيرون من هؤلاء التجار علماء أو مشتغلين بالعلم ، ولهذا كانوا ينتهزون جميعاً فرصة وجودهم فى الإسكندرية أو مرورهم بها فيقصدون الحافظ السلفى ، ويترددون على مدرسته ، ويقيمون بها مدداً تطول أو تقصر ليأخذوا عنه العلوم الدينية ، وعلم الحديث بوجه خاص ، وكان بعض هؤلاء وسيلة طيبة لنشر علم السلفى فى بلادهم بعد عودتهم .

ولم تكن لهؤلاء الكبار مواعيد محددة للدرس ، كما كان الشأن مع الصبيان الصغار ، فكانوا يترددون على السلفى فى مدرسته فى أى ساعة من ساعات النهار ، وإن كان قد حدّد موعداً لدروسه أو أماليه ، أو محاضراته فى الحديث فى يوم

الجمعة من كل أسبوع ، فكثيراً ما كان يردد فى ترجمات تلاميذه قوله :

« وما كان يتخلّف أو يتغيب عن مواعيدى الجمعية » .

ونستطع بمراجعة كتابه « معجم السفر » أن نتعرف على الكثيرين من تلاميذ السلفى الكبار من أرباب الوظائف الحكومية أو العلماء أو من التجار :

فكان من تلاميذه : أبو على الحسين بن كرّام الكاتب بالثغر — أى بالإسكندرية — وقال هو عنه :

« وبيتهم بيت معروف ، وكتب عنى مقطعات من الشعر ، وكان يحضر عندى لسماع الحديث » .

ومن تلاميذه مهندس كبير بالإسكندرية اسمه أبو المكارم هدية بن عامر ابن فتوح الحضرمى ، وصفه السلفى بأنه كان من أذكى خلق الله فى الهندسة ، وقال :

« وكان متديناً لا ينقطع عن مجالس أهل العلم ، وكثيراً ما كان يحضر عندى لسماع الحديث » .

ومن تلاميذه مؤذن بأحد المساجد المدينة ، هو أبو الحسن رضوان بن إبراهيم الدنبلى الكردى ، قال عنه .

« كان يحضر عندى كثيراً لسماع الحديث — وكانت له معرفة وأنس بمذهب مالك ، ويؤم فى مسجد من مساجد الثغر بناحية مقبرة وَعْلَةَ ، وبها دفن » .

ومن تلاميذه أبو محمد عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على العذرى ، قال فى ترجمته :

« هذا ممن علق عنى كثيراً من الحديث والفقه ، وأقام فى المدرسة العادلية مدة مديدة » .

وتتلمذ عليه من أهل المغرب والأندلس عدد كبير ، وخاصة أولئك الذين كانوا يخرجون للحج ويمرون فى طريقهم بالإسكندرية ، فكانوا ينتهزون فرصة وجودهم بها ويترددون على السلفى فى مدرسته للأخذ منه وسماع الحديث عليه ، ومن هؤلاء :

أبو العباس أحمد بن عمار النابلى — من نابل إقليم بين تونس وسوسة — ذكر السلفى أنه كتب عنه شيئاً من الحديث .

وأبو محمد عبد الله بن سليمان بن منصور التاهرتى — من أهل تاهرت إحدى مدن المغرب — قال السلفى فى ترجمته :

« كان من الفضلاء فى الفقه والأدب ، وله شعر ، وكتب عنى من الحديث كثيراً سنة ٥٢٧ بعد رجوعه من الحجاز » ، ثم نص على أنه روى عنه هذه الأحاديث التى سمعها فى المغرب بعد عودته إليه ، قال : « ثم رجع إلى المغرب وروى عنى هناك » .

وأخذ عنه من علماء الأندلس أبو الوليد يوسف بن المفضل القبذاقى ، وذلك بعد رجوعه من الحجاز وهو فى طريق العودة إلى الأندلس . ولم يقنع القبذاقى بالأخذ عن السلفى ، بل سأله أن يكتب إجازة لسلطان المغرب فى ذلك الوقت الأمير تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين ، فكتبها له .

وأخذ عنه من علماء بلنسية بالأندلس أبو الحسن طارق بن موسى بن يعيش البلنسى ، قال السلفى فى ترجمته :

« كان من أهل الصلاح وقد أقام بالإسكندرية مُدَيْدة ، وسمع على جماعة من شيوخها بقراءتى وبقراءة غيرى وكتب عنى كثيراً » ، ثم نصّ على أنه روى عنه بالأندلس بعد عودته إليها ، قال : « ثم رجع إلى الأندلس وروى بها ما سمعه علىّ وعلى غيرى » .

وممن تتلمذ عليه من أدباء صقلية أبو محمد عبد الله بن أحمد بن يحيى الصقلى ، ذكر السلفى أنه كان يقرأ عنده فى المدرسة العادلية ، ثم قال :

« وله فىّ قصائد » .

وكان بعض تلاميذه يفدون إلى الإسكندرية خصيصاً للسماع عليه ، ومن هؤلاء أبو الحسن على بن محمد بن أبى ذُرّة المخزومى الحجازى ، قال السلفى فى ترجمته :

« شاب من أهل الفقه ، قصدنى من مكة إلى الإسكندرية ، وبقى مديدة يسمع الدروس الفقهية ، ويسمع أجزاء حديثية وكتبها ، ورجع إلى الحجاز » .

أما التجار العلماء الذين أخذوا عن السلفى أثناء مقامه فى الإسكندرية فإنهم من الكثرة بحيث لا يمكن إحصاؤهم ، ولكن يجمع بين الكثيرين منهم أنهم ممن رحلوا فى أطراف الأرض وطوّفوا فى أنحاء العالم ، ولا شك أنهم كانوا أداة طيبة لنشر علم السلفى فى كل البلاد التى رحلوا إليها ، وقد ترجم السلفى لهؤلاء التلاميذ من التجار فى كتابه معجم السفر ، فقال فى ترجمة أبى الفرج مهران بن على القرميسينى التاجر بالإسكندرية :

« كان من رؤساء التجار ذا همة نفيسة ، وكان لى به أنس كثير ، قلّ يومٌ يمضى لا يجىء إلىّ ، وقد سمع بقراءتى على جماعة من الشيوخ وعلىّ ».

ثم قال :

« وكان قد تجوّل فى مدن العراق ، والجبل والشام ، واليمن ، وبلاد الهند فى التجارة » .

وتتلمذ عليه عبد الرحمن بن أبى شيبة الكنانى العسقلانى ، وكان قد دخل بلاد اليمن ، وبلاد الهند فى التجارة ، وقال عنه :

« وكان يحضر عندى لسماع الحديث » .

وتلميذ ثالث تاجر ممن أخذ عليه الحديث ، وهو أبو المظفر عبد الرشيد الخجندى « وهو تاجر ممول ، سافر إلى بلاد الترك ، ودخل الصين وبلاد الهند ، وأكثر أقاليم الدنيا » .

وتلميذ رابع عُرف لكثرة رحلاته بالسايح ، وهو أبو محمد عبد الله أبى الطيب الفيونشى ، مغربى الأصل ، وقد لقى فى سياحته سادة من شيوخ المغرب وديار مصر والشام وديار بكر ومصر والعراق والحجاز ، وصحبهم ، ثم استوطن الإسكندرية ، وكانت له فيها آثار حسنة ، فقد بنى فيها مسجداً وصهريجاً للسبيل .

لهذا كله لم يكن غريباً أن يقول ابن خلكان فى ترجمته للسلفى وتأريخه للمدة التى أقامها فى الإسكندرية :

« وأقام به — أى بثغر الإسكندرية — وقصده الناس من الأماكن البعيدة ، وسمعوا عليه ، وانتفعوا به ، ولم يكن فى آخر عمره فى عصره مثله » .

١٠

ولم يشغل التدريس الحافظ السلفى عن التأليف ، فصنف كتباً كثيرة ، كلها فى علم الحديث ، أو ما يتصل به من الترجمة للرجال ، فمن مؤلفاته فى الحديث :

— كتاب « السداسيات فى الحديث » ذكره صاحب كشف الظنون .

— و « أجزاء السلفيات » وهى مجموعة الأحاديث التى رواها عن غيره من الحفاظ ،، ذكرها صاحب كشف الظنون وقال :

« وجملتها تزيد على مائة جزء » .

— وله « كتاب الأربعين البلدانية » وهو مجموعة تضم أربعين حديثاً . وقد كان التقليد المتبع لدى الحفاظ وعلماء الحديث فى تلك العصور أن يؤلف كل منهم كتاباً يضم أربعين حديثاً ، ويرجع الأصل فى هذا التقليد إلى ما روى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من أنه قال :

« من حفظ على أمتى أربعين حديثاً فى أمر دينها بعثه الله تعالى يوم القيامة فى زمرة الفقهاء والعلماء » .

ورغم أن الكثيرين يضعفون هذا الحديث ، فقد راح كل محدث يصنف لنفسه مجموعة أربعينية ، واختلفوا فى الأسس التى اعتمدوا عليها بجمع الأربعينيات هذه ، فمنهم من جعلها شاملة للمواعظ والرقائق . ومنهم من اختار أحاديث التوحيد ، أو أحاديث الأحكام .

أما السلفى فقد كان مجدداً فى اختياره للأربعين حديثاً ، فجمع فى كتابه الأربعينى أربعين حديثاً ، رواها عن أربعين شيخاً ، قابلهم فى أربعين مدينة ، وقد اقتدى بالسلفى معاصره الحافظ ابن عساكر الدمشقى ، وزاد عليه فجعل أربعينه مروية عن أربعين من الصحابة . قال صاحب كشف الظنون .

« فصار أربعين ، من أربعين ، لأربعين ، فى أربعين ، عن أربعين إذا اعتُبرت تخرج فى أربعين باباً ، كل حديث إذا جمع إليه ما يناسبه صار كتاباً » .

وكان من أدوات المحدث الهامة أن يكون على علم تام بالرجال ، أى رجال الحديث وتراجمهم ليتعرف على الثقات والضعفاء منهم ، ولهذا كان من تقاليد علماء الحديث أن يؤلفوا فى تراجم الرجال كتباً ، وقد ألف السلفى ثلاثة معاجم لشيوخه الذين أخذ عنهم :

المعجم الأول لشيوخه فى أصفهان .

والثانى لشيوخه فى بغداد .

والثالث معجم السفر ، ترجم فيه لعلماء الإسكندرية وللعلماء الذين قابلهم وأخذ عنهم أثناء تجواله ورحلاته الكثيرة .

١١

وكان السلفى كثير القراءة ، إذا فرغ من دروسه لا يشغله شىء غير الكتاب ، قال الحافظ عبد القادر الرهاوى :

« وما كنا نكاد ندخل عليه إلا نراه مطالعاً فى شىء » .

وقال السبكى :

« وكان السلفى مغرماً بجمع الكتب ، حصّل منها الكثير ، وكتب بخطه لا سيما من الأجزاء ما لا يعد كثرةً » .

ولهذا لم يكن السلفى رغم مكانته العلمية يتردد فى أن يأخذ على بعض من يتتلمذون عليه ، وأن يقرأ عليهم بعض كتبهم التى ألفوها ، أو كتباً أخرى قرأوها هم على غيره من أعلام الفكر الآخرين ، ثم كان يستهديهم هذه الكتب ، أو يستكتبهم نسخاً منها ليضمها إلى مكتبته الضخمة ، قال فى ترجمته لأبى تمام كامل بن ثابت ابن عمار الصورى الفرضى بمصر أنه :

« كان كاملا فى فنون العلم ومنها الفرائض والحساب » .

ثم ذكر أنه أخرج له مرة كتاباً من تأليفه فى علم الفرائض ، وأنه قرأه عليه ، ثم قال :

« وهو الآن عندى » .

وكان من تلاميذه فى الإسكندرية مؤرخ مغربى ، هو أبو الحسن على بن عبد الله بن محبوب الطرابلسى ، قال فى ترجمته :

« وكان له اهتمام بالتواريخ ، وصنّف لطرابلس توريخاً وقفت عليه ، وانتخبت منه ما استغربته ، وحدثنى به » .

وكان يتردد عليه فى مدرسته أبو الحسن على بن سند بن عباس الغسانى ، وهو ممن طوّفوا فى البلاد طلباً للعلم ، وأخذ عن حجة الإسلام أبى حامد الغزالى ، قال السلفى فى ترجمته :

« وخطه غاية فى الجودة ، وكان لى به أنس تام ، ونسخ لى أجزاء من جملتها كتاب بداية الهداية لأبى حامد الغزالى » .

ولم يكن السلفى يقنع باستنساخ الكتب لنفسه ، بل كان يتتبع تركات الكتب التى تباع بعد موت أصحابها ، فيشترى منها الكثير ليضمه إلى مكتبته الضخمة ، فقد ختم ترجمته لأبى الحسن الغسانى بقوله :

« وعندى بخطه مجلدات انتقلت إلىّ من تركة أبى عبد الله الروحى وغيره ، ومنها أعلام الصحيح لأبى سليمان الخطابى » .

وقال فى ترجمة عالم آخر من علماء الإسكندرية :

« وكان معتنياً باقتناء الكتب ، وخلف منها ما لم يخلّف غيره بالإسكندرية وانتقل إلىّ منها بالبيع جملة كثيرة » .

وتحقيقاً لنفس الغرض كان السلفى على معرفة أكيدة بجميع الوراقات الموجودة فى الإسكندرية ، كما كانت تربطه بوراقى المدينة صلات الصداقة ، يترددون على مدرسته للأخذ عنه ، ويتردد هو عليهم لانتقاء الكتب وشرائها أو استنساخها ، فهذا أبو الحسن على بن محمد الجيزى الكتبى بالثغر يقول عنه السلفى :

« كان أعرف الناس بالخطوط وأثمان الكتب ، وقد اشتريت منه كثيراً وعلّقتُ عنه فوائد أدبية وحكايات » .

وكتبى آخر بالإسكندرية اسمه أبو عبد الله بن سعد الخولانى ، قال السلفى فى ترجمته :

« كان حسن الخط ، ومن الدنيا قليل الحظ ، مائلا إلى الآداب وإلى

شعر الشعراء ورسائل الكتاب ، حفظة لذلك ، حسن الإيراد جيد الانتقاد ، وقد كان لى منه أنس تام بالثغر . . . وجلّد لى مجلدات ، ونسخ لى جزئيات ، وأبوه أندلسى استوطن الإسكندرية وبها توفى » .

وقال فى ترجمة أبى الحسين يحيى بن عساكر :

« شاعر مفلق ، وله إلىّ قصائد ، ثم صار خطيب جامع الثغر ، وراقته وراقة حسنة ، وخطه غاية فى الجودة »

١٢

وكان السلفى بعد هذا متصلا اتصالاً وثيقاً بكبار رجال الفكر والعلماء والأدباء والشعراء الذين عاصروه مدة مقامه فى مصر ، وكانت تربطه بهم صلات الود والصداقة ، يسعى إليهم ويسعون إليه ، ويعقد وإياهم حلقات لتبادل الآراء أو لإنشاد الشعر ، ومن هؤلاء العالم النحوى اللغوى الكبير أبو الحسن على بن عبد الجبار الهذلى وصفه السلفى بأنه :

« كان إماماً فى اللغة حافظاً لها ، حتى إنه لو قيل لم يكن فى زمانه ألغى منه لما استبعد ، وكانت له قدرة على نظم الشعر » .

ثم قال :

« وله إلىّ قصائد ، وقد أجبته عنها » .

ومنهم عالم القراءات الكبير أبو القاسم عبد الرحمن بن عتيق الصقلى المعروف بابن الفحام وصفه السلفى بأنه :

« كان حافظاً للقراءات ، صدوقاً متقناً عالماً ، وكان من كبار القراء ، وممن رحل من المغرب إلى المشرق فى طلب القراءة على الشيوخ » .

ثم قال :

« وقد علقت عنه فوائد ، وله تأليف حسن سمّاه " التجريد فى بغية المريد " كتبت أنا منه أسانيد كل قراءة » .

واتصل السلفى بكثير من أدباء مصر وشعرائها ، مثل القاضى أبى الحسين أحمد

ابن على بن الزبير الأسوانى الشاعر المشهور ، ذكر السلفى فى ترجمته أنه :

« كان من أفراد الدهر فاضلا فى فنون كثيرة من العلوم ، ومن بيت كبير بصعيد مصر والمموليين ، ولى النظر بثغر الإسكندرية فى الدواوين السلطانية بغير اختياره ، وأرضى الناس وبالخصوص الفقهاء فى جواريهم سنة ٥٥٩ ، وله تواليف ونظم ونثر التحق فيها بالأوائل المجيدين الأفاضل » .

ثم قال :

« وكان يحضر عندى ، وقرأ علىّ كثيراً ، وكان يقول : قد هان علىّ ما أنا فيه من التشاغل بالمكوس فى مقابلة ما آخذه عنك من الحديث بعد فراغك من الدروس » .

واتصل السلفى بكبير شعراء الإسكندرية فى ذلك الوقت أبى المنصور ظافر الحداد ، ووصفه بأنه كان من مفلقى شعراء ديار مصر ، وقال :

« وقد كتب لى من شعره غير قصيدة بخطه ، وكتبت أنا عنه أيضاً بخطى بمصر ، وقبل ذلك بالإسكندرية مقطعات وقصائد ، وكاتبته وأجاب عنه بشعر هو عندى » .

وكان بمصر أثناء مقام السلفى بها أديب كبير وكاتب مقامات هو أبو القاسم هبة الله بن عبد المحسن الطائى لا نكاد نعرف عنه شيئاً إلا ما ذكره السلفى من أنه كان :

« من أهل الأدب وله شعر فائق ، وقد أنشأ مقامات على طريقة البديع الهمذانى والحريرى والبصرى » .

ثم قال :

« وسمعناها عليه بالإسكندرية ، وكان قد وُلِّى بها خدمة سلطانية » .

أما أديب مصر وكبير كتاب الإنشاء فى أواخر العصر الفاطمى على بن منجب ابن الصيرفى فقد رآه السلفى وراسله ، ، ولكنه لم يوفق لمقابلته ، فقد قال فى ترجمته :

« ابن الصيرفى من أجلاء الكتاب وأعيان أهل الأدب ، وله مجموعات ، رأيته بمصر سنة ٥١٥ ولم يتفق الحديث معه ، وحين عزمتُ على الخروج كتبت إليه فى إثبات أبيات من نظمه بخطه ، فكتب فى الجواب :

وأما ما استدعاه من شعرى فوالله ما تعرضت قط للنظم » .

وكتاب « معجم السفر » للسلفى يضم تراجم كثيرة لعدد كبير من شعراء الإسكندرية فى القرن السادس الهجرى ، مما يدل دلالة واضحة على ازد هار الحياة الفكرية والأدبية فى الإسكندرية فى عصر السلفى ، وقد عرف معظم هؤلاء الشعراء للسلفى مكانته العلمية ، فقالوا القصائد الكثيرة فى مدحه والإشادة بعلمه ، وقد دأب السلفى على النص على هذه الحقيقة ، فهو يقول فى ترجمته هذا الشاعر أو ذاك :

« وله فىّ قصائد » أو « له فىّ قصائد جمة » أو « وله فىّ مقطعات وشعر كثير » أو « وله فىّ من القصائد ما يزيد على خمسين قصيدة » .

وقد ضمن كتابه نماذج من هذا الشعر .

ومما يستحق الالتفات أن النشاط الفكرى فى الإسكندرية على عصر السلفى لم يكن مقصوراً على الرجال وحدهم ، بل شاركت فيه المرأة مشاركة واضحة ، وقد ترجم السلفى فى « معجم السفر » لعدد من نساء المدينة المشتغلات بالعلم أو الأدب أو الشعر ممن أخذ هو عنهن أو ممن أخذن عنه ، وفى مقدمتهن محدثة كبيرة اسمها عائشة أو ترفة بنت أحمد بن إبراهيم الرازى ، روى السلفى عنها وقال :

« عائشة هذه محدثة ، وابنة محدث ، وأخت محدث ، وكانت صالحة ، قرأنا عليها سنة ٥٣٤ » .

أما أختها الأخرى — وكانت محدثة أيضاً — ، فاسمها خديجة ، وكانت تدعى بمليحة ، روى عنها السلفى كما روى عن أختها ، وقال فى ترجمتها :

« خديجة هذه أبوها محدث ، وأخوها محدث ، وقد حدثت أختها كما حدثت هى ، ومن شيوخها ابن عبد الولى ، وابن الدليل ، وأبوها ، ولها من أبى الوليد أبى محمد إجازة ، وقد قرأنا عليها عن هؤلاء كلهم ، توفيت سنة ٥٢٦ وهى بكر لم تتزوج قط ، ووصت أن أصلى عليها — رحمها الله ورضى عنها — وكانت فى حياتها تصلى طول الليل ولا تنام إلا عن غلبة » .

وأخذ السلفى عن سيدة أخرى بمصر اسمها الخضرة بنت المبشر بن فاتك الدمشقى ، وكانت تدعى جديدة ، قال السلفى :

« وقرأنا نحن عليها عن أبي الحسن بن الطفال النيسابورى ، وأبى طاهر ابن سعدون ، وأبى الفيض ذى النون بن أحمد العصار المصرى ، وغيرهم » .

ومن شاعرات الإسكندرية المجيدات تقية بنت غيث بن على الأرمنازى الصورى وكانت تدعى ست النعم ، قال السلفى :

« ولها شعر جيد ومعانٍ حسنة ، وقد مدحتنى بقصائد كثيرة ، ولم أرَ قط شاعرة سواها » .

١٣

وكانت للسلفى فى المجتمع السكندرى مكانة ممتازة ملحوظة ، وكان كبار رجال الدولة وموظفى المدينة يسعون إليه وإلى صداقته ، ويبجلونه ويحترمونه الاحترام كله ، فاتصل به من قضاة الإسكندرية : القاضى الشيعى أبو الوفا صادق بن عبد الله ابن كامل الأنصارى ، وصفه السلفى بأنه كان :

« من أهل الوفاء ، حسن العشرة ، عارفاً بالأحكام ، ولى قضاء الإسكندرية مدة ثم استشهد » .

واتصل به أيضاً قاضى الإسكندرية المالكى أبو طالب أحمد بن عبد المجيد ابن حديد ، قال السلفى فى ترجمته :

« أبو طالب هذا قلّ ما يرى مثله فى أبناء جنسه رياسة دينية وسياسة وفضلا ونبلا ، وكان سنيًّا مالكى المذهب عريق الرياسة » .

ونقل السلفى فى معجم السفر بعض الأخبار عن والى الإسكندرية أبى منصور قسطة الآمرى ووصفه بأنه كان :

« من عقلاء الأمراء المائلين إلى العدل ، المثابرين على مطالعة الكتب ، وأكثر ميله إلى التواريخ وسير المتقدمين ، وكانت بينى وبينه مودة ومكاتبة » .

وكان السلفى أثناء اتصاله بهؤلاء الرجال الرسميين حريصاً الحرص كله ، فهم فى معظمهم شيعة ، والدولة شيعية ، وهو سنى شافعى ، ولهذا كان يُغْضى عن مذهبهم ، ويقنع بصلات الود والصداقة التى تربطه بهم ، ويبعد ما استطاع أن

يخوض وإياهم فى مناقشات دينية أو مذهبية ، وإذا أحرج واستطردوا أمامه فى مناقشة من هذا النوع حاول بذكائه ولباقته أن يخرج من هذا الحرج دون أن يؤذى شعورهم ، روى هو خبر مناقشة من هذه المناقشات جرت بينه وبين والى الإسكندرية فى أواخر العصر الفاطمى الأمير همام بن سوار اللخمى — أخى الوزير ضرغام — قال :

« قال لى يوماً الأمير همام بمحضر من جماعة من الأمراء : ما الخلفاء عندى سوى العلماء » .

وكأنه كان يستدرجه بهذا ليعرف رأيه فى الخلفاء الفاطميين ولكن السلفى كان لبقاً ، فقال :

« ما أبعد الأمير وفقه الله ، فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : اللهم ارحم خلفائى ، قالوا : يا رسول الله : ومن خلفاؤك ؟ ، قال : قوم يأتون من بعدى يروون أحاديثى وسنتى ويعلمونها الناس ، لكن النبي عليه السلام لما توفى ورّث العلمَ والسيفَ ، فالعلم للعلماء يقولون ما أمر به الشارع ، والسيف للأمراء وجيوش الإسلام يأتمرون ذلك ، لكن بين من يقول أفعل ، وبين من فعل بون بعيد وفرق ظاهر ، ونحن الآن وأنتم وإن اختلفنا فى الزى فوارثان لإرث النبوة ، وكجسم واحد » .

ويعقب السلفى على هذا الحديث بقوله :

« فاستحسنوا وأثنوا بخير ، وأرضيتهم بهذا الفصل خوفاً من التشعيث » .

بهذه اللباقة ، وبهذا الأسلوب فى المناقشة والإقناع استطاع السلفى أن يتمتع برضا الجميع ، وبحب الكبار قبل العامة ، يؤيد هذه الحقيقة قول السبكى :

« وكان له عند ملوك مصر الجاه والكلمة النافذة ، مع مخالفته لهم فى المذهب ، وكان لاتبدو منه جفوة لأحد » .

وقد عاصر الحافظ السلفى أثناء مقامه فى مصر عدداً كبيراً من خلفاء الفاطميين ، فقد وصل إلى الإسكندرية فى عهد الخليفة الآمر ، وشهد الدولة فى أخريات أيامها وهى تنحدر نحو الضعف والانحلال فى عهود الخلفاء الحافظ والظافر والفائز والعاضد ، ثم شهد زوال الدولة وقيام دولة صلاح الدين ، ولا شك أنه فرح الفرح

كله بقيام الدولة الجديدة ، فهى دولة سنية مغالية فى تسننها ، وقد عرف صلاح الدين وأمراء أسرته للسلفى مكانته ، وسعوا إليه فى الإسكندرية — وقد امتد به العمر وأشرف على المائة — ليستمعوا إليه ويأخذوا عنه الحديث ، فقد روت المراجع أن صلاح الدين خرج إلى الإسكندرية فى أواخر شعبان سنة ٥٧٢ وفى صحبته ولداه الأفضل على والعزيز عثمان وكبار رجال الدولة ، وقضوا هناك شهر رمضان وسمعوا فيه الحديث على أبى الطاهر أحمد السلفى وذكر المقريزى فى كتاب السلوك أن ممن سمع الحديث عن السلفى الملك العادل أبو بكر أخو صلاح الدين .

١٤

ومع هذا كله كان السلفى يلتزم خلق العلماء المصلحين الأوائل ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وإذا رأى منكراً عمل على إزالته ومنعه ، قال الحافظ عبد القادر :

« كان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، أزال من جواره منكراً كثيراً »

ثم ضرب مثلا لبعض المنكر الذى أزاله فقال :

« جاء جماعة من المقرئين بالألحان ، فأرادوا أن يقرأوا ، فمنعهم من ذلك ، وقال : هذه بدعة ، بل اقرأوا ترتيلا ، فقرأوا كما أمرهم » .

وقد استطاع السلفى بأسلوبه وشخصيته أن ينقذ كثيراً من الضالين ، فتاب على يديه عدد من أهل الإسكندرية عن بعض المعاصى التى كانوا يقارفونها ، قال السلفى فى ترجمة أبى الحسن على بن عبد المعطى :

« كان يحفظ من الشعر كثيراً ، وكان من أذكى البرية . . . وكانت له صبوة — أى كان يشرب الخمر — ثم تاب على يدىّ » .

ثم استطرد قائلا :

« وكان يجلب إلىّ واحداً بعد واحد فيتوبون عن الشرب وغيره » .

أما العامة من أهل البلد فكانوا يعتقدون فيه الولاية لصلاحه وتقواه ، وروى من أخباره أنه كان إذا اشتد الطلق بامرأة من أهل الإسكندرية أثناء وضعها جاء أهلها إلى السلفى فيكتب لهم ورقة تعلق عندها فتتخلص بإذن الله ، ولم يكن السلفى

بعمله هذا دجالا ، ولم يكن وهو العالم المتمكن يعتقد فى نفسه قدرة خارقة أو يؤمن بهذه الخرافات ، ولكن كان يرى أن هذه الورقة تطمئن من نفوس العامة وتؤثر فى الوالدة تأثيرًا نفسيًّا خاصًّا ، لهذا لم يكن يحجم عن كتابتها ، بدليل أن راوى القصة قال :

« إن القوم كشفوا مرة عن ورقة من هذه الورقات فوجدوه قد كتب فيها دعاء لطيفًا قال فيه : اللهم إنهم ظنوا لى خيرًا فلا تخيبنا ولا تكذِّب ظنهم » .

١٥

وفى صبيحة يوم الجمعة الخامس من شهر ربيع الآخر سنة ٥٧٦ بلغ الكتاب أجله ، وانتقل عالم الإسكندرية الجليل وحافظها أحمد بن محمد السلفى إلى جوار ربه بعد أن جاوز المائة من عمره ، وقد ظل حتى آخر لحظة من حياته حافظًا لكل قواه العقلية ، حقيقة كانت السن قد نالت منه ، وكانت أعظمه قد جفت ، وكانت
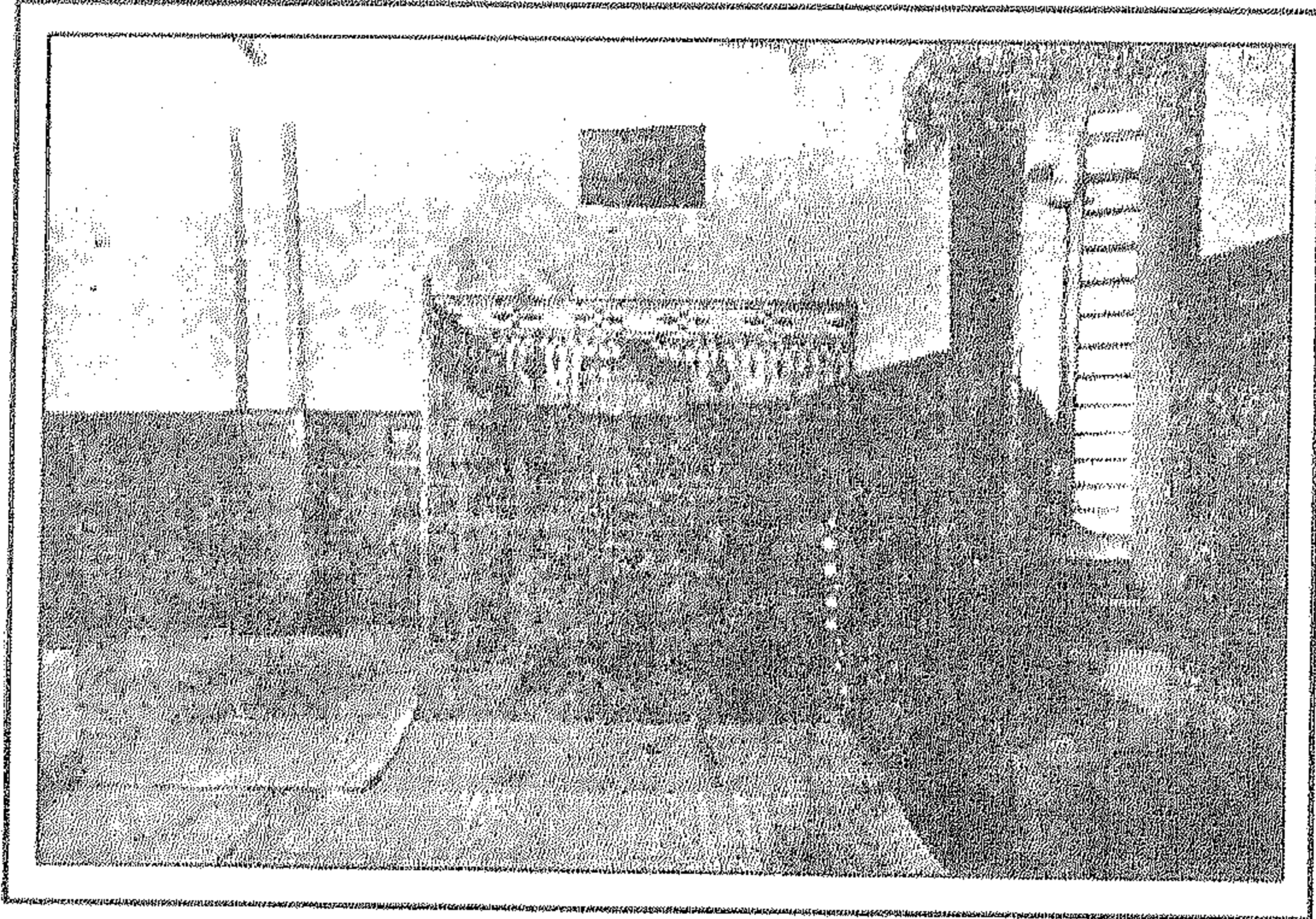
- مسجد سند بن عنان من الداخل

(وتقول الرواية الشعبية إن الحافظ السلفى مدفون بجوار الضريح الظاهر فى الصورة)

حركته قد قلت ، ولكنه ظل حاضر الذهن ، وقد قال هو بيتين من الشعر يصف حالته فى أيامه الأخيرة . قال :

أنا إن بان شبابى ومضى ، فلربى الحمدُ ذهنىَ حاضرُ
ولئن َخفتْ وَجفَّتْ أعظمى كبرا ، غصنُ علومى ناضرُ

وظل السلفى يدرس حتى آخر لحظة من حياته ، قال السبكى :

« ولم يزل يُقرأ عليه الحديث إلى أن غربت الشمس من يوم وفاته وهو يرد على القارئ اللحن الخفى ، وصلى يوم الجمعة الصبح عند انفجار الفجر ، وتوفى عقيبه فجأة » .

ودفن السلفى فى الإسكندرية فى مقبرة وَعْلَة قريباً من داره التى كان يسكنها قال ابن خلكان :

« وهى مقبرة داخل السور عند الباب الأخضر فيها جماعة من الصالحين كالطرطوشى وغيره » .

ومن العجيب أن هذا العالم الكبير الذى بنى للإسكندرية مجداً علمياً لا يبلى قد بليت مدرسته وبلى قبره ، فلا نكاد نجد لهما أثراً فيها اليوم ، وإن كان بعض أهالى الإسكندرية يرجحون أنه مدفون داخل مسجد القاضى سند بن عنان أمام القبلة ، وهو قول يحتاج إلى بحث للتأكد من صحته .

وبعد ، فهذا هو عالم الإسكندرية وحافظها فى القرن السادس الهجرى ، الحافظ أحمد بن محمد السلفى ، وقد أجمع مؤرخوه على وصفه بالفضل والتقى والورع والشجاعة ، وعقدوا له جميعاً لواء الزعامة على محدثى عصره قاطبة ، قال الحافظ ابن نصر :

« كان السلفى ببغداد كأنه شعلة نار فى تحصيل الحديث » .

وقال ابن نقطة :

« كان حافظاً ثقة ، جوالا فى الآفاق ، سأّلا عن أحوال الرجال شجاعاً » .

وقال ابن السمعانى :

« هو ثقة ورع ، متقن مثبت ، حافظ فهم ، له حظٌّ من العربية ، كثير الحديث ، حسن الفهم والبصيرة فيه » .

وقال ابن خلكان :

« لم يكن فى آخر عمره فى عصره مثله » .

وقال الذهبى :

« لا أعلم أحداً فى الدنيا حدَّث نيفاً وثمانين سنة سوى السلفى » .

وقال السبكى :

« كان حافظاً جليلا ، وإماماً كبيراً ، واسع الرحلة ، ديِّناً ورعاً ، حجة ثبتا ، فقيهاً لغويًّا ، انتهى إليه علو الإسناد مع الحفظ والإتقان» .

وقال ابن تغرى بردى :

« وكان طاف الدنيا ولقّى المشايخ ، وكان يمشى حافياً لطلب العلم والحديث » .

أبو الحسن الشاذلى

تقى الدين على بن عبد الجبار
(٥٩٣-٦٥٦هـ) = (١١٩٧-١٢٥٨م)

« عليكم بالسبب — أى العمل والسعى وراء الرزق —، وليجعل أحدكم مكوكه سبحته، أو تحريك أصابعه فى الخياطة أو الضفر سبحته »

أبو الحسن الشاذلى

« يابنى : بردّ الماء، فإنك إذا شربت الماء الساخن فقلت الحمد لله تقولها بكزازة، وإذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله، استجاب كلُّ عضو فيك بالحمد لله »

أبو الحسن الشاذلى

أبو الحسن الشاذلى

أبو الحسن الشاذلى عالم من أعلام الصوفية وقطب من أقطابهم ، ولد فى المغرب الأقصى وعاش معظم سنى حياته فى تونس ومصر ، وأنشأ مدرسة صوفية كبيرة ، ما زال أتباعها وتلاميذها ينتشرون فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى ويكونون فرقاً صوفية كثيرة تشعبت كلها عن الفرقة الأصيلة التى أنشأها ونسبت إليه وهى الفرقة الشاذلية .

ولد أبو الحسن الشاذلى فى أواخر القرن السادس الهجرى فى سنة ٥٩٣هـ فى إقليم غمارة بالقرب من مدينة سبتة بالمغرب الأقصى ، وهو الإقليم الذى ينتمى إليه ولى الله سيدى عبد الرحيم القنائى .

وهو تقى الدين أبو الحسن على بن عبد الجبار بن يوسف .

وهو حسنى علوى ، أى أن نسبه ينتهى إلى الحسن بن على بن أبى طالب .

نشأ أبو الحسن فى قبيلة غمارة وفيها تلقى علومه الأولى وحفظ القرآن ، ثم أراد أن يستزيد من العلم فرحل إلى تونس ، لقد كانت مدن المغرب الأقصى الكبيرة مثل سبتة أو مراكش أو فاس أقرب إليه من تونس ، ولكنه أعرض عنها جميعاً وأبعد فى الرحلة فذهب إلى تونس ، ولتفسير هذا لا بد من إلقاء نظرة سريعة على الحالتين السياسية والعلمية فى المغرب الأقصى وفى العالم الإسلامى بوجه عام على ذلك الوقت .

كان المذهب الشيعى قد انتصر فى القرن الرابع الهجرى ، وبانتصاره قامت دولتان شيعيتان كبيرتان أصبحت لهما السيادة فى طرفى العالم الإسلامى الشرقى والغربى ، فالدولة الفاطمية فى الغرب وتضم إليها بلاد المغرب جميعاً ومصر واليمن والحجاز والشام ، والدولة البويهية فى الشرق ولها السيادة فى العراق قلب الدولة العباسية نفسها .

وفى القرنين الخامس والسادس حدث رد فعل قوى ، وبدأ المذهب السنى يسود من جديد بعد أن ضعفت الدولتان الفاطمية والبويهية ، وقامت دول سنية كثيرة

كان هدفها القضاء على الدول والمذاهب الشيعية فى كل مكان ، فكانت دول السلاجقة والأتابكة فى الشرق ، ودولتا الأيوبيين والمماليك فى مصر والشام ، ودولة الموحدين فى المغرب والأندلس . وكان بعض حكام هذه الدول السنية مغالين فى محافظتهم على المذهب السنى ويرون فى كل الحركات والآراء الفلسفية جنوحاً نحو العودة إلى المذهب الشيعى ، فهو مذهب كان يدرس الفلسفة وعلوم الأوائل ويتأثر بها إلى حد بعيد .

وهذا العصر بعينه هو العصر الذى شهد انقسام العالم الإسلامى إلى دول كثيرة شغل بعضها عن البعض الآخر ، وهو الذى شهد ضعف هذا العالم الإسلامى وجرأة أوربا المسيحية على اقتحام ربوعه فى الشام على أيدى الصليبيين ، وفى الأندلس على أيدى الراغبين فى إعادتها إلى حظيرة المسيحية والقضاء على الدويلات الإسلامية القائمة بها .

فى هذا الجو الغريب قويت الحياة الروحية ونشط التصوف وكثر المتصوفة ، فقد أحس المجتمع الإسلامى بعجزه عن حماية نفسه من المغيرين الوافدين من الخارج ، فراح المسلمون يبحثون عن قوة عليا يلجأون إليها فى محنتهم ويحسون فى كنفها بالاطمئنان النفسى ، فلجأوا إلى التدين وأغرقوا فيه وفى العبادة والزهد ، يلتمسون فى هذا كله سكينة الروح وينسون فى رحاب الله ما يكتنفهم من عوامل الفزع والقلق والاضطراب ، ومن هنا نشطت الحركات الصوفية فى القرنين السادس والسابع ، وانقسم المتصوفة فى هذين القرنين إلى قسمين :

قسم حيِيَ حياة روحية خالصة .

وقسم خلط التصوف بالفلسفة ، والروح بالفكر .

وقد شهد المغرب عند نشأة الشاذلى به هذين النوعين من المتصوفة .

ففى مدينة فاس بالمغرب الأقصى كان يقيم فى النصف الثانى من القرن السادس الصوفى الكبير الشيخ أبو يَعْزَى بن يَلَنُّور ، وكان الناس يفدون إليه من جميع أنحاء المغرب والأندلس ، يأخذون عنه ويستمعون إليه ويلتمسون منه البركات ، وفى مقدمة من وفد عليه القطب الغوث أبو مدين التلمسانى ؛ فعاش معه سنين يقتبس من طريقته بالإقبال كل الإقبال على الصوم والزهد والصلاة والتقشف والعبادة ، حتى

إذا قبس قبسة من روح أستاذه أبي يَعْلى رحل إلى المشرق ليقبس قبسات أخريات من شيوخ التصوف هناك ، وعن سيدى عبد القادر الجيلانى قطب العراق بوجه خاص.

وعاد أبو مَدْيَن إلى المغرب فأقام فى بجاية ، وفاقت شهرته شهرة أستاذه أبى يعزى ولقبه القوم هناك بالغوث ، وتتلمذ عليه العشرات من كبار العلماء ، وفى مقدمتهم الفيلسوف المتصوف الكبير محي الدين بن عربى ، والشيخ أبو عبد الله محمد بن حَرَازِم أحد شيوخ الشاذلى .

وكانت الدولة القائمة بالحكم فى المغرب وقتذاك هى دولة الموحدين ، ومن ملوكها من كان راعياً للحياة الفكرية مشجعاً للعلماء والمفكرين ، ومنهم من كان متزمتاً مضطهداً لرجال الفكر المشتغلين بالفلسفة ، فمن أمثلة النوع الأول الخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وكان رجلا واسع الفكر محبًّا للعلم صديقاً للعلماء ، وللفلاسفة منهم بوجه خاص ، فقرّب إليه عدداً كبيراً ، وفى بلاطه عاش الفيلسوف المغربى ابن طفيل ، وهو واحد ممن حاولوا المزج بين الفلسفة والتصوف ، وهو مؤلف قصة حى بن يقظان التى حاول فيها أن يثبت أن العقل والشرع يؤديان إلى نتائج واحدة .

وابن طفيل هو الذى قدم للخليفة يعقوب صديقه الفيلسوف ابن رشد فرحب به وقربه إليه وولاه قضاء أشبيلية .

ولكن المجتمع الإسلامى فى المغرب وقتذاك لم يرض عن سياسة الخليفة الموحدى يعقوب ، فقد كان رد الفعل السنى ذا أثر قوى عليه ، لهذا كان المجتمع سنيًّا محافظاً ينكر الفلسفة والمشتغلين بها ، وقد استجاب الخليفة أبو يوسف يعقوب بن الخليفة السابق لرغبات المجتمع ، فاضطهد العلماء والفلاسفة ورجال الفكر ، وأصابتهم فى عهده محن شديدة . فاتهم ابن رشد فى عهده بالزندقة وحوكم فى سنة ٥٩١ .

واضطهد الصوفى الكبير أبو مَدْيَن وأرسل الخليفة يستدعيه من بجاية لمحاكمته ، فأتى به مكبلا بالحديد ، حتى إذا وصل تلمسان مرض ومات سنة ٥٩٤ .

هذا الجوّ الذى كان يشيع فيه ضيق الفكر ، ويسود فيه الكبت والاضطهاد والمحاكمة دفع الكثيرين من رجال الفكر والفلسفة والتصوف إلى الرحيل عن المغرب الأقصى ، وفى مقدمتهم محي الدين بن عربى ، فقد رحل عن الأندلس والمغرب

فى سنة ٥٩٨ بعد أن شهد محنة أستاذه فى الفلسفة ابن رشد وأستاذه فى التصوف أبى مدين .

لم يكن غريباً إذن أن يشيح الشاذلى بوجهه عن مدن المغرب الأقصى الكبيرة ويرحل إلى تونس ليستكمل علومه بها ، فإنه يبدو أن الجو فى تونس كان أصلح منه فى المغرب الأقصى ، وحرية الفكر والدراسة مكفولة هناك إلى حد ما ، وفيها على ذلك الوقت كان يقيم عدد كبير من أعلام المتصوفة من أمثال : الشيخ أبى محمد المهدوى ، والشيخ أبى سعيد الباجى ، وهما من تلاميذ الغوث ؛ وقد عاصر الشاذلى أثناء تلقيه العلم فى تونس هؤلاء العلماء الأعلام، ولا شك أنه اتصل بهم وتتلمذ عليهم وأخذ عنهم . وكان الجو فى تونس كلها يضوع منه شذى تعاليم أبى مدين وروحانيته ، والكل هناك من تلاميذه الذين يسلكون طريقته . وقد تأثر الشاذلى بهذا الجو تأثراً شديداً وعشق التصوف وحياة المتصوفة منذ ذلك الحين ، ومنذ تلقى الطريقة من قبل فى مدينة فاس على أبى عبد الله بن حرازم أحد تلامذة أبى مدين ولبس على يديه خرقة التصوف .

فى هذا الجو الذى كانت تتجاوب فى جنباته آراء الفلاسفة من أمثال ابن رشد وابن طفيل وابن عربى ، وتنتشر فى نواحيه روحانيات المتصوفة من أمثال القطب الغوث أبى مدين وأبى عبد الله بن حرازم وأبى سعيد الباجى ، فى هذا الجو نشأ أبو الحسن الشاذلى نشأته الأولى ، وتلقى علومه الأولى ، ولكنه لم يكد يبلغ سن الشباب حتى أحس أن غلته لم تشف وأن ظمأه للعلم والمعرفة لم يشبع ، فاعتزم الرحلة إلى الشرق ، لأداء فريضة الحج وزيارة الأرض الطيبة المقدسة والقبر الطاهر أولا، ثم لإتمام علومه واستكمال دراسته على أيدى شيوخ الشرق ثانياً .

ولسنا نعرف متى رحل الشاذلى رحلته المشرقية الأولى على وجه التحديد ، ولكننا نحسبه بدأها حوالى سنة ٦١٥ ﻫ وهو فى نحو الثانية والعشرين من عمره ، فإننا سنسمع بعد قليل أنه قابل شيخه أبا الفتح الواسطى فى العراق فى سنة ٦١٨ ﻫ .

بدأ الشاذلى رحلته فدخل مدينة الإسكندرية، ومر بأرض مصر ثم دخل الحجاز فأدى الفريضة، ثم زار فلسطين والشام والعراق، وكان فى كل بلد يزوره يقصد من بها من العلماء والفقهاء يأخذ عنهم ويستمع إليهم ، وكان أكثر اتصاله بالعباد والزهاد

والمتصوفة ، وكان أكثر تأثره فى رحلته هذه بالشيخ أبى الفتح الواسطى وهو من أكبر تلاميذ سيدى أحمد الرفاعى وكانت له منزلة عظيمة عند الرفاعية مما دعاهم إلى إرساله إلى مصر ليعمل على نشر طريقتهم فيها ، ووصل أبو الفتح إلى الإسكندرية فى سنة ٦٣٠ ، وأقام بها مدة يعظ الناس ويدعوهم إلى طريقته ، وكان يلقى دروسه فى مسجد العطارين ، وقد قامت بينه وبين علماء الإسكندرية وفقهائها مساجلات وخصومات علمية كثيرة ، وتوفى بالإسكندرية فى سنة ٦٣٢ وما زال ضريحه موجوداً بالقرب من ضريح أبى الدرداء .

وقد حزن الرفاعية فى العراق حزناً بالغاً لوفاة الشيخ أبى الفتح الواسطى ، واختاروا قطباً آخر كان يقيم بينهم فى ذلك الوقت وأرسلوه إلى مصر ليتزعم طائفة الرفاعية بها ، وسيكون لهذا القطب شأن كبير فيما بعد وسينشئ له طريقة جديدة ، ذلك هو القطب الكبير سيدى أحمد البدوى ، فقد أرسله الرفاعية فى سنة ٦٣٥ من العراق إلى مصر ليشرف على شؤون الأتباع بها .

على هذا الشيخ العالم الكبير أبى الفتح الواسطى أخذ الشاذلى أثناء مقامه فى العراق ، واعترف أنه لم يلق هناك من العلماء من هو خير منه قال : « دخلت العراق ولقيت جملة من المشايخ فلم أر أحسن من الشيخ أبى الفتح الواسطى » .

وقد كان الشاذلى أثناء تقلبه فى بلدان الشرق لا يسعى لطلب العلم وحده ولكنه كان يبحث عن ضالته المنشودة ، يبحث عن القطب ، وللقوم آراء وأقوال كثيرة فى القطب ، فأول من قال به وتحدث عنه من المتصوفة « ذو النون المصرى » ، ويبدو من أقوال المتصوفة أن الأقطاب فى كل وقت كثيرون ، وأن الرئاسة دائماً على هؤلاء الأقطاب لقطب واحد مفرد هو ما يلقبونه بالقطب الغوث . يبدو هذا واضحاً فى حديث الشاذلى نفسه لأحد تلاميذه وهو شمس الدين بن كتيلة .

روى ابن كتيلة أنه كان جالساً يوماً بين يدى أستاذه الشاذلى فخطر له أن يسأله عن القطب فقال له :

« يا سيدى ما معنى القطب ؟ »

فقال الشاذلى :

« الأقطاب كثيرة ، فإن كل مقدم قوم هو قطبهم . أما القطب الغوث الفرد الجامع فهو واحد » .

وقد عرّف صاحب المفاخر القطب الغوث بأنه رجل عظيم وسيد كريم ، يحتاج إليه الناس عند الاضطرار فى تبيين ما خفى من العلوم المبهمة والأسرار ، ويطلب منه الدعاء لأنه مستجاب الدعاء ، لو أقسم على الله لأبرّه ، ولا يكون القطب قطباً حتى تجتمع فيه جميع صفات الأقطاب الذين هو رئيسهم » .

عن هذا القطب كان يبحث الشاذلى أثناء تجواله فى الشرق ، فلما اطمأنت نفسه إلى شيخه أبى الفتح الواسطى فاتحه بدخيلة نفسه وحدثه عن أمنيته ، ولكن الشيخ أبا الفتح أخبره أن القطب فى وطنه الأصلى ، فى المغرب ، فإن كان يبحث عنه حقيقة فليعد إلى المغرب ، واستمع أبو الحسن إلى نصيحة شيخه وعاد إلى المغرب ، وظل يوالى الرحلة والبحث إلى أن التقى بالقطب ، إلى أن التقى بشيخه وأستاذه الأكبر الذى أخذ عنه الطريق ولبس على يديه خرقة التصوف ، والذى ظل ينتسب إليه ، وهو الشيخ عبد السلام بن مشيش .

ويستطرد الشاذلى فى وصفه لمقابلته الأولى مع الشيخ أبى الفتح الواسطى فيقول :

« وكنت أطلب القطب فقال لى : أتطلب يا على القطب بالعراق وهو ببلاد المغرب ؟ ارجع إلى المغرب فإنك تجد القطب هناك ، فرجعت إلى المغرب واجتمعت بأستاذى عبد السلام بن مشيش » .

وبعد رحلة طويلة قابل الشاذلى أستاذه القطب سيدى عبد السلام بن مشيش ، وكانت مقابلته الأولى له فى رأس جبل حيث يقيم مرابطاً ومتفرغاً للعبادة .

وقد روى الشاذلى خبر هذه المقابلة قال :

« لما قدمت عليه وهو ساكن برباطه برأس جبل ، اغتسلت وخرجت من علمى وطلعت إليه فقيراً ، وإذا به هابط علىّ ، فلما رآنى قال : مرحباً بعلى بن عبد الله ابن عبد الجبار ، وذكر نسبى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا على : طلعت إلينا فقيراً من علمك وعملك ؟ أخذت منا علمى الدنيا والآخرة ، فأخذنى الدهش ، وأقمت عنده أياماً إلى أن فتح الله على بصيرتى ، ورأيت له خوارق عادات وكرامات » .

استقرت نفس الشاذلى إذن ، فقد قابل القطب الغوث ، وأدلى إليه بآية القطبية منذ اللحظة الأولى فقد ناداه باسمه ونسبه مكتملا ، ووعده بأن يلقنه علمى الدنيا والآخرة ، لهذا لزم الشاذلى أستاذه ملازمة تامة منذ هذه اللحظة يأخذ عنه ويتتلمذ عليه ، فماذا أخذ الشاذلى عن ابن مشيش ؟

أخذ عنه حب الله والفناء فى هذا الحب ، فهو القائل :

« أدمن على الشرب والمحبة وكأسهما مع السكر والصحو ، كلما أفقت أو تيقظت شربت . حتى يكون سكرك به . وحتى تغيب بجماله عن المحبة وعن الشرب والشراب والكأس ، بما يبدو لك من نور جماله وقدس كماله وجلاله » .

وأخذ الشاذلى عن أستاذه ابن مشيش الإيمان والإيمان القوى الكلى بالله حتى يجد الله فى كل شىء فهو القائل :

« انظر ببصر الإيمان تجد الله فى كل شىء ، وعند كل شىء ، ومع كل شىء ، وقبل كل شىء ، وبعد كل شىء ، وفوق كل شىء ، وتحت كل شىء وقريباً من كل شىء ، ومحيطاً بكل شىء ، بقرب هو وصفه ، وبحيطة هى نعته ، وعدْ عن الظرفية والحد ، وعن الأماكن ، وعن الصحبة والقرب والمسافات ، وعن الدور بالمخلوقات ، وامح الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو هو هو ، كان الله ولا شىء معه ، وهو الآن على ما عليه كان » .

وأخذ بن مشيش تلميذه الشاذلى بأن يعرض عن الخلق وأن يلجأ إلى الله وحده ، روى الشاذلى أنه كان فى إحدى سياحاته فأتى غاراً يبيت فيه فسمع رجلا يتحدث ، فعجب من وجود إنسان فى هذا المكان المنعزل المهجور ولكنه لم يشأ أن يقلق هذا المتحدث فى الليل ، فبات عند مدخل الغار فلما كان السحر تيقظ أبو الحسن فسمع الرجل يدعو ربه بقوله :

« اللهم إن أقواماً سألوك إقبال الخلق عليهم وتسخيرهم لهم ، اللهم أنى أسألك إعراضهم عنى واعوجاجهم علىّ حتى لا يكون لى ملجأ إلا إليك » .

قال الشاذلى :

« ثم خرج الرجل من الغار فإذا هو أستاذى (ابن مشيش) ، فقلت له : يا سيدى إنى سمعتك البارحة تقول كذا وكذا ، فقال لى : يا على ، إنما خير لك

أن تقول : كن لى ، بدلا من أن تقول سخّر لى قلوب خلقك ، فإذا كان لك ، كان لك كل شىء » .

بهذه المبادئ الروحانية العليا التى تنادى العبد بأن يقبل على حب الله وأن يفنى فى هذا الحب تخرّج أبو الحسن الشاذلى على أستاذه ابن مشيش فقد قال أبو الحسن :

« سألت أستاذى — رحمه الله — عن ورد المحققين ، فقال : عليك بإسقاط الهوى وصحبة المولى ، وآية المحبة ألا يشتغل محب بغير محبوبه » .

وأقبل الشاذلى — وهو فى صحبة أستاذه — على العبادة ، فطهّر نفسه من حب الدنيا ومن الإقبال على الخلق ، وأقبل على حب الله وفنى فى حبه ، فلما صفت نفسه وأصبح أهلا للولاية ووراثة القطبانية أمره أستاذه أن يرحل عن فاس إلى تونس ، وتنبأ له بما سيحدث له فى مستقبل أيامه ، فقال له :

« ارحل إلى إفريقية واسكن بها بلداً تسمى شاذلة ، فإن الله يسميك الشاذلى ، وبعد ذلك تنتقل إلى مدينة تونس ، ويؤتى عليك من قبل السلطنة ، وبعد ذلك تنتقل إلى بلاد الشرق وترث القطبانية » .

ترك أبو الحسن مدينة فاس واتجه — تنفيذاً لأمر أستاذه — نحو تونس ، وعند دخوله إليها تقابل مع رجل حطاب فقير هو أبو الحسن على الأبرقى من أهل شاذلة وهى قرية قريبة من مدينة تونس ، فصحبه معه وخرج الرجلان واتجها نحو شاذلة ، وفى الطريق رأى الأبرقى شواهد كثيرة من زهد الشاذلى وصلاحه ، فأقبل عليه وقبل يديه وسأله الدعاء ، وتقول الرواية إن بركات الشاذلى حلت برفيقه فأقبلت عليه الدنيا ووسع عليه فى الرزق بعد ذلك .

ونزل أبو الحسن بطرف من أطراف شاذلة وقابل فيها أول من قابل الشيخ الصالح أبا محمد عبد الله بن سلامة الحبيبى ، وقد فرح الحبيبى بلقاء أبى الحسن فقد كان يترقب هذا اللقاء منذ مدة . قال الحبيبى :

« كنت أحضر بتونس مجلس سيدنا الشيخ العارف أبى حفص الجاسوس ، فأخذت بيده يوماً أطلب منه أن يقبلنى تلميذاً له وقلت له : يا سيدى إنى اتخذتك شيخى ، فقال لى : يا بنى ارتقب أستاذك حتى يصل من المغرب وهو شريف حسنى من كبار الأولياء ، وهو أستاذك وإليه تنتسب ، فكنت أرتقب كل من يأتى

من الفقراء المغاربة وأصحبه ، إلى أن منّ الله علىّ بلقاء الشيخ أبى الحسن فاتخذته شيخى وصحبته » .

وفى شاذلة تأسى الشاذلى بأستاذه ابن مشيش ، فلم يسكن فى القرية إنما لجأ إلى غار فى جبل زغوان المطل على شاذلة ، واتخذ هذا الغار رباطاً له يقيم ويتعبد فيه ، وكانت حياة الشاذلى فى هذا الغار كلها تقشف وزهد وإغراق فى العبادة ، وكان يشاركه هذه الحياة فى معظم الأوقات تلميذه الجديد الحبيبى .

وقد روى الحبيبى أنه أقام مرة مع أبى الحسن فى جبل زغوان أربعين يوماً كان يفطر فيها على العشب وورق الدفلى حتى تقرحت أشداقه ، فقال له أبو الحسن : « يا عبد الله كأنك اشتهيت الطعام ؟ » .

فقال له :

« يا سيدى ، نظرك إلىّ يغنينى » .

فقال أبو الحسن :

« غداً إن شاء الله نهبط إلى شاذلة وستلقانا فى الطريق كرامة » .

وأقام أبو الحسن فى شاذلة وطالت إقامته وذاعت شهرته وعرف الناس له فضله وصلاحه وتتوّاه وآمنوا بولايته ، وبدأ الجزء الأول من نبوءة أستاذه ابن مشيش يتحقق ، فعرف منذ ذلك الحين بالشاذلى وغلبت عليه هذه الشهرة ، وقصده الناس من الأماكن والبلدان المجاورة ، وبدأ يخرج عن رباطه بعض الوقت فيقيم بإحدى الدور فى مدينة تونس يدرّس ويعظ وينشر دعوته وطريقته بين تلاميذه ومحبيه ومريديه .

ولم تكن تونس غريبة على أبى الحسن فقد دخلها من قبل طفلا وأقام بها شاباً يافعاً ، وفيها تلقى دروسه الأولى ، وفيها كانت له مناظرات سابقة مع علمائها وفقهائها ، وقد وفد عليها هذه المرة رجلا مكتمل الرجولة عالماً وافر العلم ، صوفياً صاحب حالات وكرامات ، لهذا لم يكن غريباً أن يقبل عليه الناس من كل حدب وصوب يغترفون من علمه ، ويتأدبون بآدابه ، ويستمعون إلى دروسه ومواعظه وتعاليمه ، ويلتمسون منه الدعاء والبركة ، فاتسعت حلقات دروسه وكثر أتباعه ومريدوه ، فكان إذا

جلس للدرس والوعظ تحلقوا حوله بالعشرات ، وإذا سار أو انتقل ساروا فى ركابه بالمئات .

قال المناوى فى الكواكب الدرية :

« كان الشيخ أبو الحسن إذا ركب تمشى أكابر الفقراء وأكابر الدنيا حوله ، وتنشر الأعلام على رأسه ، وتضرب الكاسات بين يديه » .

هذا الإقبال أثار حقد العلماء وحسد الفقهاء فى تونس ، وجرّ على الشاذلى شرًّا كثيراً ، فتعرض لمحنة كبيرة ، فقد كان قاضى الجماعة وعالمها فى مدينة تونس على ذلك الوقت هو أبو القاسم ابن البرّاء ، وقد ضاق ابن البرّاء بأبى الحسن عندما رأى الناس ينفضون من حوله ويتحلقون حول الشاذلى فى كل مكان يحل به ، وآلمته هذه المواكب الحافلة تتقدمها الأعلام والكاسات والطبول كلما انتقل الشاذلى من مكان إلى مكان ، فبدأ يكيد لأبى الحسن وسعى به لدى سلطان تونس أبى زكريا الحفصى ، واتهمه لديه بأنه يتآمر على سلطانه فهو حسنى علوى ، ولعله يسعى لإقامة ملك لنفسه كما أقام الفاطميون ملكهم من قبل فى تونس نفسها .

ولم يقنع ابن البراء بهذه التهمة الخطيرة فاتهم أبا الحسن بتهمة أخرى لا تقل عنها خطورة ، اتهمه بالزندقة والإلحاد والخروج على الدين ، ليغرى به علماء تونس وفقهاءها كما أغرى به السلطان .

قال صاحب درة الأسرار :

« دخل قاضى الجماعة ابن البرّاء على السلطان أبى زكريا فقال : إن ها هنا رجلا من أهل شاذلة سُرّاق الحمير يدّعى الشرف ، وقد اجتمع عليه خلق كثير ، ويدعى أنه الفاطمى ، ويشوش عليك فى بلادك » .

كان ادعاء ابن البراء ماهراً ماكراً ، وكانت التهمة خطيرة ، ففى تونس أقام عبيد الله المهدى من قبل الخلافة الفاطمية ، والشيعة يؤمنون بفكرة المهدى المنتظر ، ومنذ زالت الخلافة الفاطمية وهم يتطلعون إلى إعادتها ، وأبو الحسن الشاذلى ينتسب إلى الحسن بن على بن أبى طالب ، والناس يؤمنون بقطبانيته ، وابن البراء لا يرى فى كلمة القطب إلا أنها ستار يخفى وراءه معنى الإمام الفاطمى أو المهدى ، ولكن الحقيقة أن أبا الحسن لم يكن يعنى بالسياسة ولم يكن يفكر فى الملك ، بل إنه

لم يكن يساير غلاة الشيعة فى معتقداتهم ، فالشيعة لا يؤمنون إلا بعلى ، وينكرون خلافة أبى بكر وعمر وعثمان ، أما أبو الحسن فقد كان يعترف بهؤلاء الصحابة الأجلاء وأنه يغترف من فضلهم ، فقد كان يجيب من يسأله عن شيخه بقوله :

« أما فيما مضى فعبد السلام بن مشيش ، وأما الآن فأنا أستقى من عشرة أبحر : خمسة آدمية ، وخمسة سماوية ، فالخمسة الآدمية : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والنبى صلى الله عليه وسلم » .

على كل فإن السلطان أبا زكريا لم يأخذ بأقوال ابن البراء ، بل كان حكيماً عادلا فأمر بأن يعقد مجلس يحضره أبو الحسن والعلماء والفقهاء ، وأن يناقش أبو الحسن فى كل هذه الدعاوى وغيرها ، ويعطى الفرصة للدفاع عن نفسه .

وعقد المجلس وحضره السلطان ، وجلس وراء حجاب .

قال صاحب درة الأسرار :

« اجتمع ابن البراء وجماعة من الفقهاء فى القضية ، وجلس السلطان خلف حجاب ، وحضر الشيخ رضى الله عنه ، وسألوه عن نسبه مراراً ، والشيخ يجيبهم عليه ، والسلطان يسمع ، وتحدثوا معه فى العلوم كلها فأفاض عليهم بعلوم أسكتتهم بها ، فما استطاعوا أن يجاوبوه عنها من العلوم الموهوبة ، والشيخ يتكلم معهم بالعلوم المكتسبة ويشاركهم فيها » .

وأفحم ابن البراء وصحبه ، وعلت كلمة الشاذلى ، واقتنع السلطان ببراءته ، بل آمن بولايته ، فالتفت إلى ابن البراء ومن معه وقال لهم :

« هذا رجل من أكابر الأولياء وما لكم به طاقة » .

وأحس ابن البرّاء بحرج الموقف ، فقد كان أهل تونس جميعاً واقفين بالباب ، ينتظرون نتيجة المحاكمة ، فأراد أن يعود إلى تحريض السلطان على أبى الحسن وأن يخيفه من ثورة الناس إن هو أطلق سراحه ، فقال له :

« والله لئن خرج فى هذه الساعة ليدخلن عليك أهل تونس ويخرجوك من بين أظهرهم ، فإنهم مجتمعون على بابك » .

ولكن السلطان لم يعر هذا القول التفاتاً ، وأمر الفقهاء أن ينصرفوا ، واستبقى الشيخ أبا الحسن ، ولبث معه وقتاً يحدثه ويلاطفه ، إلى أن حضر أخو السلطان

أبو عبد الله اللحيانى — وكان من المعتقدين فى الشيخ — ، فأمره أن يصحب الشيخ إلى داره معززاً مكرماً .

خرج أبو الحسن من هذه المحنة منتصراً ، ولكنه بدأ يحس أن المقام لم يعد يطيب له فى تونس ، فإنه توقع أن القاضى ابن البرّاء لا يمكن أن يخضع للهزيمة التى منى بها ، وأنه لا بد مدبر مكيدة أخرى ، وأن الفتنة توشك أن تنشب بين أتباعه وبين الفقهاء من أصحاب ابن البرّاء ، وهو رجل صوفى ينشد الصفاء والهدوء والحياة الصافية ، لهذا أزمع على مغادرة تونس ، وأخذ يدبر الأمر للرحلة ، وسمع السلطان بالخبر ، فتألم ، وقال لمن حملوا إليه الخبر :

« أى شىء يسمع به عن إقليمنا ؟ ! أإنه أتاه ولى من أولياء الله فضاق عليه حتى خرج فاراًّ بنفسه » .

ثم أرسل إلى الشيخ أبى الحسن من يحاول أن يثنيه عن عزمه ، ولكن الشيخ اعتذر اعتذاراً لطيفاً وقال للرسول :

« أنا ما خرجت إلا بنية الحج ، وإذا قضى الله حاجتى أعود إن شاء الله تعالى » .

وعلى أساس هذا الوعد بالعودة إلى تونس بعد أداء فريضة الحج سمح السلطان للشيخ أبى الحسن بالسفر .

وقبل أن يغادر الشاذلى تونس أرسل إلى ابن البرّاء رسالة قصيرة بها جملة واحدة يسخر فيها منه ومن أطماعه وحقده ، قال فيها :

« أترانى أوسع لك مدينة تونس ؟ ! »

ولكن ابن البرّاء كان قلبه لا يزال عامراً بالحقد على الشيخ أبى الحسن منذ منى بالهزيمة فى مجلس السلطان ، فدبر للشيخ مكيدة أخرى ، لقد أعد رسالة إلى سلطان مصر ، وقّع عليها معه عدد من الشهود وحدثه فيها حديث الشيخ ، واتّهمه فيها بأنه شريف علوى وأنه يسعى إلى إعادة ملك الفاطميين ، وقال فى ختام الرسالة :

« إن هذا الواصل إليكم شوّش علينا بلادنا وكذلك يفعل ببلادكم » .

وأمر حامل الرسالة أن يسرع بها ليصل إلى مصر قبل وصول الشيخ إليها

وكان سلطان مصر فى ذلك الوقت هو الملك الكامل محمد الأيوبى ، والأيوبيون

سنيو المذهب ، وهم الذين قضوا على المذهب الشيعى والدولة الفاطمية فى مصر ، وكان أخشى ما يخشونه الحركات الشيعية التى تعمل لإعادة الملك للفاطميين ، لهذا وجدت هذه الرسالة عند السلطان أذناً صاغية ، ولم يكد الشيخ يصل إلى الإسكندرية حتى قبضت عليه السلطات المصرية ، وأرسل محروساً إلى القاهرة ، وعند وصوله إليها صعد به إلى القلعة حيث عقد السلطان مجلساً من القضاة والعلماء والفقهاء ، ووجه السلطان التهمة إلى الشيخ أبى الحسن وقال له :

« هذا عقد مشهود فيك ، وجهه ابن البرّاء من تونس ، وعلامته فيه » .

ثم أطلعه على العقد .

وكانت محاكمة ثانية ، وتحدث الشيخ فبهر الجميع بحديثه ، وأخذ بألبابهم ، وخاصة الملك الكامل فقد كان رجلا عالماً مثقفاً واسع الفكر ، فعرف للشيخ أبى الحسن مكانته ، وأدرك أن التهمة مغرضة ، ولم يجد فى الشيخ شرًّا يخافه ، وخاصة أنه لم يكن معتزماً المقام فى مصر ، بل كان متجهاً فى طريقه إلى الحج ، فقربه إليه وأكرمه ، يقول الشيخ أبو الحسن :

« وأقمنا عنده — أى عند الملك الكامل — فى القلعة أياماً ، واهتزت لنا الديار المصرية إلى أن طلعنا للحج » .

وبعد أداء فريضة الحج أسرع الشيخ أبو الحسن بالعودة إلى تونس .

ترى هل نسى الشيخ ما فعله به ابن البرّاء وكيف سعى به لدى سلطان تونس ثم لدى سلطان مصر ؟ وابن البرّاء كان لا يزال حيًّا يمارس القضاء فى تونس .

إن الشيخ أبا الحسن لم ينس هذا كله ، ولكنه عاد وفاءً بالوعد الذى وعده للسطان أن يذهب للحج ثم يعود ، وعاد لغرض آخر أهم من هذا كله ، عاد ليلتقى بتلميذه وصفيه وخليفته أبى العباس المرسى ، فإنه يروى عن أبى الحسن أنه قال :

« ما ردنى إلى تونس إلا هذا الشاب » .

يقصد أبا العباس المرسى .

وكان أبو العباس قد خرج من مدينته سبتة هو وأبوه وأمه وأخوه فى سنة ٦٤٠ﻫ يقصدون الحج ، وحملتهم سفينة عبر البحر الأبيض ، ولكن السفينة غرقت بالقرب من بونة ، وقدر لأبى العباس وأخيه أن ينجوا من الغرق ، فاتجها إلى تونس

واقاما بها إلى أن عاد إليها أبو الحسن الشاذلى ، فتعرف إليه أبو العباس ، ولازمه منذ ذلك الحين ، ولم يقم الشيخ فى تونس طويلا هذه المرة ، بل سرعان ما صحب تلميذه ومريديه ورحل نهائيًّا إلى مدينة الإسكندرية فى سنة ٦٤٢ هـ . ولمقابلة التلميذ بالشيخ قصة يعنينا منها أن نعرف أن أبا الحسن كان يترقب هذه المقابلة وأنه كان قد أُلقِى إليه خبر أبى العباس واتصاله به منذ أمد طويل ، فقد قال لأبى العباس فى ختام مقابلته الأولى له :

« رُفعت إلىّ منذ عشر سنين » .

وبعد أن تحققت النبوءة لم يعد هناك ما يربط الشيخ بتونس ، لهذا لم يمكث بها هذه المرة غير سنتين ، عمل فى خلالهما على تصفية أموره ، فباع داره بها ثم أعد العدة للرحيل إلى الشرق ، وكان فى هذا تحقيق للجزء الأخير من نبوءة أستاذه ابن مشيش التى كان قد ختمها بقوله « وبعد ذلك تنتقل إلى بلاد الشرق وترث القطبانية» .

وفى سنة ٦٤٢ أذن له النبى صلى الله عليه وسلم بالانتقال إلى مصر ، فقد روى عن الشيخ أنه قال :

« رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال لى : يا على انتقل إلى الديار المصرية فإنك تربى فيها أربعين صديقاً » .

وكان الشاذلى قد مر بالديار المصرية مراراً أثناء روحاته السابقة إلى الحج وغدواته منه ، وقد أعجب ولا شك أثناء زياراته هذه بمدينة الإسكندرية ، ولهذا آثر أن يحط رحاله بها ، وكان فى صحبته عند رحيله عدد كبير من تلاميذه ومريديه الذين آثروا صحبته على البقاء فى أوطانهم . وكان فى مقدمتهم تلميذه الأثير أبو العباس المرسى ، وخادمه الأمين أبو العزائم ماضى بن سلطان ، والحاج محمد القرطبى ، وأبو عبد الله البجائى ، وأبو الحسن البجائى ، والخراز ، وغيرهم كثيرون . وكان الركب وهو فى طريقه إلى الإسكندرية يتزايد عدده كلما مر بمدينة من المدن ، فينضم إليه الأتباع والمريدون يؤثرون الرحلة مع الشيخ على البقاء فى أوطانهم ، يلتمسون فى صحبته البركة ، وكانوا أثناء السير يتسابقون على القرب من دابته ، ويقضون الوقت فى السمر والحديث اللطيف ، وعين الشيخ ترقبهم من بعيد ، وأذنه تستمع إلى حديثهم فيشاركهم مرة ويعلن إعجابه بما يسمع مرة أخرى .

روى صاحب المفاخر العلية أن رجلين كانا يمشيان قريباً من دابة الشيخ يستظلان برحله ، فقال أحدهما للآخر يعاتبه :

« يا فلان ، رأيتُ فلاناً يسيء معك العشرة وأنت له محسن ؟ »

« فقال صاحبه :

« إن فلاناً هذا من بلدى ، وأنا أتمثل فى معاملتى له بقول مجنون ليلى :

رأى المجنونُ فى البيداء كلبًا ، فجَرَّ له من الإحسان ذيلا
فلاموه على ما كان منه ، وقالوا : كم أنلتَ الكلبَ نَيْلا !
فقال : دعوا الملامة ، إن عينى رأتْه مرةً فى حى ليلى »

وسمع الشيخ — رضى الله عنه — حديث الرجلين ، فأعجبه ، وأخرج رأسه من المحارة وقال للرجل :

« أعد يا بنى ما قلت » .

فأعاد الرجل مقالته ، فاهتزت نفس الشيخ طربًا ، وأخذ يتمايل فى مكانه وهو يردد البيت الأخير :

دعوا الملامةَ إن عينى رأتْه مرةً فى حى ليلى

ثم خلع غفارته وألقاها إلى الرجل وقال له :

« خذها يا بنى والبسها فأنت أولى بها منى ، جزاك الله خيراً يا بنى على حسن عهدك » .

هذه القصة الطريفة تدل على أن الشيخ كان ذا ذوق أدبى رفيع ، يطرب للقول الجميل وللمعنى السامى ، كما تدل على الأسلوب الذى كان يصطنعه لتأديب مريديه وأتباعه فهو لا يترك فرصة — وإن كانت عارضة — إلا انتهزها للمكافأة على الخلق الكريم ، ليتسابق الكل فى التحلى به ، والاقتداء بصاحب المكافأة .

وقد وصل الشيخ أبو الحسن وركبه وصحبه إلى عمود السوارى ودخلوا الإسكندرية من باب سِدْرة المقابل لهذا العمود ، واتخذ الشيخ له داراً يقيم فيها بالقرب من كوم الديماس — كوم الدكة الحالى — .

وبدأ الشيخ يلقى دروسه ويعقد الحلقات يعظ الناس ويدعو إلى طريقته ومبادئه ،
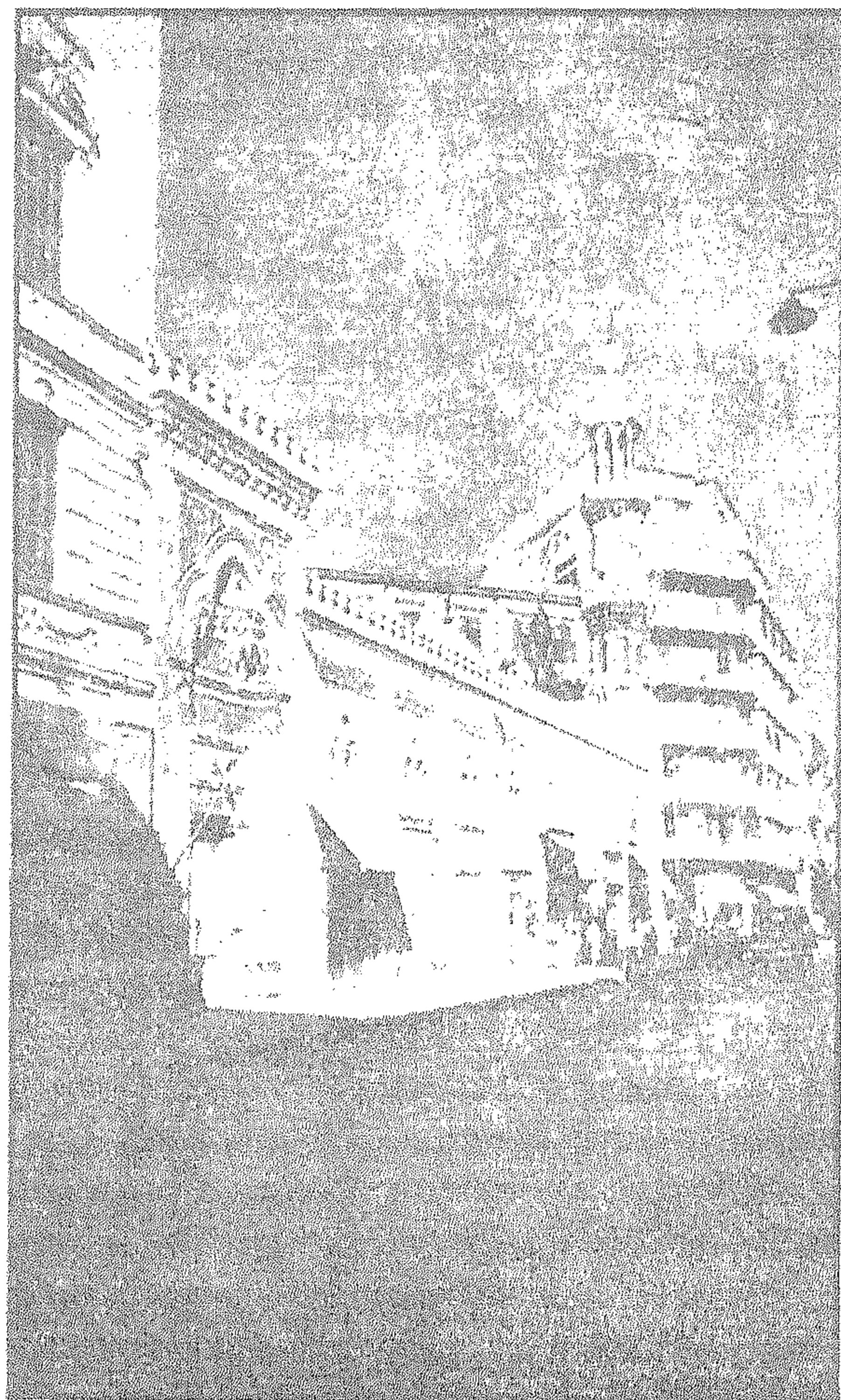
مسجد العطارين من الخارج

وفيه كان أبو العباس المرسى يعقد حلقات دروسه عند وصوله إلى الإسكندرية

وجذبت إليه هذه الدروس والمواعظ الجليلة من علماء المدينة وفقهائها وفضلائها فلازموها ملازمة تامة ، وسيكون هؤلاء التلاميذ فيما بعد قادة الحياة الفكرية والروحية فى المدينة ، نذكر منهم تلميذه الأثير أبا العباس المرسى ، والشيخ مكين الدين الأسمر ، والشيخ عبد الحكيم بن أبى الحوافر . والشيخ أبا القاسم القبارى ، والشيخ أمين الدين جبريل ، والشيخ ابن المنير ، والشيخ شرف الدين البونى وكثيرين غيرهم .

وكان الشيخ يعقد حلقات درسه فى مسجد العطارين ، وهو أقرب المساجد إلى داره ، وقد روى صاحب المفاخر العلية أن الشيخ كان يعقد كل ليلة فى داره مجلساً يأتى الناس إليه من البلد يسمعون كلامه .

وقد أخذ الشيخ أبو الحسن الشاذلى تلاميذه ومريديه بالمبادئ المثلى فى التصوف ، فهو لم يكن يفهم التصوف كما كان يفهمه بعض معاصريه وبعض المتدروشين حتى اليوم على أنه بطالة تامة بحجة الزهد والتفرغ للعبادة ، بل كان يفهمه على أنه صفاء تام فى النفس وتقوى خالصة لله وحب لله تعالى وتعلق به ، وارتفاع بالروح وبالعمل وبالقول عن الدنايا .

وهذا كله لا يمكن أن يقعد الإنسان عن السعى والعمل وطلب الرزق ، وكان يكره من المتصوفة التظاهر بالفقر فهو نوع من الادعاء ، ولكى يضرب لأتباعه المثل والقدوة كان يحيا هو حياة نظيفة منعمة ، فكان يلبس فاخر الثياب ، ويركب فاره الدواب ، ويتخذ الخيل الجياد ، وكان يكره أن يلبس الصوفية الملابس المرقعة التى اصطلح الفقراء وأهل الطريق على لبسها ، لأنه كان يرى أن هذا اللباس ينادى على صاحبه : أنا الفقير فأعطونى شيئاً ، وينادى على سره بالإفشاء ، ومن لبس الزى واتخذ المرقعة فى رأيه فقد ادعى . ومن أقواله :

« ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة ، وإنما هو بالصبر على الأوامر واليقين فى الهداية "وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون" » .

ودخل على الشيخ أبى الحسن مرة فقير عليه ملابس شعر ، فلما فرغ الشيخ من كلامه ، دنا منه ذلك الفقير وأمسك ملابسه وقال :

« يا سيدى ما عُبد الله بهذا اللباس الذى عليك ؟ »

فأمسك الشيخ بملابس الفقير فوجد فيها خشونة فقال له :

« ولا عُبِد الله بهذا اللباس الذى عليك ، لباسى يقول للناس أنا غنى عنكم فلا تعطونى ، ولباسك يقول أنا فقير إليكم فأعطونى » .

وكان أبو الحسن يدعو أتباعه إلى العمل والسعى ، ويكره المريد المتعطل الذى يركن إلى البطالة ويرتزق من سؤال الناس ، فالإسلام دين عزة وكرامة وجد عمل ، وهذه الطرق الصوفية فى رأيه لا يجب أن تخرج عن التعاليم الأساسية للإسلام ، وإن كان لها من هدف بعد هذا فإنما هو الدعوة إلى صفاء النفس وتقوى الله ، بل إنه كان يغالى فيرى فى العمل نوعاً من العبادة بل هو خير عبادة ، إنه التسبيح الدائم باسم الله ، لهذا كان يقول لمريديه :

« عليكم بالسبب — أى العمل والسعى وراء الرزق — وليجعل أحدكم مكوكه سبحته أو تحريك أصابعه فى الخياطة أو الضفر سبحته » .

وقال ابن عطاء الله السكندرى :

كان الشيخ أبو الحسن يكره المريد المتعطل ، ويكره أن يسأل تابعه الناس ، وقد كان جواداً بما يملك ، وكريماً يكره البخل ، ويحث على طرق باب الأسباب والعمل » .

وكان الشيخ يرى أن عبادة الله لا تستلزم أن تشق على نفسك وتعذبها وتكلفها من أمرها شططا ، فإنك إذا حمدت الله وأنت متألم مما بك من فقر وفاقة أو مما تحس من تقشف وخشونة فإن حمدك يكون مشوباً بالمرارة والضيق ، ولكنك لو حمدته ونفسك راضية مرضية بما يحيط بك من نعم الله الوفيرة ، وروحك هادئة مطمئنة بما هو مبسوط لديك من خيرات الله العميمة ، فإن حمدك يكون صادراً من القلب والنفس والروح والجسم جميعاً ، بل إن كل عضو من أعضائك يشارك فى هذا الحمد ، وما أجمل قول أبى الحسن فى هذا المعنى :

« يا بنىّ : برّد الماء ، فإنك إذا شربت الماء الساخن فقلت الحمد لله تقولها بكزازة ، وإذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله ، استجاب كل عضو فيك بالحمد لله » .

* * *

لم يقصر أبو الحسن الشاذلى نشاطه العلمى والروحى على مدينة الإسكندرية وحدها ، بل كان دائم الرحلة إلى المدن المصرية الكبرى ، فتردد أول ما تردد على مدينة دمنهور أقرب المدن إلى الإسكندرية ، وقد زوّج ابنته رقية إلى رجل فاضل من أهلها هو الشيخ على الدمنهورى ، ثم زار دمياط والمنصورة ، وزار معظم مدن الوجه القبلى الكبرى فى سفراته العديدة للحج ، وتردد كثيراً على العاصمة القاهرة .

وفى كل هذه المدن كان الشيخ يعقد حلقاته المعتادة للدرس والوعظ لتفقيه الناس فى أمور دينهم ولنشر مبادئه ودعوته . وكانت أهم هذه الحلقات هى الحلقات التى عقدها بمدينة القاهرة ، وتذكر المراجع أنه كان يلقى دروسه بها فى مسجد المقياس بجزيرة الروضة ، أو فى المدرسة الكاملية وهى المدرسة التى بناها السلطان الملك الكامل محمد الأيوبى لتدريس علوم الحديث خاصة .

وكانت القاهرة وقتذاك عامرة بنخبة ممتازة من العلماء الكبار من أمثال الشيخ عز الدين بن عبد السلام العالم القوى الجرىء ، وتقى الدين بن دقيق العيد أحد علماء مصر وقضاتها ، وعبد العظيم المنذرى المحدث الكبير وشيخ المدرسة الكاملية ، ومحيي الدين بن سراقة — وهو علم آخر من أعلام المدرسة الكاملية — ، والشيخ الورع التقى مكين الدين الأسمر شيخ القراء بالإسكندرية ، وأبى عمرو عثمان بن الحاجب من أبرز علماء العصر بالنحو وعلوم العربية ، وابن الصلاح مفتى الشام ومحدثها على ذلك الوقت .

وكان هؤلاء وكثيرون غيرهم يجلسون إلى الشيخ أبى الحسن يستمعون إلى دروسه وشروحه ومواعظه ، وكثيراً ما كانت تدور بينه وبينهم المناقشات العلمية والمساجلات الصوفية الطريفة المفيدة ، وقد اعترفوا له جميعاً بالعلم والفضل والتقوى والقرب من الله سبحانه وتعالى ، قال الشيخ مكين الدين الأسمر :

« مكثت أربعين سنة يشكل علىّ الأمر فى طريق القوم ، فلا أجد من يتكلم عليه ويزيل عنى إشكاله حتى ورد الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، فأزال عنى كل شىء أشكل علىّ ، ورأيت الناس يدعون إلى باب الله ، وأبا الحسن يدخلهم على الله تعالى » .

وقال عنه الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد :

« ما رأيت أعرف بالله من الشيخ الشاذلى » .

وقال الشيخ بدر الدين بن جماعة :

« إن بركة الشيخ حلت بالديار المصرية منذ أقام فيها » .

هذه هى حلقات الدروس التى كان يعقدها أبو الحسن الشاذلى فى مدن مصر الكبرى وخاصة الإسكندرية والقاهرة ، ونستطيع أن نتعرف من أخباره المتناثرة فى الكتب التى ترجمت له على الكتب التى كان يقرأ ، أو يدرسها أو يشرحها فى هذه الحلقات ، وهى من أمهات الكتب التى وضعها كبار المتصوفة الذين عاشوا قبله .

ومنها على سبيل المثال :

كتاب ختم الأولياء للحكيم محمد بن عبد الله الترمذى من رجال القرن الثالث .

وكتاب قوت القلوب لأبى طالب المكى من رجال القرن الرابع .

والرسالة القشيرية لأبى القاسم القشيرى . وإحياء علوم الدين لحجة الإسلام أبى حامد الغزالى — وهما من رجال القرن الخامس — .

وكتاب الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى للقاضى عياض من رجال القرن السادس .

وقد كفّ بصر الشيخ أبى الحسن بعيد وصوله إلى مصر بقليل ، ونستطيع أن نقول إنه أصيب بهذه الملمة فى سنة ٦٤٦ هـ على وجه التحديد ، أى بعد وصوله إلى مصر بأربع سنوات ، فقد روى صاحب كتاب المفاخر العلية أنه لما كف بصر الشيخ دخل عليه تلميذه أبو العباس المرسى فقال له الشيخ :

« يا أبا العباس : انعكس بصرى فى بصيرتى ، فصرت كلى مبصراً ، بالله الذى لا إله إلا هو ، ما أترك فى زمانى أفضل من أصحابى ، وأنت والله أفضلهم » .

ثم سأله :

« كم سنك يا أبا العباس ؟ »

قال :

« يوشك أن يكون ثلاثين » .

قال الشيخ :

« بقيت عليك عشرة أعوام وترث الصديقية (القطبانية) من بعدى » .

فإذا عرفنا أن أبا العباس ولد سنة ٦١٦ ، فإننا نستطيع أن نؤرخ لهذا الحديث بسنة ٦٤٦ هـ فقد قال أبو العباس إن سنه وقتذاك كانت ٣٠ سنة ، ونحن نعرف أيضاً أن الشيخ أبا الحسن توفى سنة ٦٥٦ وقد ورث القطبانية بعده أبو العباس وقد بشّره الشيخ أبو الحسن فى هذا الحديث أنه يرثها بعد عشر سنوات ، فإذا طرحنا عشر سنوات من سنة ٦٥٦ وصلنا إلى ٦٤٦ .

والراجح أن الشيخ أصابه مرض مما يصيب العيون أفقده بصره ، ويقول الأستاذ السندوبى إنه أصيب أثناء أيامه بالماء فغشى على بصره ، ولكن القوم يعللون هذه الإصابة تعليلا آخر . روى ابن الصباغ عن الشيخ جمال الدين القرافى أحد أصحاب الشيخ أن الشيخ أبا الحسن قال له مرة فى شرح السبب الذى من أجله فقد بصره : « لقيت بعض الأولياء فى إحدى سياحاتى ، فعرضت عليه كلاماً فى التوحيد ، فصاح الرجل ومات ، فقيل لى :

« يا على لم فعلت ذلك ؟ لتعاقبن بذهاب بصرك » .

وفى سنة ٦٤٧ ألمت بمصر ملمة كبرى ، فقد وصلت إليها حملة من الحملات الصليبية الكبرى هى حملة الملك لويس التاسع ، واستطاعت هذه الحملة أن تستولى على دمياط ، واتجه الملك الصالح نجم الدين أيوب جنوباً إلى مدينة المنصورة وعسكر بجيوشه شمالها ، غير أنه لم يلبث أن اشتد به المرض ومات ، فأخفت زوجه شجر الدر موته ، وأرسلت فاستدعت ابنه تورانشاه من حصن كيفا .

وكان المصريون جميعاً فى ذلك الوقت فى هم عظيم يترقبون نتائج الحرب بنفوس ملؤها الهلع والخوف ، وكانت الأنظار كلها تتجه إلى مدينة المنصورة مقر الدفاع .

ووجد علماء البلد أن من واجبهم أن لا يتخلفوا عن موضع الخطر ، فسارعوا جميعاً إلى مدينة المنصورة يثبتون من جأش الشعب ، ويبعثون الحمية فى نفوس الجند المحاربين ، ويثيرون فيهم روح الجهاد للذود عن الوطن وحريته ، وكان فى مقدمة هؤلاء الشيخ أبو الحسن الشاذلى .

وتقول الرواية إن الشيخ كان يجتمع أثناء مقامه فى المنصورة بغيره من علماء البلد فى خيمة يتدارسون ويتناقشون فى أمور الدين وعلومه ، وكانت الصدارة فى هذه المجالس للشيخ أبى الحسن .

روى ابن عطاء الله السكندرى فى كتابه لطائف المنن عن الشيخ مكين الدين الأسمر أنه قال :

« حضرت بالمنصورة فى خيمة فيها مفتى الأنام عز الدين بن عبد السلام ، والشيخ مجد الدين على بن وهب القشيرى المدرس ، والشيخ محيى الدين بن سراقة ، والشيخ مجد الدين الأخميمى ، والشيخ أبو الحسن الشاذلى ، ورسالة القشيرى تقرأ عليهم ، وهم يتكلمون ، والشيخ أبو الحسن صامت ، إلى أن فرغ كلامهم ، فقالوا : يا سيدى نريد أن نسمع منك ، فقال — تواضعاً — : أنتم سادات الوقت وكبراؤه وقد تكلمتم ، فقالوا : لا بد أن نسمع منك ، قال : فسكت الشيخ ساعة ، ثم تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة ، فقام الشيخ عز الدين وخرج من صدر الخيمة وفارق موضعه وقال : اسمعوا هذا الكلام الغريب ، القريب العهد من الله » .

وكان الشيخ يقضى وقته كله فى المنصورة — مستيقظاً ونائماً — ولا تشغل باله وفكره إلا هذه الملمة التى توشك أن تنزل بمصر والإسلام ، إلا هذه الحرب الطاحنة الدائرة رحاها بين عدو وافد من الخارج وجيش مجاهد باسل يدافع عن الوطن والإسلام ، فكان الشيخ إذا نام تكاثرت عليه الأحلام يرى فيها ما يشغله فى اليقظة ، ويلتمس فى عالم الروح مخرجاً من هذه الأزمة ، إلى أن وافته البشرى أخيراً ، وأتاه الرسول عليه السلام يبشره بالنصر .

روى صاحب درة الأسرار على لسان الشيخ أبى الحسن نفسه أنه قال :

« كنت بالمنصورة فلما كانت ليلة الثامن من ذى الحجة بت مشغولا بأمر المسلمين ، وبأمر الثغر خصوصاً — يعنى دمياط — وقد كنت أدعو الله وأتضرع إليه فى أمر السلطان والمسلمين ، فلما كان آخر الليل رأيت فسطاطاً واسع الأرجاء عالياً فى السماء ، يعلوه نور ، وتزدحم عليه خلق من أهل السماء — وأهل الأرض عنه مشغولون — فقلت : لمن هذا الفسطاط ؟ ، فقالوا : لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فبادرت إليه بالفرح ولقيت على بابه عصابة من العلماء والصالحين نحواً من السبعين ، أعرف منهم الفقيه عز الدين بن عبد السلام ، والفقيه مجد الدين مدرس قوص ، والفقيه الكمال بن القاضى صدر الدين ، والفقيه المحدث محيى الدين

ابن سراقة ، والفقيه عبد الحكيم بن أبى الحوافر ، ومعهم رجلان لم أعرف أجمل منهما غير أنى وقع لى ظن فى حالة الرؤيا أنهما الفقيه زكى الدين عبد العظيم المحدث ، والشيخ مجد الدين الأخميمى ، وأردت أن أتقدم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فألزمت نفسى التواضع والأدب مع الفقيه ابن عبد السلام ، وقلت لا يصلح لك التقدم قبل عالم الأمة فى هذا الزمان ، فلما تقدم الجميع ورسول الله صلى الله عليه وسلم يشير إليهم يميناً وشمالاً : أن أجلسوا ، تقدمت وأنا أبكى بالهم وبالفرح ، أما الفرح فمن أجل قربى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسب ، أما الهم فمن أجل المسلمين والثغر ، وهم طلبى إليه صلى الله عليه وسلم ، فمد يده حتى قبض على يدى وقال :
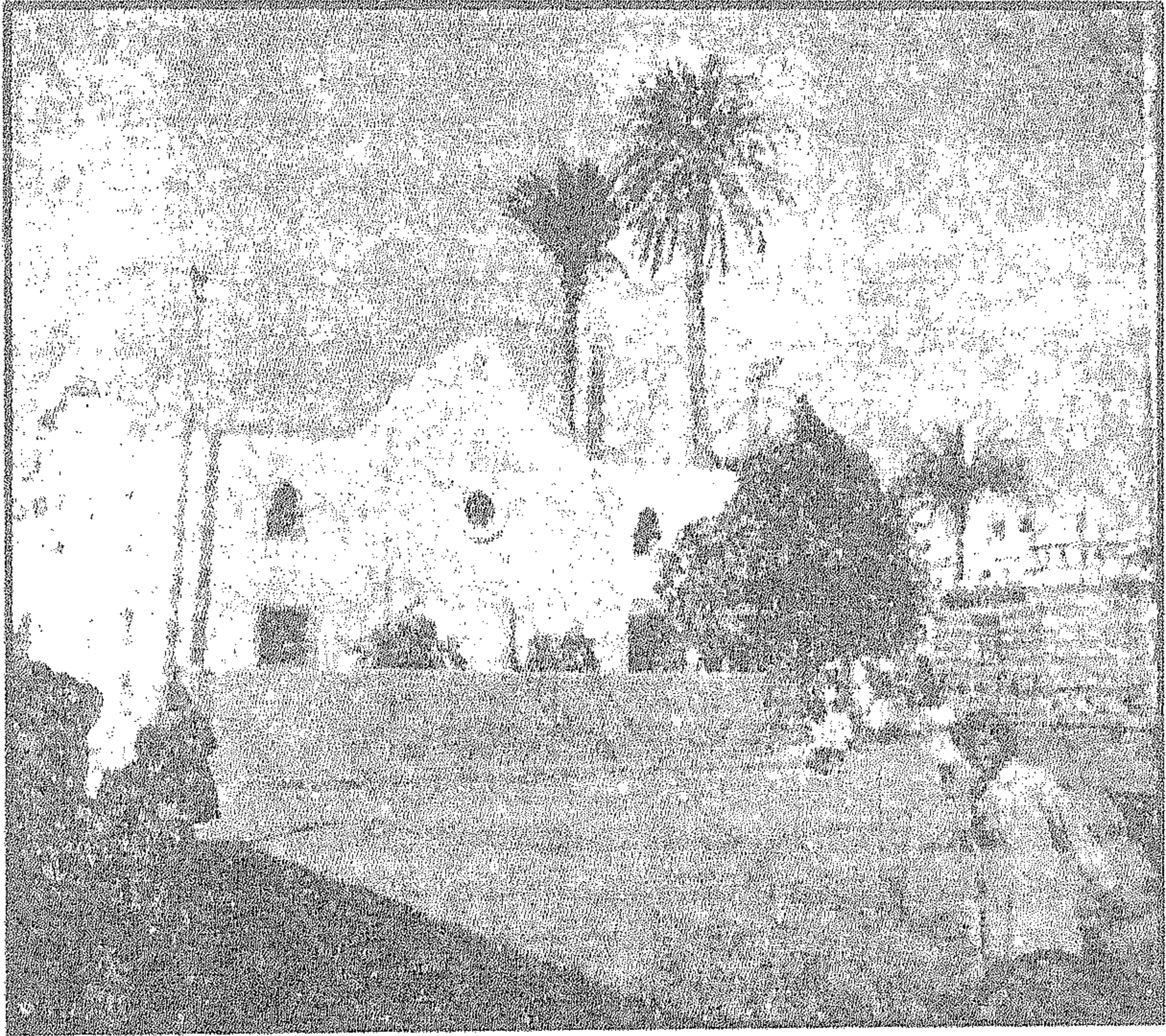
مسجد مكين الأسمر
(تلميذ أبى الحسن الشاذلى)

" لا تهتم كل هذا الهم من أجل الثغر ، وعليك بالنصيحة لرأس الأمر — يقصد السلطان — فإن ولى عليهم ظالم فما عسى ؟ — وجمع أصابع يده الخمس

فى يده اليسرى ، كأنه يقلل المدة — ، وإن ولى عليهم تقى "فالله ولى المتقين " .
وبسط يده اليمنى واليسرى ، وأما المسلمون فحسبك الله ورسوله وهؤلاء المؤمنون ، وقال : "ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون " وأما الساطان فيد الله مبسوطة عليه برحمته ما والى أهل ولايته ، ونصح المؤمنين من عباده ، فانصحه واكتب إليه ، وقل فى الظالم عدو الله قولا بليغاً ، "واصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون " .

فقلتُ : نُصرنا ورب الكعبة . وانتبهت » .

هذه الرؤيا تدل على أن الشيخ أبا الحسن كان يقض مضجعه هذا الخطر الجاثم على ثغر دمياط والزاحف نحو الجنوب ، يدعو الله مخلصاً فى يقظته وفى منامه أن يكشف الغمة ويغيث الأمة، ولم تنقض أيام قليلة حتى تحققت بشرى الرسول عليه السلام ، وانتصر المصريون ، وهزم الفرنجة وأسر ملكهم لويس التاسع ، ثم جلوا جميعاً عن مصر بعد قليل .

كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى أشد الناس فرحاً بهزيمة الصليبيين ورحيلهم عن مصر ، وقد عاد بعد هذا إلى الإسكندرية ، وتابع فيها سيرته الأولى فى الحياة يدرس ويعظ ويتعهد أرواح تابعيه ومريديه بالتهذيب .

وأصبحت لأبى الحسن مكانة مرموقة فى المجتمع المصرى يقصده الكبار ورجال الدولة والعلماء والعامة فى حاجاتهم ، يقصده الكبار والعلماء يستزيدون من علمه وتعاليمه ، ويقصده الصغار والعامة يلتمسون منه البركة ويستشفعون به لدى رجال الدولة لقضاء مطالبهم .

وكان الشيخ لا يرد إنساناً يقصده بل يسعى لإجابة كل إلى مطلبه ، روى ابن عطاء الله أن فقيهاً من طلاب العلم قصد الشيخ مرة يستشفع به لدى القاضى تاج الدين بن بنت الأعز كى يزيد فى راتبه عشرة دراهم ، فذهب الشيخ إلى تاج الدين ، وأكبر تاج الدين مجيئه إليه فأسرع يرحب به وسأله فيم مجيئه ، فقال الشيخ :
« من أجل فلان الطالب كى تزيده فى مرتبه عشرة دراهم » .

فحاول القاضى أن يعتذر ، وشرح للشيخ كيف أن لهذا الطالب مرتبات أخرى من جهات متعددة ، فقال له :

« يا سيدى هذا له فى المكان الفلانى كذا ، وفى المكان الآخر كذا ، وفى الموضع الفلانى كذا وكذا » .

ولكن الشيخ لم يقتنع بهذا الجواب وقال للقاضى :

« يا تاج : لا تستكثر على مؤمن عشرة دراهم تزيده إياها ، فإن الله تعالى لم يقنع بالجنة للمؤمن جزاءً حتى زاده النظر إلى وجهه الكريم » .

وكان الشيخ يحمّل نفسه المشاق — على كبر سنه — فى سبيل قضاء حاجات أتباعه ومريديه ورعاية شؤونهم ، روى ابن عطاء الله أيضاً أن أحد أتباع الشيخ فى الإسكندرية أصابه رمد فى عينه ، فاستدعى له الشيخ طبيباً يهوديًّا من أطباء الثغر لمعالجته ، ولكن الطبيب اعتذر عن مباشرة العلاج وقال للشيخ :

« لقد جاء مرسوم من القاهرة أنه لا يداوى أحد من الأطباء إلا بإذن من مشارف الطب بالقاهرة » .

فلما خرج الطبيب قال الشيخ لخدامه :

« هيئوا أسباب السفر » .

وسافر فى الحال إلى القاهرة ، وحصل على الإذن للطبيب ، وعاد مسرعاً إلى الإسكندرية ، ولم يبت خارجها إلا ليلة واحدة ، واستدعى الطبيب ، وأطلعه على الإذن ، فأكثر الطبيب اليهودى التعجب من هذا الخلق الكريم ، ثم أخذ فى شأنه ومباشرته للعلاج .

وروى ابن عطاء الله أنه سمع الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد يقول :

« جهل ولاة الأمور بقدر الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، لكثرة تردده فى الشفاعات » .

وعلق ابن عطاء الله على هذا الرأى بقوله :

« ويجب أن تعلم أن هذا الأمر لا يقوى عليه إلا عبد متخلق بأخلاق الله ، بذل نفسه وأذلها فى مرضاة الله ، وعلم وسيع رحمة الله فعامل عباد الله ممتثلا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء" .

* * *

ومع أن الشيخ أبا الحسن الشاذلى كان واسع العلم والمعرفة ، يستمع إليه كبار علماء عصره فيبهرهم حديثه ، ويقول كبيرهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام :
« اسمعوا هذا الكلام الغريب ، القريب العهد من الله » .

مع هذا فإنه لم يعرف أن أبا الحسن ألف كتباً،وكل ما وصل إلينا من آثاره العلمية الصوفية هو ما نقله أصحابه عنه من وصايا وأقوال مأثورة وأدعية وأحزاب وأوراد ، وكان الشيخ يرى أن كتبه هى تلاميذه ، وأنه خير له أن يخرج على يديه تلميذ يفهم عنه علومه وروحانيته من أن يؤلف كتاباً قد يقرأه البعض أو لا يقرأونه ، وقد يفهمه البعض ويعجز عن فهمه البعض الآخر .

روى ابن عطاء الله أن أحد الأتباع سأل الشيخ مرة :

« لم يا سيدى لا تضع الكتب فى الدلالة على علوم القوم » .

فأجاب الشيخ : « كتبى أصحابى » .

غير أن الأقوال والأحزاب التى وصلتنا عن الشيخ تدل على أنه كان قد رق قلبه ورق حتى لم يعد يشغله غير حب الله سبحانه وتعالى ، وأن نفسه صفت وصفت حتى لم تعد تلجأ إلا إلى الله سبحانه ، وأن روحه علت وعلت حتى أصبحت أقرب ما تكون إلى الله سبحانه .

وهذه الأحزاب تدل كذلك على أن أبا الحسن كان أديباً ممتازاً ذا أسلوب جميل رائع ، فإنى لا أكاد أعرف أنى قرأت فى الأدب الصوفى المأثور أجمل مما قال الشيخ أبو الحسن فى حزب البر . استمع معى إليه وهو يقول :

« اللهم إنا نسألك لساناً رطباً بذكرك .

وقلباً منعماً بشكرك .

وبدنا هيِّناً ليناً بطاعتك .

وأعطنا مع ذلك ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر — كما أخبر به رسولك صلى الله عليه وسلم — حسب ما علمته بعلمك .

واغننا بلا سبب .

واجعلنا سبب الغنى لأوليائك .

وبرزخاً بينهم وبين أعدائك .

إنك على كل شيء قدير .

اللهم إنا نسألك إيماناً دائماً .

ونسألك قلباً خاشعاً .

ونسألك علماً نافعاً .

ونسألك يقيناً صادقاً .

ونسألك ديناً قيما .

ونسألك العافية من كل بلية .

ونسألك تمام العافية .

ونسألك دوام العافية .

ونسألك الشكر على العافية .

ونسألك الغنى عن الناس .

واستمع إلى هذه المناجاة الإلهية فى قوله :

« اللهم وارأف بنا رأفة الحبيب بحبيبه عند الشدائد ونزولها .

وأرحنا من هموم الدنيا وغمومها بالروح والريحان إلى الجنة ونعيمها . . .

اللهم وباعد بيننا وبين العناد والإصرار والشبه بإبليس رأس الغواة .

واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت .

ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت .

فالإحسان لا ينفع من البغض منك .

والإساءة لا تضر مع الحب منك . . .

اللهم رضّنا بقضائك .

وصبّرنا على طاعتك وعن معصيتك وعن الشهوات الموجبات للنقص أو البعد عنك .

وهب لنا حقيقة الإيمان بك حتى لا نخاف غيرك ، ولا نرجو غيرك ، ولا نحب غيرك ، ولا نعبد شيئاً سواك .

وأوزعنا شكر نعمائك .

وغطنا برداء عافيتك .

وانصرنا باليقين والتوكل عليك .
واسفر وجوهنا بنور صفاتك .
وأضحكنا وبشّرنا يوم القيامة بين أوليائك .
واجعل يدك مبسوطة علينا وعلى أهلينا وأولادنا ومن معنا برحمتك .
ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك — يا نعم المجيب » .

* * *

وكان الشيخ أثناء مقامه فى مصر يخرج للحج كل سنة ، ذكر ابن بطوطة أنّ الشيخ ياقوت العرشى أنبأه رواية عن شيخه أبى العباس المرسى أن الشيخ أبا الحسن الشاذلى كان يحج فى كل سنة ، ويجعل طريقه على صعيد مصر ، ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده إلى انقضاء الحج ، ثم يزور القبر الشريف ، ويجعل طريقه على صعيد مصر ويعود على الدرب الكبير إلى الإسكندرية .

وفى سنة ٦٥٦ ه بلغ الكتاب أجله ، وأحس الشيخ بدنو موته ، يستطرد ابن بطوطة حديثه السابق فيقول :

« فلما كان فى بعض السنين وهى آخر سنة خرج فيها ، قال لخديمه : استصحب فأساً وقفة وحنوطاً وما يجهز به الميت ، فقال له : ولماذا يا سيدى » ؟ ، فقال له : فى حميثرا سوف ترى » .

وفى شوال من تلك السنة وصل الشيخ أبو الحسن وصحبه إلى حُمَيْثِرا ، وهى موضع فى الصحراء المؤدية إلى عَيْذاب على البحر الأحمر ، أصابه مرض شديد فجمع أصحابه وأوصاهم بأشياء كثيرة وخاصة بحزب البحر ، وقال لهم حفظوه أولادكم ، فإن فيه اسم الله الأعظم ، وخلا بتلميذه الحبيب أبى العباس المرسى وأوصاه بأشياء ، يقول صاحب المفاخر :

« واختصه بما خصه الله به من البركات ، وقال لأصحابه : إذا أنا مت فعليكم بأبى العباس المرسى فإنه الخليفة من بعدى ، وسيكون له مقام عظيم بينكم ، وهو باب من أبواب الله تعالى » .

وبات الشيخ ولسانه لا يفتر عن ذكر الله ، فلما كان الفجر صعدت روحه

إلى بارئها ، وصلى عليه القوم يؤمهم الشيخ أبو العباس ، ودفن أبو الحسن حيث مات في حميثرا .

قال ابن بطوطة :

« وقد زرت قبره وعليه قبريّة مكتوب فيها اسمه ونسبه متصلا بالحسن بن على رضى الله عنهما » .

واختلف القوم بعد وفاته : أيعودون أم يستأنفون الرحلة للحج ، فقال أبو العباس :

« الشيخ أمرنى بالحج ووعدنى بكرامات » .

وبعد ، فهذا هو ولى الله العارف به قطب الأقطاب الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، فارق الدنيا بعد أن ملأها علماً وروحانية ، وبعد أن خلّف بعده عدداً من تلاميذه الذين ساروا سيرته بعد أن قبسوا من علمه وفضله وخلقه وروحه ، وكلهم بعد هذا من روح الله مقتبس .

أبو العباس المرسى

شهاب الدين أحمد بن عمر الأنصارى

(٦١٦ ــ ٦٨٥ هـ) = (١٢١٩ ــ ١٢٨٧ م)

ذاب رسمى وصَحَّ صدقُ فنائى
وتجلَّتْ للسرِّ شمسُ سمائى
وتنزلتُ فى العوالم أُبدى
ما انطوى فى الصفات بعد صفائى
فصفاتى كالشمس تُبدى سناها
ووجودى كالليل يُخفى سوائى
أنا معنى الوجود أصلا وفصلا
مَنْ رآنى فساجدٌ لبهائى
أنا نورٌ لأهله مستبينٌ
اشهدونى فقد كشفتُ غطائى

أبو العباس المرسى

أبو العباس المرسى
شهاب الدين أحمد بن عمر الأنصارى

على كثرة من عاش فى الإسكندرية من أولياء الله وأقطاب الصوفية والعلماء ، وعلى كثرة ما تضمه المدينة من رفات هؤلاء الأولياء والعلماء وأضرحتهم ، فإن الإسكندرية لا تكاد تذكر إلا ويُذكر قطب أقطابها العارف بالله سيدى أبو العباس المرسى : أصدق أصدقاء سيدى أبى الحسن الشاذلى ، وأقرب تلاميذه إليه وصاحب القطبانية من بعده .

وهو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر بن على الخزرجى الأنصارى المرسى البلنسى . ينتهى بنسبه إلى الصحابى الجليل سعد بن عُبادة ، كبير الأنصار وسيد الخزرج ، وصاحب المواقف المشهورة يوم سقيفة بنى ساعدة ، يوم أن اختلفت الأنصار والمهاجرون بعد وفاة الرسول عليه السلام ، فكان لكلماته وتوجيهاته الفضل الأكبر فى توحيد كلمة المسلمين بعد أن كان النزاع على الخلافة يوشك أن يفرق بين المهاجرين والأنصار .

ومن جدود أبى العباس الأعلين قيس بن سعد الذى عُيِّن أميراً على مصر فى سنة ٣٦ هـ من قبل على بن أبى طالب .

فأسرة أبو العباس عربية عريقة فى العروبة ، شريفة عريقة فى الشرف ، وقد ولد أبو العباس فى سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩) فى مدينة مُرْسِيَة إحدى مدن بلنسية بالأندلس ، وإليها نسب أبو العباس وغلبت عليه هذه النسبة حتى عرف بها ، ولا يكاد يذكر باسمه إلا فى الكتب التى ترجمت له .

وفى مرسية نشأ أبو العباس أحمد ، وفيها قضى طفولته وتلقى علومه الأولى ، فتعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب وحفظ القرآن .

ومُرْسية اختطها فيما يقال الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وكانت بحكم موقعها مدينة تجارية ، وكان معظم أهليها يحترفون التجارة ، وكان عمر بن على والد أبى العباس تاجراً ، وتبعاً لتقاليد العصر كان يريد أن يعد أولاده لاحتراف المهنة

التى يحترفها ، فكان ابنه الأكبر أبو عبد الله جمال الدين محمد يعاونه فى أعماله التجارية ، ولما استكمل الابن الأصغر أبو العباس أحمد علومه الأولى وشب عن الطوق ألحقه أبوه بأخيه ، وأصبح الرجل يعتمد على ولديه فى إدارة تجارته والإشراف على شؤونها . ودنيا التجارة مدرسة حافلة بالتجارب ، فالتاجر يتصل فى معاملاته بمختلف البيئات والطبقات مما يتيح له الفرصة الطيبة لدراسة أخلاق الناس وطباعهم ، وقد أفاد أبو العباس ولا شك من تجاريبه العملية أثناء هذه الفترة أشياء كثيرة .

وفى سنة ٦٤٠ (١٢٤٢) وقد بلغ أبو العباس الرابعة والعشرين من عمره أراد والده أن يخرج للحج ، وصحب الرجل معه أسرته جميعاً : زوجته فاطمة بنت عبد الرحمن المالقى ، وولديه أبا عبد الله جمال الدين محمداً ، وأبا العباس أحمد .

وكان من العسير على الأسرة أن ترحل هذه الرحلة الطويلة بطريق البر ، فآثرت اتخاذ طريق البحر ، واستقلت سفينة من سفن البحر الأبيض المتوسط ، وسارت السفينة بحذاء الشاطئ الإفريقى ، ولكنها لم تكد تقرب من شاطئ بونة حتى هبّتْ عليها عاصفة قوية ، وقاومت السفينة ما استطاعت المقاومة إلى أن عجزت تماماً ، وتغلبت عليها الرياح العاصفة فأغرقتها بما فيها وبمن فيها ، ويبدو أن الوالد والوالدة لم تكن لهما معرفة بالسباحة ، أو أنهما لم يستطيعا مقاومة الأمواج العاتية لكبر سنهما فطوتهما المياه ، وماتا شهيدين ، أما الأخوان فقد قُدِّر لهما النجاة ووصلا إلى البر سالميْن .

واتخذ الأخوان طريقهما بعد ذلك إلى المشرق إلى أن وصلا إلى تونس ، فآثرا الإقامة بها ، وفى تونس اتجه الأخ الأكبر محمد إلى مهنته القديمة التجارة ، وأما الأخ الأصغر أحمد فقد أراد أن يفيد مما حصّل من علم ، فاتخذ له مكتباً فى زاوية الفقيه محرز بن خلف يعلم فيه الصبيان القراءة والكتابة والحساب ويحفظهم كتاب الله الكريم .

وكان أبو الحسن الشاذلى قد عاد فى ذلك الوقت إلى تونس ، وأقام هناك فى رباط بجبل زغوان ، وكتب التراجم تذكر أن أبا الحسن لم يعد إلى تونس — رغم ما كان بينه وبين ابن البراء — إلا لمقابلة تلميذه أبى العباس ، فقد روى عنه أنه قال :

« ما ردّنى إلى تونس إلا هذا الشاب » ، يقصد أبا العباس المرسى ، وقد قال لأبى العباس فى ختام مقابلته الأولى له :

« رُفعتَ إلىّ منذ عشر سنين».

وقد سمع أبو العباس المرسى أثناء مقامه فى تونس بالشيخ أبى الحسن وفضله وعلمه وتقواه ، فسعى إلى مقابلته سعياً ، وقد روى هو خبر مقابلته لأستاذه وبدء اتصاله به وتعرفه عليه ، قال :

« لما نزلت بتونس ، وكنت أتيت من مُرْسِيَة — وأنا إذ ذاك شاب — سمعت بذكر الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، فقال لى رجل : تمضى بنا إليه ؟ فقلت : حتى أستخير الله ، فنمتُ تلك الليلة فرأيتُ كأنى أصعد إلى رأس جبل ، فلما علوتُ فوقه رأيت هنالك رجلا عليه برنس أخضر وهو جالس ، وعن يمينه رجل وعن يساره رجل ، فنظرت إليه فقال : عثرت على خليفة الزمان ؟ فانتبهت ، فلما كان بعد صلاة الصبح جاءنى الرجل الذى دعانى إلى زيارة الشيخ فسرتُ معه ، فلما دخلنا عليه رأيته بالصفة التى رأيته بها فوق الجبل ، فدهشتُ فقال لى : عثرت على خليفة الزمان ؟ ما اسمك ؟ فذكرت له اسمى ونسبى ، فقال لى : رُفعتَ لى منذ عشر سنين » .

اتصل الروحان من قبل المقابلة والمشاهدة ، فإن السفينة لم تغرق عند بونة ، وأبو العباس لم يتجه إلى تونس ويقيم بها إلا لما قدّره الله فى مكنون علمه من التمهيد للقاء الرجلين ، وأبو الحسن لم يعد إلى تونس عودته الأخيرة رغم كرهه للإقامة بها منذ نشب النزاع بينه وبين ابن البراء إلا لما ألقى إليه من أنه سيقابل تلميذه وصفيه وخليفته هناك .

ولزم أبو العباس أستاذه أبا الحسن منذ تلك اللحظة ملازمة تامة ، فصار يتردد على مجالسه ، ومجالسه وقتذاك حافلة بحلقات الذكر والدرس والمناقشة ، وعرف الأستاذ فى تلميذه صفاء روحه وحسن إدراكه وإخلاصه وتدينه فقربه إليه ، حتى لقد صارحه مرة بقوله :

« يا أبا العباس ، والله ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا ، وأنا أنت ، ولقد

مسجد أبي العباس المرسى
وإلى جانبه مسجد البوصيرى

رأيت فيك ما فى الأولياء، وما رأيتُ فى الأولياء ما فيك » .

وأدرك أبو الحسن بغيته بهذا اللقاء ، وأعد عدته بعده للسفر ، وغادر تونس متجهاً إلى مصر ، وفى صحبته نخبة من أتباعه وتلاميذه ومريديه ، وفى مقدمتهم تلميذه الأثير أبو العباس المرسى .

وكانت عين الأستاذ على تلميذه طول الطريق يرعاه ويشمله بعنايته ، يلقى إليه بنصائحه ، ويعينه فى رفق على سلوك الطريق ، والإقبال على معرفة الله ، والتفانى فى حبه وعبادته ، أحس أبو العباس أثناء الرحلة إلى الإسكندرية شيئاً من ضيق النفس لم يستطع له حملا ، وأدرك الشيخ من بعيد هذه الكربة التى تجثم على نفس تلميذه ، فناداه إليه ، وما زال به حتى كشفت عنه هذه الكربة وانشرح صدره ، روى هذه القصة أبو العباس قال :

«كنت مع الشيخ فى السفر ونحن قاصدون الإسكندرية حين مجيئنا من الغرب ، فأخذنى ضيق شديد حتى ضعفتُ عن حمله ، فأتيت إلى الشيخ أبى الحسن ، فلما أحسَّ : قال: أحمد ؟ قلتُ : نعم يا سيدى ، قال : آدم خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأسكنه جنته ، ثم نزل به إلى الأرض ليكمله ، ولقد أنزله إلى الأرض قبل أن يخلقه بقول: ”إنى جاعل فى الأرض خليفة “، ما قال فى السماء ، ولا فى الجنة ، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة ، فإنه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف ، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف ، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفته ؛ وأنت أيضاً لك قسط من آدم ، كانت بدايتك فى سماء الروح فى جنة التعريف ، فأنزلت إلى أرض النفس لتعبده بالتكليف ، فإذا توافرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة» .
قال الشيخ أبو العباس : فما انتهى الشيخ من هذه العبارة حتى شرح الله صدرى وأذهب عنى ما كنت أجده من الضيق والوسواس » .

بهذه الرعاية العطوف ، وبهذه الآداب الروحانية ، وبهذا التوجيه الأبوى كان الشيخ أبو الحسن يأخذ تلميذه أبا العباس ، ولا عجب فى هذا فقد كان يعده لأن يكون خليفته والقطب من بعده .

ووصل الركب أخيراً إلى أسوار الإسكندرية ، وإلى باب سدرة المواجه لعمود السوارى ، وحطوا رحالهم عند هذا العمود ، وأحسّ بمقدمهم سكان المدينة ، فبعث إليهم رجل من عدولها طعاماً لضيافتهم ، وأبلغ الشيخ خبر هذا الطعام ، يقول أبو العباس :

فقال الشيخ : « لا يأكل أحد منه شيئاً ، فبتنا على ما نحن فيه من الجوع ، فلما كان عند الصبح صلى بنا الشيخ ، وقال : مدوا السماط وأحضروا ذلك الطعام ، ففعلوا ، وتقدمنا فأكلنا ، فقال الشيخ : رأيتُ فى المنام قائلا يقول : أحلُّ الحلال إليك ما لم يخطر لك ببال ، ولا سألت فيه أحداً من النساء والرجال » .

وهكذا كان أبو الحسن يعمل على تربية أبى العباس وسائر تلاميذه بالقدوة الحسنة ، فلا يقرب طعاماً إلا أن يطمئن أنه حلال كلّه لا تشوبه شائبة من الحرام ، فقد روى أحد أصحاب الشيخ أبى العباس أن إنساناً عزم على الشيخ أبى الحسن ، وقُدِّم إليه الطعام يختبره ، فأعرض عنه ولم يأكله ، ثم التفت إلى صاحب الطعام وقال له : « إن الحارث بن أسد المحاسبى كان فى إصبعه عرق إذ مدّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرك عليه ، وأنا فى يدى ستون عرقاً إذا كان مثل ذلك » .

فاستغفر صاحب الطعام واعتذر له .

والمعروف عن الشيخ أبى الحسن الشاذلى أنه كان يدعو أتباعه ومريديه إلى العمل ، لأنه لم يكن يفهم التصوف على أنه بطالة وتوكل ، ولم يكن يستسيغ أن يلبس الفقير المرقعات والملابس الخشنة ، لأنه نوع من الادعاء والتظاهر ، وفيها إعلان عن الفقر وسؤال الناس ، ونزول بالكرامة وإهدار للعزة ، والإسلام دين يقوم على العزة والكرامة والعمل والكد ، وبهذه الآداب جميعاً أخذ أبو الحسن تلميذه أبا العباس ، قال أبو العباس :

« كان الشيخ قد قال لى : إن أردت أن تكون من أصحابى فلا تسأل من أحد شيئاً ، فمكثت على ذلك سنة ، ثم قال لى : إن أردت أن تكون من أصحابى فلا تقبل من أحد شيئاً ، فكان إذا اشتد علىّ الوقت أخرج إلى

ساحل بحر الإسكندرية التقط ما يرميه البحر بالساحل من قمح حين يرفع من المراكب » .

ويؤخذ من هذا الحديث أن أبا العباس كان يعانى أول وصوله إلى الإسكندرية شيئاً من الضيق والفقر ، ولكنه مع هذا كان يؤثر الفقر والجوع على أن يسأل الناس شيئاً ، ويبدو أنه كان منقطعاً للعبادة والدراسة مع أستاذه ، ولسنا نعرف أنه امتهن مهنة أخرى ، وإن كان يفهم من بعض عبارات ابن عطاء الله السكندرى أن أبا العباس عين وقتاً ما واحداً من الشهود العدول بمدينة الإسكندرية .

وقد نزل أبو الحسن عند مقدمه إلى الإسكندرية داراً عند كوم الديماس — كوم الدكة — وسكن معه فيها أصحابه ، وفى مقدمتهم أبو العباس المرسى ، وكان يلقى دروسه فى جامع العطارين ، ولازمه طول مقامه بها أبو العباس ينهل من علمه ويقتبس من فضله ، وأحسّ أبو العباس أنه وقع على كنز بصحبته للشيخ أبى الحسن ، وقد عبر عن شعوره هذا بما قاله فى خطاب أرسله إلى أحد أصحابه فى تونس بعد وصوله إلى الإسكندرية وإقامته بها وقتاً ما ، قال فى هذا الخطاب :

« فإنى صحبت رأساً من رؤوس الصديقين ، وأخذت منه سرًّا لا يكون إلا لواحد بعد واحد ، والشرح يطول ، وبه أفتخر ، وإليه أنسب رضى الله عنه ، وهو أبو الحسن الشاذلى ، وكان لا يصحبه أحد إلا فتح له فى يومين أو ثلاثة ، فإن لم يجد شيئاً بعد ثلاثة أيام فهو كذاب ، أو يكون صادقاً ولكنه أخطأ الطريق ؛ ودليله من كتاب الله عز وجل : قال رب اجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً ، وكان يقول : إذا عرضت لك حاجة إلى الله فاقسم عليه بى ، فكنتُ والله لا أذكره فى شدة إلا انفرجت ، ولا أمر صعب إلا هان ، وأنت يا أخى إذا كنت فى شدة فاقسم على الله به ، وقد نصحتُك والله يعلم ذلك ، والسلام » .

وكان الشيخ أبو الحسن على اتصال روحانى بتلميذه أبى العباس ، فلا يكاد يحس أن تلميذه فى ضيق نفسى ، أو أن مشكلة ما تعترضه وتشغل باله ، حتى يسرع فيجاذبه أطراف الحديث ، ويدلى إليه أثناء هذا الحديث بشرح ما استعصى

عليه ، أو ببيان ما أغلق عليه فهمه ، وهو يضمن هذا كله تعاليمه ومبادئه وأصول طريقته ، روى أبو العباس فيما روى شاهداً على ما نقول قال :

« صلينا الصبح ذات يوم وراء سيدى أبى الحسن الشاذلى ، فقرأ سورة شورى ، فلما بلغ قوله تعالى : " يهبُ لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً "

وقع فى نفسى شىء من ذلك المعنى .

فلما سلَّم الشيخ من الصلاة التفت إلىّ وقال : يا أبا العباس : يهب لمن يشاء إناثاً = العبادات والمعاملات ؛ ويهب لمن يشاء الذكور = الأحوال والعلوم والمقامات ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً يجمع ذلك فيمن يشاء من عباده ، ويجعل من يشاء عقيماً بلا علم ولا عمل .

فتعجبت من ذلك ، فقال الشيخ : والله ما وقع فى خاطر واحد شىء إلا وأطلعنى الله عليه فى تلك الصلاة أو غيرها » .

فالشيخ بذكائه وروحانيته يكاد يستشف ما تطويه روح تلميذه وعقله ، وهو فى هذا الحديث يرسم الأصول الأساسية لطريقته ، فهو يصنف العباد أصنافاً ، منهم الذين يشغلون بالعلم وحده ويدرسون العبادات والمعاملات وهؤلاء هم الفقهاء ، ومنهم أصحاب الأحوال والمقامات والذوق ، وهؤلاء هم نفر من الصوفية ، ويصلون إلى هذه الأحوال والمقامات برياضة النفس والجسم والتفرغ للعبادة ، ومنهم من يجمع بين العلم والذوق ، وهؤلاء نفر آخر من الصوفية يمثلهم خير تمثيل أبو الحسن الشاذلى ومدرسته ، وخاصة تلميذه أبو العباس المرسى ، وتلميذ المرسى ابن عطاء الله السكندرى ، فقد كانت القاعدة عندهم أن لا يدخل المريد الطريق إلا بعد أن يتبحر فى علوم الفقه والشريعة حتى يستطيع إذا ناقشه أحد من العلماء أن يقف معه على قدم المساواة ، وأن يتغلب عليه بالحجج القوية الواضحة .

وهذا ما تمتاز به المدرسة الشاذلية على غيرها من مدارس المتصوفة الأخرى التى تعتمد على رياضة النفس والروح والجسد والزهد والعبادة ، ولا تستلزم المعرفة بالعلوم الشرعية الظاهرة . وبهذا أخذ أبو الحسن تلميذه أبا العباس ، فلم يمض وقت حتى اتقن أبو العباس العلوم الدينية إتقاناً تامًّا ، حتى كان من

يتحدث إليه فى علم منها ينصرف عنه وهو يحسب أنه لا يحسن إلا هذا العلم ؛ وكان أبو العباس يأخذ تلاميذه بهذا الأسلوب ، ويحضهم على طلب العلم والتبحر فيه ، ويقرأ معهم كتباً كثيرة فى التفسير والحديث والفقه والأخلاق والتصوف ، حتى عُرف بين معاصريه بالتبحر والنبوغ فى العلوم الإسلامية مع تخصصه ونبوغه فى علوم الحقيقة وأصول الطريقة حتى لقد كان يقول :

« شاركنا الفقهاء فيما هم فيه ، ولم يشاركونا فيما نحن فيه » .

حذا أبو العباس المرسى إذن حذو أستاذه الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، فأتقن العلوم الدينية مع تبحره فى علوم الحقيقة والتصوف ، وكان يأخذ تلاميذه بهذه الطريقة ، ولهذا كان يدرس لهم ويقرأ معهم كتباً فى مختلف العلوم الدينية ، ففى التفسير كان يقرأ كتاب الوجيز لابن عطية ، وفى الحديث كتاب المصابيح للبغوى ، وفى الفقه « التهذيب والرسالة » ، وفى الأخلاق « كتاب الإحياء للغزالى » ، أما فى التصوف وعلوم الحقيقة فكان يقرأ مع تلاميذه أمهات الكتب لكبار المتصوفة السابقين ، مثل « ختم الأولياء » للحكيم الترمذى ، وقوت القلوب لأبى طالب المكى ، والرسالة البيانية للقشيرى .

وكان الشيخ أبو العباس مع هذا أديباً ممتازاً ، ذا أسلوب قوى بليغ وله قدرة فائقة على التعبير والشرح والإيضاح ، وقوة على الإقناع ، لهذا كان أستاذه أبو الحسن الشاذلى يقول لأتباعه :

« عليكم بالشيخ أبى العباس ، فوالله إنه ليأتيه البدوى لا يُحسن وضوءه ، فلا يمسى إلا وقد أوصله إلى الله تعالى » .

وقال جماعة من أهل أشموم :

« قدم علينا الشيخ أبو الحسن البجائى — أحد أصحاب أبى الحسن الشاذلى ، فكان يتكلم علينا فيعجبنا كلامه ، فإذا رأى إعجابنا بذلك قال ، كيف لو رأيتم الشيخ أبا العباسى المرسى ، والله لو أطلق أبو العباس لسانى لتكلمت بالعلم الغريب » .

وذلك لأن الشيخ أبا العباس — مع تبحره فى العلوم الدينية الشرعية — كان أعلم بعلوم الحقيقة وأصول الطريقة منذ صفت روحه ورقت نفسه ، وزالت الحجب

بينه وبين الله سبحانه وتعالى ، لهذا كان أستاذه أبو الحسن يقول عنه :
« أبو العباس بطرق السماء أعلم منه بطرق الأرض » .
وكان يقول :

« هذا أبو العباس مذ نفذ إلى الله لم يحجب ، ولو طلب الحجاب لم يجده »
ولما عرف الشيخ أبو الحسن لتلميذه أبى العباس مكانته زاد فى تقريبه إليه ، فزوّجه من ابنته ، وأنجب أبو العباس من هذه الزوجة ولديه جمال الدين محمداً ، وأبا العباس أحمد ، وأختهما بهجة التى تزوجها ياقوت العرش تلميذ أبى العباس .
ويفهم من بعض النصوص الأخرى أن الشيخ أبا العباس كان يشتغل بعض الوقت بالتجارة بتوجيه من أستاذه أبى الحسن ، تنفيذاً لسياستة المرسومة التى تدعو أتباعه إلى العمل والسعى لكسب الرزق ، روى الشيخ أبو العباس قال :

« كنت ليلة من الليالى نائماً بالإسكندرية وإذا قائل يقول : مكة والمدينة ، فلما أصبحت ، عزمت على السفر ، وكان الشيخ أبو الحسن بالمقياس بالقاهرة فسافرت إليه ، فلما مثلت بين يديه قال لى : مكة والمدينة ، فقلت : لأجل ذلك جئت يا سيدى قال: اجلس ،فجلست وإذا برجل دخل عليه وقال : يا سيدى عزمت على الحج وما معى شىء من الدنيا ، فقال لى الشيخ : أى شىء معك ؟ فقلت : عشرة دنانير ، قال : ادفعها لهذا الرجل ، فدفعتها إليه ، فقال لى الشيخ : إذا كان غداً اخرج إلى الساحل واشتر لى عشرين إردبًّا قمحاً : فأصبحت ونزلت إلى الساحل ، واشتريت عشرين إردبًّا ، وحملت القمح إلى المخزن ، وجئت إلى الشيخ ، فقال : هذا القمح قالوا لى إنه مسوس ، ما تأخذ منه شيئاً ، فبقيت متحيراً لا أدرى كيف أصنع ، وبقيت ثلاثة أيام لا يطالبنى صاحب القمح بالثمن ، فلما كان اليوم الرابع وإذا برجل يطوف علىّ فلما رآنى قال : أنت صاحب القمح؟ فقلت : نعم ، قال : تأخذ فيه فائدة ألف درهم ؟فقلت : نعم ، فوزن لى ألف درهم ، فوضع الله لى البركة فيها ، فلو قلت إنى أنفق منها إلى اليوم لصدقت » .
وكان أبو العباس يتنقل مع أستاذه أبى الحسن ويصحبه فى رحلاته إلى المدن

المصرية المختلفة وفى سفراته للحج ، وكان يشاركه فى إلقاء الدروس وتعليم المريدين ونشر أصول الطريق ، ولكنه بعد قليل استأذن الشيخ فى أن يسافر إلى القاهرة ليعمل على نشر الدعوة والتدريس بمدارسها ، فسمح الشيخ له ، وسافر أبو العباس وكان يلقى معظم دروسه فى جامع المقس ، وهو جامع أولاد عنان الحالى القريب من محطة باب الحديد ، ولكنه كان ولاشك يلقى بعض دروسه فى مساجد القاهرة ومدارسها الأخرى وخاصة بجامع عمرو بن العاص بالفسطاط .

ولما وافت سنة ٦٤٦ وكان الشيخ أبو الحسن قد تقدمت به السن وفقد بصره ، ولم تعد له قدرة على الإشراف على شؤون أتباعه ، رأى أن يستخلف تلميذه وصفيّه أبا العباس المرسى على شؤون الدعوة، وأعلن استخلافه له فى حفل جامع بين أتباعه فى مسجد العطارين بالإسكندرية ، ويبدو أن الشيخ أبا الحسن كان يمهد لهذا الاستخلاف فى مناسبات سابقة ، فإن ابن عطاء الله السكندرى يروى عن أحد مشايخ قرية « نشيل القناطر » واسمه خليل أنه قال :

« دخل علىّ الشيخ أبو الحسن الشاذلى فتوضأ عندى ، ثم أخذ قوساً لى فجرّها ثلاثاً ، فقلت له : يا سيدى من هو الخليفة بعدك ؟ فقال من يأتى إليك هاهنا ويتوضأ نحو وضوئى هذا ويجرّ هذا القوس ثلاثًا فهو الخليفة بعدى ، فدخل علىّ أصحاب الشيخ جميعهم ، فلم يتفق أن فعل ذلك أحد منهم حتى دخل الشيخ أبو العباس ، فتوضأ نحو وضوء الشيخ ، ورفع بصره فوجد القوس هناك ، فقال : ناولنيها ، فناولته إياها ، فجرّها ثلاث مرات ، ثم قال : يا خليل ، جاءك وعد الشيخ » .

وكان أبو العباس يردد مرة فى بعض مجالسه بحضرة شيخه أبى الحسن قول شيخه :

« لن تهلك أمة فيها أربعة : إمام وولى وصديق وشيخ »، قال الشيخ أبو الحسن : الإمام هو أبو العباس .

وكان الشيخ أبو الحسن يقول :

« أبو العباس شمس ، وعبد الحكيم قمر » .

وعبد الحكيم هذا واحد من تلاميذ الشيخ أبى الحسن وأصحابه .

وأخذ أبو العباس بعد إعلانه خليفة يشرف على شؤون الطريقة والأتباع ، فيلقى عليهم دروسه ، ويعمل على تهذيبهم وقيادتهم على الأسس التى رسمها الشيخ أبو الحسن وكان يلازم الشيخ حيناً ، وينفرد بدروسه فى الإسكندرية والقاهرة حيناً آخر .

إلى أن كانت سنة ٦٥٦ ﻫ وقد عزم الشيخ أبو الحسن على الخروج للحج ، فصحب معه نخبة من تلاميذه ، وفى مقدمتهم أبو العباس المرسى ؛ ولما وصل الركب إلى حميثرا فى صحراء عيذاب مرض الشيخ مرضاً شديداً لم يمهله طويلا ، وصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها فى هذا المكان المبارك ، وفى ليلة وفاته جمع أصحابه وأوصاهم ، يقول صاحب المفاخر العلية :

« ثم خلا بسيدى أبى العباس المرسى وأوصاه بأشياء ، واختصه بما خصه الله به من البركات »

ثم نادى أصحابه وقال لهم :

« إذا أنا مت فعليكم بأبى العباس المرسى ، فإنه الخليفة من بعدى ، وسيكون له مقام عظيم بينكم ، وهو باب من أبواب الله تعالى » .

صحب أبو العباس المرسى الجماعة الذين معه — بعد دفن أستاذه — إلى الحجاز ، وأدى فريضة الحج ، ثم عاد إلى الإسكندرية ، فجلس مجلس أستاذه الشيخ أبى الحسن ، وخلفه فى مكانته ، فكان يرعى شؤون الأتباع ، ويقوم بإرشادهم وتعليمهم ، ويعقد حلقات الذكر والدرس ، وشاع منذ ذلك الحين ذكره ، وذاعت شهرته ، فقصده الطلاب والأتباع من كل مكان ، ورحل إليه القصاد من مختلف البلدان ، يسألونه المعرفة ، ويلتمسون منه البركة والدعاء ، ووفد عليه العلماء والفقهاء يستزيدون من علمه » .

وكان يقيم معظم السنة فى الإسكندرية ، ويرحل فى بعض الشهور إلى القاهرة حيث يعقد حلقات دروسه فى جامعى المقس وعمرو بن العاص ، وكانت هذه الحلقات تزدحم دائماً بالمستمعين وأكثرهم من علماء القاهرة ، وخاصة إذا بدأ فى قراءة الرسالة للإمام القشيرى ، فقد كانت أيام شرحه لها من الأيام المعدودة ، لأنه كان يأتى فى هذا الشرح بكل بديع ، بحيث يملك على السامعين نفوسهم

وأرواحهم ، ويهز مشاعرهم ، وقد أناب على يديه بعد هذه الدروس — كما يقول الأستاذ السندوبى — خلق لا عد لهم ولا حصر .
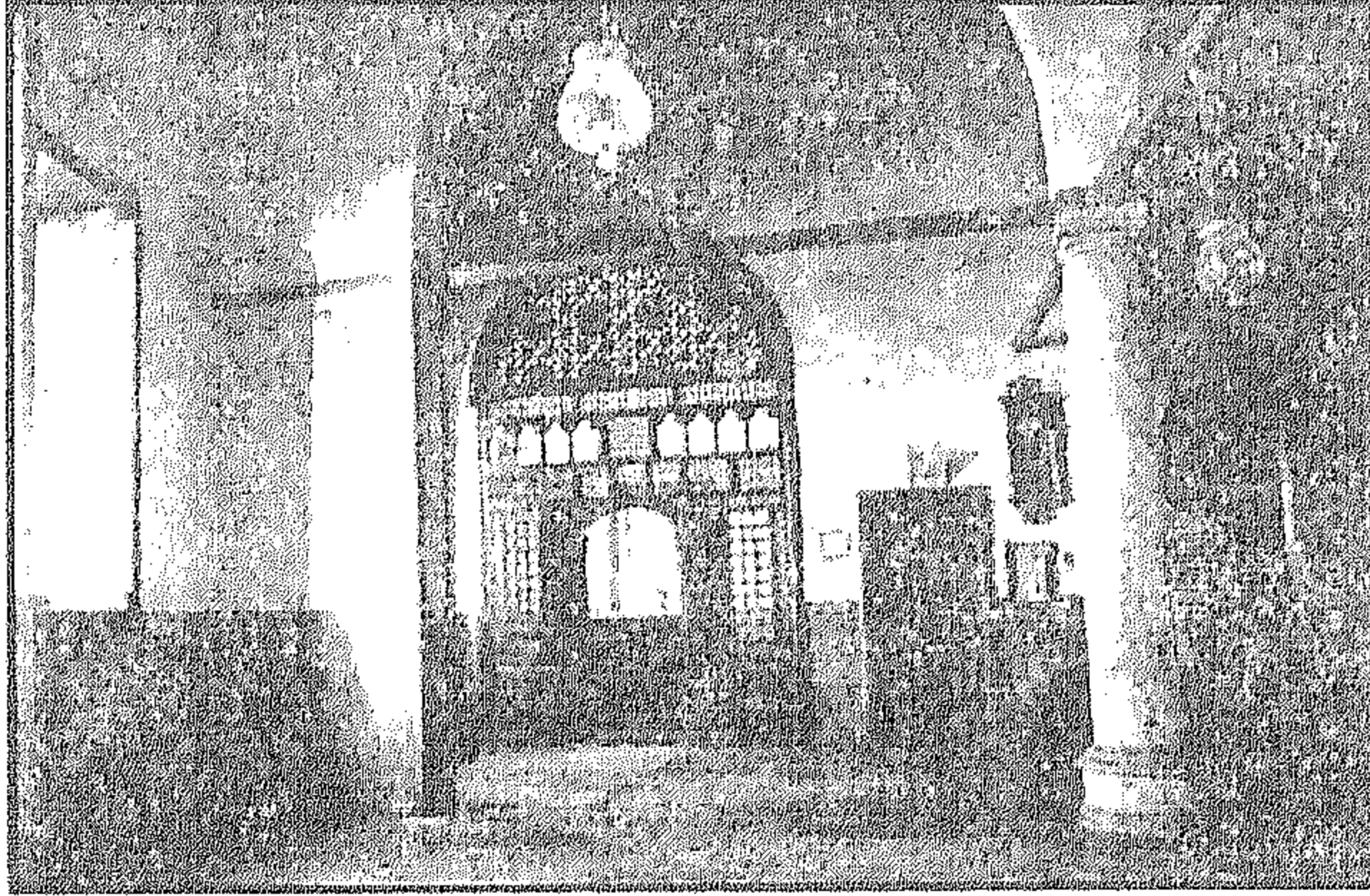
مسجد العطارين من الداخل

وفيه أعلن أبو الحسن الشاذلى استخلافه لتلميذه أبى العباس المرسى فى حفل

وقد ذكر ابن عطاء الله أن الشيخ شمس الدين الأصفهانى والشيخ شمس الدين الأيكى — وهما من علماء مصر المبرزين فى ذلك العصر — كانا يجلسان بين يدى أبى العباس المرسى جلوس المستفيد آخذين عنه ومعلقين ما يبديه .

وكان الشيخ أبو العباس المرسى يعبد الله خير عبادته ، ويكره التكلف والتظاهر بالزهد والادعاء والرياء ، فكان إذا قام للصلاة صلى صلاة خفيفة لا يطيل الركوع والسجود ، ولا يسترعى الأسماع بقراءته حتى لا يلفت الأنظار إلى صلاته وعبادته ، فإنه يعتقد أن صلاته لله سبحانه .

وكان الشيخ إذا حضر مجلساً يُقرأ فيه القرآن خشع الخشوع كله ، وربما أخذته حال من الرهبة والخوف عند تلاوته ، وسئل فى ذلك فقال :

« لكأنما أقرؤه على رسول الله — صلى الله عليه وسلم »

وقال مرة أخرى : « لكأنما أقرؤه على الله عز وجل » .

وكان يريد من الأتباع جميعاً أن يتجهوا فى عباداتهم إلى الله سبحانه وتعالى ، وأن يفنوا فيه ، وألا يفكروا إلا فى ذاته العلية ، وأن يبعدوا بعداً تاماًّ عن المظاهر والرياء والنفاق والتظاهر بالعبادة ، زاره يوماً بعض العائدين من الحج فسألهم :

« كيف كان حجكم ؟ »

فقالوا :

« كان كثير الرخاء ، كثير الماء ، ابتعنا الماء بكذا . . . »

فأعرض عنهم وقال :

أسألهم عن أثر الحج فى نفوسهم من تلبية لله وما فتح به عليهم ، وما وجدوه وما فازوا به ، فيجيبون برخاء الأسعار وكثرة المياه ، وكأنهم لم يُسألوا إلا عن ذلك ، إذا وصلت إلى البيت الحرام فلا يكن همك البيت وليكن همك رب البيت ، ولا تكن ممن يعبد الأوثان والأصنام » .

وأبو العباس فى هذا متأثر كل التأثر بالآداب التى أخذه بها أستاذه أبو الحسن الشاذلى ، فقد كان الشيخ أبو الحسن يعنيه الإخلاص الحقيقى والإيمان الحقيقى ، ولا يعنيه التظاهر . قال أبو العباس :

« دخلتُ يوماً على الشيخ أبى الحسن وفى نفسى أن آكل الخشن وألبس الخشن ، فقال لى : يا أبا العباس ، اعرف الله وكن كيف شئت » .

وبهذه الآداب وبغيرها كثير مما يشبهها كان الشيخ أبو العباس المرسى يأخذ أتباعه ومريديه ، فكان يرفق بهم ويهذب نفوسهم ، ويرعى شؤونهم ، وإذا قصده مريد قابله فى الحال ، واستمع فأحسن الاستماع ، وباسطه فى الحديث ، وكان يكره للأشياخ إذا جاءهم مريد أن يقولوا له : قف ساعة ، ويقول :

« إن المريد يأتى إلى الشيخ بهمته المتوقدة ، فإذا قيل له : قف ساعة طفىء ما جاء به » .

ولم يكن أبو العباس يستأثر بأتباعه ، أو يمنعهم من الاتصال بغيره من الشيوخ ، وكان يردد فى هذا قول شيخه :

« اصحبونى ولا أمنعكم أن تصحبوا غيرى ، فإذا وجدتم منهلا أعذب من هذا المنهل فردوه » .

وكان أبو العباس خير مرب لأتباعه ومريديه ، فلا يثنى على واحد منهم بحضور إخوانه ، حتى لا تقوم بينهم أسباب الحسد والبغضاء ، وإذا مدحه واحد منهم بقصيدة أقبل عليه وأجزل له العطاء .

وخير ما كان يتصف به أبو العباس ، وخير ما كان يعمل على تلقينه لأتباعه عزة النفس والتعفف عما بأيدى الناس ، والثقة كل الثقة بالله ، فكان يقول لأصحابه :

والله ما رأيتُ العزَّ إلا فى رفع الهمة عن الخلق ، وما السلامة فى الدنيا إلا بترك الطمع فى المخلوقين» .

ولهذا كان لا يحب مقابلة الحكام وذوى السلطان أو التوسط والشفاعة لديهم ، فهم فى عقيدته لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا ، وواجب المسلم أن يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى .

جاءه يوماً أحد الناس وطلب وساطته عند بعض الحكام فى حاجة له فقال له : « أنا أطلب لك ذلك من الله » .

وكان — فيما يقال — إذا نام ببلد فى السفر ، وعرف أن كبير ذلك البلد يريد الاجتماع به يسافر من ليلته قبل الفجر ولا يجتمع به .

وقد أقام أبو العباس فى الإسكندرية ما يزيد على ثلاث وأربعين سنة لم يحاول فى خلالها أن يزور والى المدينة أو أن يقصده فى مطلب أو شفاعة ، ومع هذا فقد طلب والى المدينة رؤية الشيخ والاجتماع به ، ولكن الشيخ أبى ورفض ، وقد قال له يوماً الزكى الأسوانى — عديله وأحد أصدقائه وأتباعه — :

« يا سيدى : إن متولى الإسكندرية يؤثر الاجتماع بك والأخذ عنك ، فتكون شيخه ويكون من مريديك » .

فقال الشيخ :

« يا زكى ، لست ممن يُلعب به والله إنى ألقى الله ولا يرانى ولا أراه » .

فكان كذلك .

وروى أن متوليًّا آخر للثغر أتاه وفى صحبته ناظر الثغر وشاد الدواوين ، ولكن الشيخ غلب عليه ليلة حضورهم القبض ، ولم ينبسط للكلام كعادته ، حتى كان مريدوه يقولون :

« ليت ما كان يتكلم به معنا كان ليلة حضورهم » .

وحضر يوماً لزيارته الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ، وهو مدبر المملكة وصاحب الحول والطول فى عهد السلطان قلاوون ، تقول المراجع :

« فما ألوى الشيخ إليه عنان همته ، ولا فوّق نحوه سهام عزيمته ، ولما استعرض الأمير رغائب الشيخ ، قال الزكى الأسوانى : يا سيدى اطلب منه أرضاً يزرعها أصحابك ، فقال الشيخ : يا زكى، هذا ما لا يكون أبداً » .

وذكر ابن عطاء الله السكندرى — تلميذ أبى العباس — أن الطواشى بهاء الدين ، ومشدّ الديوان ، والفقيه شمس الدين بن الخطيب ناظر الأحباس جاءوا مرة لزيارة الشيخ وقالوا له :

« إن هذه القلعة — يقصدون المكان الذى كان يقيم فيه الشيخ مع أتباعه — تحتاج إلى حصر وزيت وقناديل ، ويحتاج الفقهاء فيها إلى ما يأكلون ، ونحن حكام الوقت نطلق لهم شيئاً كل شهر ، فقال الشيخ : حتى أشاور أصحابى ، ثم قال لأصحابه : بماذا تشيرون ؟ فلم يرجع أحد جواباً ، فكرّر السؤال ، فلم يجبه أحد ، فقال : اللهم أغننا عنهم ولا تغننا بهم إنك على كل شىء قدير ؛ ومات الشيخ وليس للمكان مرتب ولا معلوم » .

هذا هو الإسلام الحق ، وهذه هى الأخلاق الإسلامية الأصيلة : العزة والكرامة ، والتعفف عن الناس ، والغنى بالله ، والسعى والعمل ، والإيمان الحق بعد هذا كله بالله سبحانه وتعالى ، فليت قومى يعلمون ، وليتهم بهذه الأخلاق يعملون .

ولقد كان أبو العباس المرسى فى اتباعه هذه الأخلاق والتزامه هذه الآداب إنما يترسم خطى أستاذه أبى الحسن الشاذلى ، فهو فى أحاديثه ودروسه دائم الذكر له ، يستشهد بأقواله ، ويضرب بها المثل لتلاميذه ، معترفاً بفضله عليه ، وبأثره

الواضح فى تكوينه وتثقيفه وتربيته ، فهو القائل :

« منذ دخلت على الشيخ أبى الحسن فى القاهرة وهو يُقرأ عليه كتاب "المواقف للنفزى" وقال لى : تكلم يا بنى بارك الله تعالى فيك ، أُعطيت لساناً من ذلك الوقت » .

وهو القائل :

« قال لى شيخى : لا تصحب إلا من يكون فيه أربع خصال : الجود فى القلة ، والصفح عن الظّلامة ، والصبر على البلية ، والرضى بالقضية » .

وكان أبو العباس نعم الأستاذ لتلاميذه ومريديه يعرض فى أحاديثه وشروحه لبعض الآيات والأحاديث لتفسير بعض المشكلات التى تعرض لهم وللمجتمع المحيط بهم وقتذاك ، يجلو بذلك الغامض ويوضح المبهم .

كان للصوفية وللتصوف فى عصره شأن أى شأن ، وكانت بين المتصوفة والفقهاء خصومة عاشت وقتاً طويلا بعد ذلك ، كل فريق يعرّض بعلم الفريق الآخر ، ويبدو أن الناس منذ تلك العصور البعيدة اختلفوا فى شأن التصوف وماهيته وأصله ، وفى أصل كلمة التصوف ، وقد عرض الشيخ أبو العباس مرة لهذا الموضوع فى أحاديثه قال :

« اختلف الناس فى اشتقاق الصوفى ، فمنهم من قال : هو منسوب إلى الصوف ، لأنه لباس الصالحين ، ومنهم من قال : هو منسوب إلى الصُّفة يعنى صُفّة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم التى نسب إليها أهل الصُّفّة ، وهو نسب على غير قياس ، وأحسن ما قيل فيه : إنه منسوب لفعل الله به ، أى صافاه الله ، فصوفى ، فسُمى الصوفى ، قال الشاعر :

تخالف الناسُ فى الصوفى واختلفوا ، وكلهم قال قولا غير معـــروفِ
ولست أمنحُ هذا الاسمَ غيرَ فتًى ، صافى ، فصُوفى ، حتى سمى الصوفى»

وقال مرة أخرى :

« الصوفى مركب من حروف أربعة : الصاد والواو والفاء والياء » ،

فالصاد : صبره وصدقه وصفاؤه ، والواو : وجده ووده ووفاؤه ،
والفاء : فقده وفقره وفناؤه ، والياء : ياء النسبة ،

فإذا تكمل ذلك أضيف إلى حضرة مولاه » .

وكان المجتمع الإسلامى يعرف على ذلك الوقت نوعاً من التنظيمات الاجتماعية الدينية يعرف بنظام الفتوّة ، ويُعرف أتباعه بالفتيان، ويرجعه البعض إلى على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وكانت جماعات الفتيان منظمة تنظيماً حزبيًّا دقيقاً ، فكان لها رؤساء ونقباء وزعماء ، وكان العضو الذى ينضم إلى هذه الجماعة يحتفل بتنصيبه فتًى احتفالا عامًّا مهيباً، من مراسيمه أن يتقدم النقيب إلى العضو الجديد فينزع عنه لباسه بيد ، ويلبسه لباس الفتوة باليد الأخرى ، ولباس الفتوة سراويل قصيرة ، ثم يشترك الحضور فى كأس مملوءة بالماء الملح ، ويؤخذ على الفتى العهد بأن يلتزم آداب الفتوة ، وهى كلها آداب سامية تدعو إلى أداء الأمانة ، وأداء الفرائض ، ونصرة المظلوم ، وصلة الرحم ، والعفو عند المقدرة ، واحتمال الأذى ، والوفاء بالعهد ، وما يشبهها ، ويبدو أن المتصوفة كانوا يعتقدون أن طريقهم كان خيراً من طريق الفتيان ، لأن طريقهم يعتمد على الإيمان ، وطريق الفتيان يعتمد على المظاهر .

وقد عرض أبو العباس المرسى لهذا الموضوع فى شرحه لبعض آيات القرآن لبعض أتباعه ، قال فى قوله تعالى :

« وإبراهيمَ الذى وَفّى » : وَفّى بمقتضى قوله : « حسبى الله » ، وما سمى إبراهيم الخليل « فتى » إلا لكونه كسر الأصنام الحسية التى وجدها ، وأنت يا ولدى لك أصنام خمسة معنوية ، فإن كسرتها فأنت فتى : النفس ، والهوى ، والشيطان ، والشهوة ، والدنيا ، وافهم هاهنا : « لا سيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا على » وليست الفتوة بالماء والملح ، وإنما الفتوة الإيمان والهداية » . وأبو العباس المرسى مع تضلعه فى علوم الدين والتصوف لم يؤلف كتاباً ، شأنه فى ذلك شأن شيخه أبى الحسن الشاذلى ، وإنما خلف من بعده عدداً من التلاميذ الأفذاذ كان كل منهم قطباً من بعده ، وعلماً من أعلام الفكر فى الإسكندرية ، ويكفى أن نشير هنا إلى نفر من تلاميذه النبغاء من أمثال : ياقوت العرش ، وابن عطاء الله السكندرى ، والبوصيرى ، وابن الحاجب ، والشاطبى ، والقبارى وغيرهم كثيرون .

ومع هذا فقد نقل هؤلاء التلاميذ عن أستاذهم أبى العباس كثيراً من أقواله ، ومعظمها شروح لبعض آيات القرآن ، أو لبعض الأحاديث النبوية ، أو تفصيلا للطريق وتفسيراً لآدابه ، وهذه الأقوال جميعاً تدل دلالة واضحة على أن أبا العباس كان أديباً ممتازاً يحسن الفهم ويحسن التعبير ، وفى الأمثلة التى أوردناها من قبل شواهد على صحة ما نقول ، ويبدو أيضاً أن أبا العباس كان شاعراً ، وأن شعره لم يكن يقل جودة عن نثره ، وقد حفظت لنا المراجع بعض هذا الشعر ، فمن شعره الصوفى قوله :

ذاب رسمى وصحَّ صدقُ فنائى ،   وتجلَّت للسر شمسُ سمائى
وتنزلتُ فى العوالم أُبدى   ما انطوى فى الصفات بعد صفائى
فصفاتى كالشمسِ تُبدى سناها ،   ووجودى كالليل يخفى سوائى
أنا معنى الوجود أصلاً وفصلاً ،   مَن رآنى فساجدٌ لبهائى
أنا نورٌ لأهله مستبينٌ ،   اشهدونى ، فقد كشفتُ غطائى

وهكذا لبث أبو العباس المرسى فى الإسكندرية ثلاثاً وأربعين سنة ينشر العلم ، ويهذب النفوس ، ويضرب المثل بورعه وتقواه ، إلى أن انتقل إلى جوار ربه فى الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٨٥ (١٢٨٧) ، ودفن فى الإسكندرية
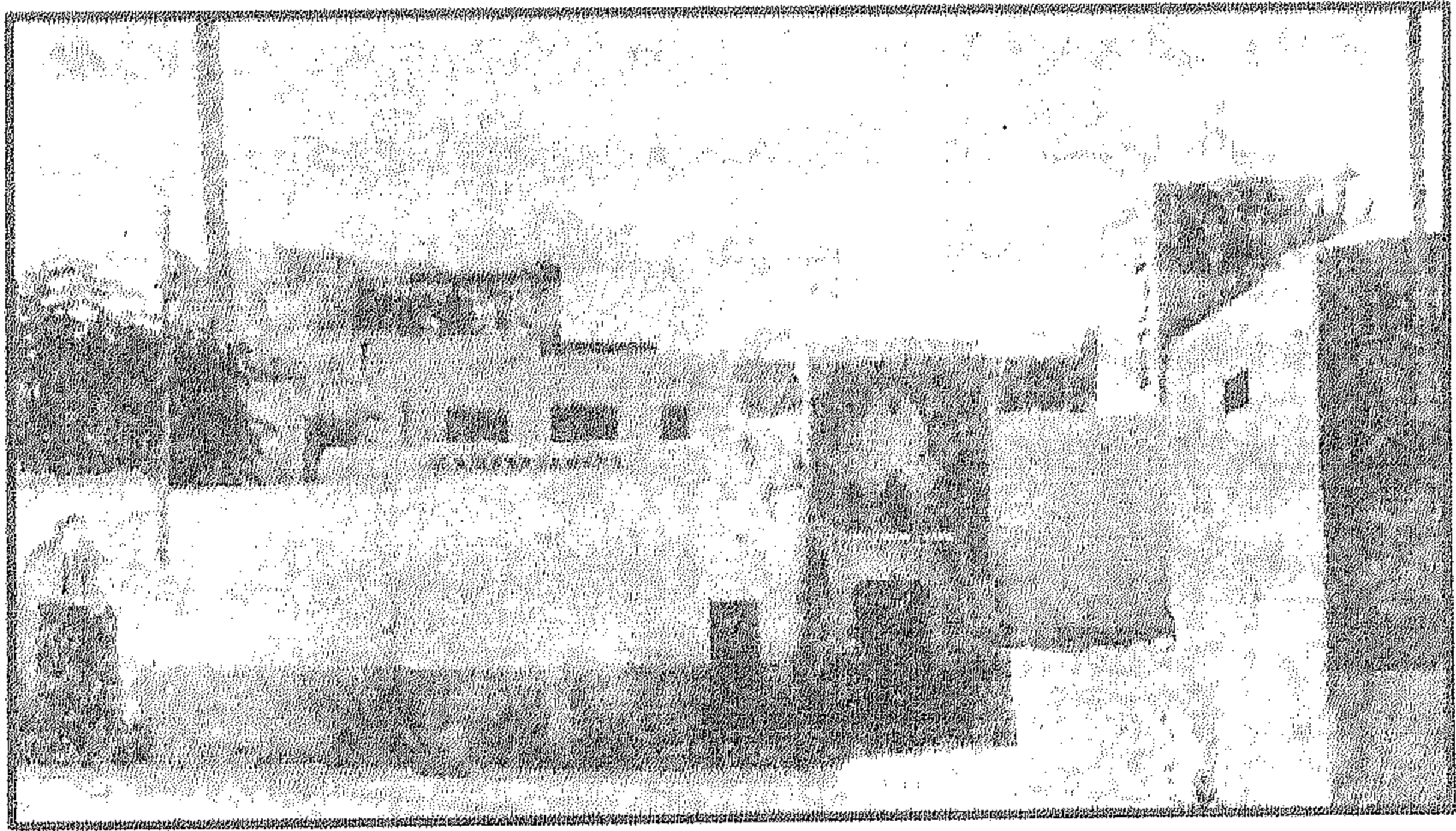
مسجد ياقوت العرش
(تلميذ أبى العباس)
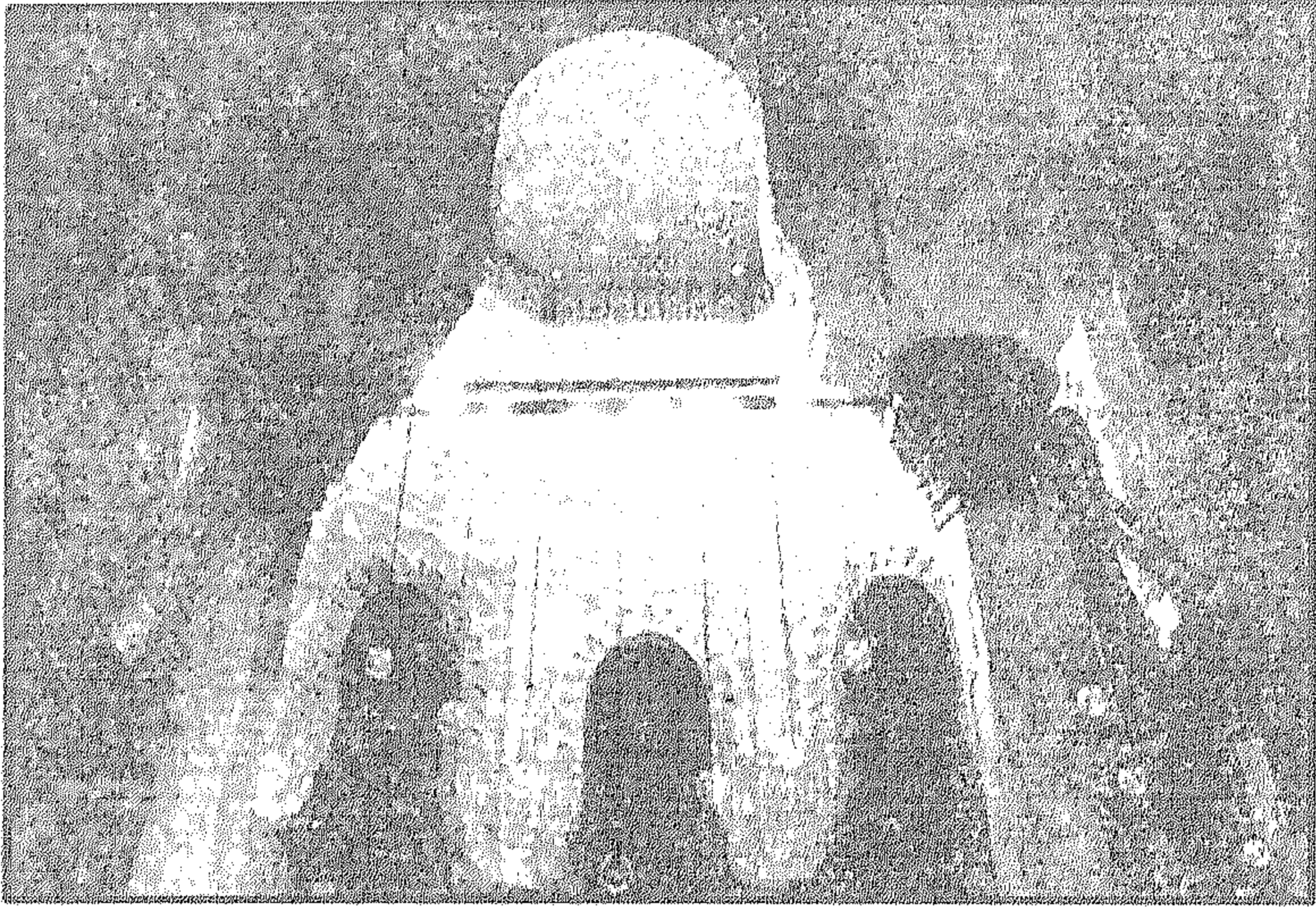
مسجد أبى العباس المرسى

(من الداخل)

فى مقبرة باب البحر ، وأصبح قبره منذ ذلك الوقت مقصداً للزوار يلتمسون عنده البركة ، إلى أن كانت سنة ٧٠٦ (١٢٠٧) حيث زاره كبير تجار الإسكندرية فى ذلك الوقت الشيخ زين الدين بن القطان ، فبنى على القبر ضريحاً تعلوه قبة ، وبنى لأول مرة مسجداً يضم الضريح ، وللمسجد مئذنة مربعة ، ورتب له إماماً وخداماً وقواماً ، وأوقف الأوقاف للصرف عليه .

وقد خضع هذا المسجد لتطورات كثيرة بعد ذلك ، فقد عنى به فى أواخر القرن التاسع الهجرى فى سنة ٨٨٢ الأمير قجماس الإسحاقى الظاهرى والى الإسكندرية ، فأعاد بناءه بعد أن وجده مهملا مشعث الأركان ، وبنى لنفسه فى داخله قبراً دُفن فيه بعد وفاته .

وفى سنة ١٠٠٥ هـ (١٥٩٦) جدد بناءه الشيخ أبو العباس السنفى الخزرجى ودُفن فيه بعد وفاته .

وفى سنة ١١٨٩ (١٧٧٥) زار الإسكندرية الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله المغربى ولاحظ أن المسجد قد تهدم بنيانه ، وأنه يضيق بالمصلين ، فجدد معظم أجزاءه ووسع بعض نواحيه .

ثم أهمل المسجد بعد ذلك وساءت حالته إلى أن كانت سنة ١٢٨٠ (١٨٦٣) فعنى به عناية كبيرة أحمد بك الدخاخنى شيخ طائفة البنائين بالإسكندرية ، وجدد مبانيه ، وأوقف عليه الأوقاف الكثيرة ، وقد وصفه على باشا مبارك فى القرن الماضى بقوله :

« وشعائره مقامة على الوجه الأتم ، ويصرف عليه من طرف ديوان الأوقاف بالإسكندرية ، كما أن ريعه ومرتباته مضبوطة به » .

وفى سنة ١٩٢٧ أعدت وزارة الأوقاف مشروعاً لإعادة بناء مسجد أبى العباس وإنشاء ميدان فسيح أمامه يسمى ميدان المساجد ، ووضعت الأسس للبناء الجديد فى أوائل سنة ١٩٢٩ ، وتم المسجد فى سنة ١٩٤٤ ، فأصبح أجمل مساجد المدينة وأبهاها منظراً.

رحم الله أبا العباس وأسكنه الله فسيح جناته .

ابن عطاء الله السكندري

تاج الدين أبو الفضل أحمد
ابن محمد بن عبد الكريم

(حوالى ٦٥٨ هـ — ٧٠٩) = (حوالى ١٢٦٠ — ١٣١٠م) .

« والشكر على ثلاثة أقسام : شكر باللسان ، وشكر بالأركان ، وشكر بالجنان :

فشكر اللسان التحدث بالنعمة ، قال تعالى : « وأما بنعمة ربك فحدث »

وشكر الأركان العمل بطاعة الله ، قال سبحانه وتعالى : « اعملوا آل داود شكراً »

وشكر الجنان الاعتراف بأن الله وحده هو المنعم ، قال تعالى : « وما بكم من نعمة فمن الله » .

ابن عطاء الله السكندري

ابن عطاء الله السكندرى
تاج الدين أبو الفضل أحمد
ابن محمد بن عبد الكريم

هو تاج الدين أبو الفضل — أو أبو العباس — أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله الجذامى السكندرى، مصرى أصيل ، ولد فى الإسكندرية ، وبها نشأ نشأته الأولى وتثقف ثقافته الأولى ، وإن كانت المراجع لا تذكر شيئاً عن هذه النشأة أو هذه الثقافة الأولى ، وغاية ما تذكره أنه كان مالكى المذهب ، وإن كان البعض يذكر أنه كان حسن النظر فى مذهبى الشافعى ومالك .

وتجمع هذه المراجع على أنه درس علوم الظاهر ونبغ فى علوم الشريعة واللغة من تفسير وحديث وفقه ونحو وبيان وأدب .

وتبدأ المراجع تسهب فى ترجمته وإيراد سيرته منذ بدأ يتصل بشيخه أبى العباس المرسى ، وتاريخ ابن عطاء الله يتصل اتصالا وثيقاً بتاريخ الحركة الفكرية وتاريخ التصوف فى مصر فى القرنين السادس والسابع الهجريين ، فهما القرنان اللذان انتشر فيهما التصوف فى جميع أنحاء العالم الإسلامى شرقاً وغرباً ، وفيهما اعترف أهل السنة بالتصوف أساساً لفهم الدين الإسلامى فهماً روحيًّا بعد أن ظلوا يناضلونه وقتاً طويلا ، وأصبحت الوسيلة لمعرفة الله هى التفرغ لعبادته ، والفناء فى حبه ، والاتصال به عن طريق تصفية القلب والسمو بالنفس والروح ، وترك المتصوفة جانباً وسائل الفقهاء وعلماء الكلام من اعتماد على المنطق الجاف والجدل العقيم لإثبات وجود الله وبيان قدرته سبحانه وتعالى .

وفى هذين القرنين ظهرت الطرق الصوفية الكبرى من أمثال الطريقة القادرية والطريقة الرفاعية فى المشرق ، كما ظهرت فى مصر وفى نفس الوقت تقريباً الطريقة الأحمدية البدوية والطريقة الشاذلية ، وكثر بالتالى أتباع هذه الطرق من المتطلعين إلى حياة روحية تعتمد فى أسسها ومثلها الأخلاقية العليا على أصول الإسلام

وتعاليمه ، وعلى القواعد التى يعتمد عليها ويعترف بها أهل السنة ، وهى القرآن الكريم والحديث الشريف .

ولابن عطاء الله فضل كبير على الطريقة الشاذلية ، فهو الذى ترجم لأستاذه أبى العباس المرسى ولأستاذ أستاذه مؤسس الطريقة أبى الحسن الشاذلى ، وهو الذى سجل عنهما معظم مبادئهما وأقوالهما .

وابن عطاء الله نموذج وحده بين المتصوفة ، فقد كان يجمع بين العلمين : علم الظاهر وعلم الحقيقة والطريق ، وكان مبرزاً فيهما جميعاً ؛ فقد نبغ أول حياته فى علوم الظاهر ، وكان كغيره من الفقهاء ينكر على المتصوفة طريقتهم وعلومهم إلى أن أتيحت له الفرصة للتعرف على أبى العباس المرسى ، ومنذ تعرف إليه آمن بطريقتهم ، واعترف بعلومهم ، بل أصبح التلميذ الأثير لأبى العباس المرسى ، وواحداً من كبار المتصوفة ، وقد روى ابن عطاء الله قصة تعرفه بأبى العباس ، قال فى « لطائف المنن » :

« كنتُ لأمره (أمر أبى العباس) من المنكرين ، وعليه من المعترضين ، لا لشىء سمعته منه ، ولا لشىء صح نقله عنه ، حتى جرت بينى وبين بعض أصحابه مقاولة ، وذلك قبل صحبتى إياه ، وقلتُ لرجل منهم : ليس إلا أهل العلم الظاهر ، وهؤلاء القوم يدعون أموراً عظيمة ، وظاهر الشرع يأباها ، ثم قلتُ فى نفسى : دعنى أذهب إلى هذا الرجل وأنظر فى شأنه ، فصاحب الحق له أمارات لا تخفى ، فأتيت إلى مجلسه ، فوجدته يتكلم فى الأنفاس التى أمر الشارع بها ، فقال :

« الأول إسلام ، والثانى إيمان ، والثالث إحسان .

وإن شئت قلت :

الأول عبادة ، والثانى عبودية ، والثالث عبودة .

وإن شئت قلت :

الأول شريعة ، والثانى حقيقة ، والثالث تحقق ؛ أو نحو ذلك .

فما زال يقول :

وإن شئت قلت ، وإن شئت قلت ، إلى أن بهر عقلى ، وعلمت أن الرجل

إنما يغترف من فيض بحر إلهى ، ومدد ربانى ، فأذهب الله ما كان عندى » .

ثم يستطرد ابن عطاء الله فى رواية قصته مع أبى العباس فيقول :

« ثم أتيت تلك الليلة إلى المنزل فلم أجد فىّ شيئاً يقبل الاجتماع بالأهل على عادتى ، ووجدت معنى غريباً لا أدرى ما هو ، فانفردت فى مكان أنظر إلى السماء ، وإلى كواكبها ، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته ، فحملنى ذلك على العود إليه مرة أخرى » .

« فأتيت إليه فاستؤذن لى عليه ، فلما دخلت إليه قام قائماً وتلقانى ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلا ، واستصغرت نفسى أن أكون أهلا لذلك ، فكان أول ما قلت له : يا سيدى أنا والله أحبك ، فقال : أحبك الله كما أحببتنى ، ثم شكوت إليه ما أجده من هموم وأحزان ، فقال : أحوال العبد أربع لا خامس لها : النعمة ، والبلية ، والطاعة ، والمعصية ؛ فإن كنت بالنعمة فمقتضى الحق منك الشكر ، وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منك الصبر ، وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود منته عليك فيها ، وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجوب الاستغفار . فقمت من عنده وكأنما كانت الهموم والأحزان ثوباً نزعته ، ثم سألنى بعد ذلك بمدة ، كيف حالك ؟ فقلت : أفتش عن الهم فما أجده فقال :

ليلى بوجهك مشرقٌ ، وظلامه فى الناس سارى
والناس فى سدف الظلام ، ونحن فى ضوء النهارِ

إلزم ، فوالله لئن لزمت لتكونن مفتياً فى المذهبين » .

يريد مذهب أهل الشريعة من أصحاب العلوم الظاهرة ، ومذهب أهل الحقيقة من أصحاب علوم الباطن » .

هذا الحديث هو الذى رفع الغشاوة عن عينى ابن عطا الله ، وعلمه أن الطريق إلى الله طويل ، وله مراحل مختلفة ، وهو ما يسميه المتصوفة « درجات السالكين » .

وأولى هذه الدرجات عندهم — كما كان يشرح أبو العباس — الإسلام أى الطاعة والانقياد والقيام بفروض الشريعة ، وثانيتها « الإيمان » ، وهو مقام معرفة

حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية ومقتضيات الربوبية ، وثالثها « الإحسان » وهو مقام شهود الحق تعالى فى القلب ، ومن هنا سمى أبو العباس هذه المراتب فى مقام الشرح والتفصيل : بالعبادة ، والعبودية ، والعبودة أى التحقق .

وأدرك ابن عطاء الله أيضاً أن لكل واحد من السالكين إلى الله مرتبته ومقامه ، فنهم من يرقى إلى المقام الثانى أو الثالث ، وبقدر ما يرقى السالك فى هذا الطريق بقدر ما يحصل من السعادة الناتجة عن معرفة الله سبحانه وتعالى والفناء فى حبه .

كان لهذا كله أثره فى حياة ابن عطاء الله وفكره وإنتاجه ، فقد بدأ مريداً بعد أن حصل من العلم قدراً وافراً ، وبعد أن نبغ فى دراسة الفقه والشريعة والأدب وعلوم الظاهر عامة ، لهذا لم يلبث أن أصبح أقرب تلاميذ أبى العباس إليه ، وبعد وفاته انتقلت إليه زعامة الطريقة الشاذلية وجلس مجلس أستاذه ، يلقى المواعظ ويفسر القرآن تفسيراً صوفيًّا ، وانتقل إلى القاهرة ، واتخذ له كرسيًّا فى الجامع الأزهر يلقى فيه دروسه ويشرح آداب التصوف وتعاليمه .

وكان ابن عطاء الله إلى جانب هذا أديباً حلو الحديث مشرق العبارة ، فكان لدروسه أثر كبير فى نفوس سامعيه ، لهذا أجمع مؤرخوه على وصف أسلوبه « بالحلاوة » و « سحر التأثير » و « الجلالة » .

قال ابن تغرى بردى :

« وكان رجلا صالحاً عالماً يتكلم على كرسى ، ويحضر ميعادَه خلقٌ كثير ، وكان لوعظه تأثير فى القلوب ، وكانت له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطرق » .

وقال الشعرانى :

« كان ينفع الناس بإشاراته ، ولكلامه حلاوة فى النفوس وجلالة » .

وهؤلاء المؤرخون لم يبعدوا عن الحقيقة ، فإنا نحس هذه الحلاوة وهذه الجلالة وهذا التأثير الروحى عند قراءتنا لما وصلنا من آثار عطاء الله ومؤلفاته ، من أمثال « التنوير فى إسقاط التدبير » ، ولكنها تبدو واضحة قوية كأوضح وأقوى ما تكون فى كتابه الصغير المشهور « الحكم » .

كان ابن عطاء الله أديباً ممتازاً ذا أسلوب حلو مشرق ، وكان هذا الأسلوب

ذا أثر خطير فى نفوس الناس ، فأقبلوا على دروسه وتحدثوا عنها ، وسمع به السلطان المملوكى المعاصر حسام الدين لاچين ، فشاقه أن يرى الرجل ، وأن يستمع إليه ، فاستدعاه إليه ، وقد روى لنا ابن عطاء الله نفسه خبر هذه المقابلة ، وطرفاً من المواعظ التى ألقاها فى حضرة السلطان ، قال :

« لما اجتمعتُ بالسلطان الملك المنصور لاچين رحمه الله قلت له : يجب عليكم الشكر لله ، فإن الله قرن دولتكم بالرخاء ، وانشرحت قلوب الرعايا بكم ، والرخاء أمر لا يستطيع الملوك تكسبه ولا استجلابه كما يتكسبون العدل والجود والعطاء .

قال السلطان :

وما الشكر ؟ قلت : الشكر على ثلاثة أقسام :

شكر باللسان ، وشكر بالأركان ، وشكر بالجنان .

فشكر اللسان التحدث بالنعمة ، قال تعالى : "وأما بنعمة ربك فحدث"

وشكر الأركان العمل بطاعة الله ، قال تعالى : "اعملوا آل داود شكراً"

وشكر الجنان الاعتراف بأن الله وحده هو المنعم ، قال تعالى : "وما بكم من نعمة فمن الله" .

فقال السلطان : وما الذى يصير به الشاكر شاكراً ؟

قلت : إذا كان ذا علم فالتبيين والإرشاد ، وإذا كان ذا غنى فبالبذل والإيثار للعباد ، وإذا كان ذا جاه فبإظهار العدل فيهم ودفع الأضرار والأنكاد » .

بهذا الأسلوب الواضح المعبر المعتمد على الحكم والمنطق تحدث ابن عطاء الله عن الشكر للسلطان ، فاستطاع أن ينفذ إلى قلبه وأن يستحوذ على إعجابه .

وأسلوب ابن عطاء الله فى الحكم لا يختلف عن هذا كثيراً ، بل لقد بلغ فيه الذروة القصوى من الإبداع والتركيز والتحليل وشرح آداب الطريقة ، فإن له فيها منهجاً خاصًّا ، فهو لا يعنى بالمعنى وحده ولا بالأسلوب وحده ، بل هو يعتقد أن للبيان سحراً خاصًّا ، لهذا كان يتخير الألفاظ ذات الجرْس الخاص والنغم الموسيقى المؤثر ، ومن هنا كان لحِكَمه سحر يؤثر فى نفوس قارئى الحكم

وسامعيه ، ولهذا ظل كتابه الحكم يقرأ قروناً طويلة فى جامعة الأزهر بالقاهرة ، وفى جامع الزيتونة بتونس ، وفى جامعة القرويين بفاس

استمع إليه وهو يقول فى بعض حكمه :

« كيف يشرق قلبٌ صُوَرُ الأكوان منطبعة فى مرآته ؟

أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته ؟

أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله ، وهو لم يطهر من جنابة غفلاته ؟

أم كيف يرجو أن يفهم الأسرار وهو لم يتب من هفواته ؟ »

وأنت تلاحظ عند قراءتك لحكمه ومؤلفاته الأخرى أنه متأثر غاية التأثر بأستاذه أبى العباس المرسى ، فهو يأتى بالحقيقة ، ثم يحللها ، ثم يشرحها ، ثم يكرر التعبير عنها بأساليب وعبارات مختلفة ، ثم هو فى هذا كله يتخير الألفاظ ذات الجرس الخاص والنغم الموسيقى المعبر المؤثر .

ثم هو أخيراً يراعى التدرج فى تفصيل أجزاء الحكمة أو الحقيقة التى يشرحها .

استمع إلى هذه الحكمة الأخرى من حِكَمِه :

« كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الذى أظهر كل شى ؟

كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الذى ظهر بكل شىء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الذى ظهر فى كل شىء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الذى أظهر لكل شىء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو أظهر من كل شىء؟

كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الواحد الذى ليس معه شىء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو أقرب إليك من كل شىء ؟

كيف يتصور أن يحجبه شىء ولولاه ما كان وجود كل شىء ؟ »

وميزة أخرى كان يمتاز بها ابن عطاء الله عن غيره من المتصوفة ، وذلك أنه لم يدخل الطريق إلا بعد أن أتقن علوم الشريعة والظاهر ونبغ فيها ، ولهذا كان يعتز بهذه المعرفة وإن كان يخشى أن تمنعه من القربى إلى شيخه وسلوك طريق المتصوفة ، ومرَّ فى أول أمره بفترة قلقة وهو مضطرب النفس بين الطريقتين إلى أن أخذ شيخه أبو العباس بيده وأفهمه أنه يستطيع أن يجمع بين العلمين وأن يبرز فيهما جميعاً .

قال ابن عطاء الله :

سمعت الطلبة يقولون: من صحب المشايخ لا يجيء منه فى العلم الظاهر شيء ، فشق علىّ أن يفوتنى العلم ، وشق علىّ أن تفوتنى صحبة الشيخ ، فجئت فوجدته يأكل لحماً بخلّ ، فقلتُ فى نفسى :

ليت الشيخ يطعمنى لقمة من يده ؟ فما استتممت الخاطر إلا وقد وضع فى فمى لقمة من يده ، ثم قال : نحن إذا صحبنا تاجراً ما نقول له اترك تجارتك وتعال ، أو صاحب صنعة ما نقول له اترك صنعتك وتعال ، أو طالب علم ما نقول له اترك طلبك وتعال ، ولكن نقرّ كلّ واحد فيما أقامه الله تعالى فيه ، وما قسم له على أيدينا هو واصل إليه ، وقد صحب الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فما قال لتاجر اترك تجارتك ، ولا لذى صنعة اترك صنعتك ، بل أقرّهم على أسبابهم ، وأمرهم بتقوى الله فيها » .

وقال أيضاً :

« دخلت يوماً على الشيخ أبى العباس وفى نفسى ترك الأسباب والتجرد وترك الاشتغال بالعلم الظاهر قائلا : إن الوصول إلى الله لا يكون على هذه الحالة ، فقال لى — من غير أن أبدى له شيئاً — صحبنى بقوص إنسان يقال له ابن ناشر ، وكان مدرساً بها ونائب الحكم فيها ، فذاق من هذا الطريق شيئاً على أيدينا ، فقال : يا سيدى : أترك ما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك ؟ فقلت له : ليس الشأن ذا ، ولكن امكث فيما أقامك الله ، وما قسم لك على أيدينا هو إليك واصل ، ثم قال : هكذا شأن الصديقين لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق هو الذى يتولى إخراجهم ، فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبى ، وكأنها كانت ثوباً نزعته ورضيت عن الله فيما أقامنى فيه » .

ومر ابن عطاء الله بهذه الفترة القلقة ، وعاد الهدوء إلى نفسه منذ طمأنه شيخه وأستاذه أبو العباس بأنه يستطيع أن يجمع العلمين ، علم الظاهر وعلم التصوف ، ولهذا حرص منذ تلك اللحظة على أن يحظى برعاية شيخه حتى يسير فى طريق

السالكين إلى نهايته ، روى أنه قال مرة لبعض أصحاب الشيخ :

« أريد لو نظر الشيخ إلىّ بعنايته وجعلنى فى خاطره ، فقال ذلك للشيخ ، فلما دخلت إليه قال : لا تطالبوا الشيخ بأن تكونوا فى خاطره ، بل طالبوا أنفسكم أن يكون الشيخ فى خاطركم ، فعلى مقدار ما يكون عندكم تكونون عنده » .

قال ابن عطا ءالله :

« ثم قال لى الشيخ : أى شىء تريد أن تكون ؟ والله ليكونن لك شأن ، والله ليكونن لك شأن عظيم » .

ويعقب ابن عطاء الله على هذه الرواية بقوله :

« فكان من فضل الله سبحانه وتعالى ما لا ننكره » .

وكما اختلف ابن عطاء الله فى شأن نفسه، أيظل فى دراسته لعلوم الشريعة والفقه ، أم ينطلق فى طريق المتصوفة ، كذلك اختلف تلاميذ الشيخ أبى العباس وأتباعه فى شأنه ، ولكن الشيخ جعل له الصدارة فى العلمين ، قال ابن عطاء الله :

« أخبرنى سيدنا جمال الدين ولد الشيخ قال : قلت للشيخ : هم يريدون أن يصدروا ابن عطاء الله فى الفقه ، فقال الشيخ : هم يصدرونه فى الفقه وأنا أصدره فى التصوف ، ثم دخلت عليه فقال لى : إذا عوفى الفقيه ناصر الدين (ابن المنير) يجلسك فى موضع جدك ، ويجلس الفقيه من ناحية وأنا من ناحية ، وتتكلم إن شاء الله فى العلمين ، فكان ما أخبر به » .

وهكذا تحققت نبوءة الشيخ ، وأصبحت لابن عطاء الله الصدارة فى العلمين وآلت إليه رئاسة الطريقة بعد موت شيخه أبى العباس ، وأصبح له كرسى فى الجامع الأزهر ، يملى منه دروسه فى الفقه والشريعة والتفسير ، وفى التصوف وآدابه ، وكانت حلقات درسه تعج دائماً بالمستمعين المعجبين ، فقد كانت لدروسه ولأسلوبه فى الشرح حلاوة وتأثير على السامعين .

وتوفى ابن عطاء الله فى القاهرة فى جمادى الآخرة سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩) ودفن بالقرافة الصغرى ، وقبره معروف بها حتى اليوم .

وفى الإسكندرية مسجد منسوب إليه ، وليس صحيحاً أنه دفن بهذا المسجد ، بل الصحيح أنه دفن بالقاهرة ، وقد حقق المرحوم محمد رمزى موضع قبره فى تعليقاته على كتاب النجوم الزاهرة قال :

« قبر ابن عطاء الله السكندرى لا يزال موجوداً بجبانة سيدى على أبى الوفاء الكائن تحت جبل المقطم من الجهة الشرقية لجبانة الإمام الليث » .

ولابن عطاء الله مؤلفات كثيرة منها :

– « التنوير فى إسقاط التدبير »

– « المرقى إلى القدس الأبقى »

– « الحكم العطائية »

– « مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح » .

– « تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس »

ولعل أهمها كتابه « لطائف المنن فى مناقب أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن » ، فقد رسم فيه صورة حية لشيخيه ، وسجل الكثير من الحقائق عن الطريقة الشاذلية وعن التصوف وآدابه بوجه عام .

القبـــارى

أبو القاسم بن منصور بن يحيى المالكى الإسكندرى

(٥٨٧ — ٦٦٢ هـ) = (١١٩١ — ١٢٦٤)

« من قعد فى خانقاه فقد سأل

ومن لبس مرقعة فقد سأل

ومن لبس سبحة فقد سأل

ومن فتح مصحفاً فى مسجد فقد سأل »

القبارى

أبو القاسم القبارى

شهدت مصر فى القرنين السادس والسابع الهجريين مدرسة صوفية كبرى نبغ من رجالها عدد من الشخصيات التى احتلت مكاناً مرموقاً فى تاريخ التصوف الإسلامى ، ومن الغريب أن معظم هؤلاء المتصوفة نشأوا فى مدينة الإسكندرية ، أو اتخذوها مقراً لهم ومركزاً لنشاطهم الدينى الروحى ، من أمثال أبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى وياقوت العرش والبوصيرى والشاطبى .

وأبو القاسم القبارى واحد من كبار رجال هذه المدرسة الصوفية عاش فى نفس الوقت وعاصر معظم هؤلاء الرجال .

ولد سنة ٥٨٧ هـ وأدرك فى طفولته السنوات الأخيرة من عصر صلاح الدين ، وهو عصر ملىء بالانتفاضات الروحية التى أثارها ذلك البطل بجهاده ضد الصليبيين ، وبانتصاره الحاسم فى وقعة حطين التى مهدت لاستعادة بيت المقدس وفلسطين ، ثم عاش القبارى شبابه فى عصر الملك الكامل محمد الأيوبى ، وهو عصر أبرز ما امتاز به نهضة علمية مزدهرة تولى قيادتها عدد من العلماء المصريين وعدد من العلماء المسلمين الوافدين على مصر ، وشهد القبارى فى شيخوخته نهاية دولة بنى أيوب وقيام دولة المماليك وما صحب ذلك من نزول حملة لويس التاسع الصليبية على مصر ، وجهود الملك الصالح نجم الدين أيوب لإخراجها ، وهذا عصر شهد أمجاداً حربية أخرى فى وقعة عين جالوت التى أحرز النصر فيها ضد قوات التتار السلطان المملوكى الملك المظفر قطز والقائد المملوكى ركن الدين بيبرس الذى ولى السلطنة فيما بعد

وحياة هذا العالم المتصوف ما زالت غامضة لم تصلنا عنها إلا شذرات قليلة متفرقة فى كتب التاريخ والتراجم ، وإلا ترجمة مختصرة لخصها أحمد بن عبد الكريم حمزة عن كتاب كان قد ألفه فى سيرة القبارى واحد من كبار تلاميذه ومن كبار علماء الإسكندرية وهو ناصر الدين بن المنيِّر .

لسنا نعرف شيئاً عن أسرة القبارى غير اسمى والده وجده ، فإن الكتب التى ترجمت له تذكر أنه أبو القاسم بن منصور بن يحيى المالكى الإسكندرى المعروف

بالقبارى ، ومن هذا التعريف نستطيع أن نعلم أيضاً أن القبارى كان مالكى المذهب ، ولا غرابة فى هذا فالغالبية العظمى من السكندريين كانوا فى ذلك العصر من أتباع مذهب مالك ، ونستطيع أن نعلم أيضاً أنه كان مصريًّا أصيلا من أهالى الإسكندرية ، بل هناك من النصوص ما يؤكد هذه الحقيقة ، فقد ورد فى ترجمة ابن المنير له رواية عن القبارى نفسه أنه قال :

« سبق إلى ذهنى فى مبدأ العمر اختيار بستان الرمل من متروك أبى » .

ويفهم من هذا أن أباه كان سكندريًّا ، وأنه ترك له قطعة من الأرض فى الرمل .

وقد تلقى القبارى فى طفولته العلوم الدينية التى كان يتلقاها الصبية فى عصره ، ولكن يبدو أنه كان مقبلا على الدراسة محبًّا للعلم ، فقد قال ابن المنير :

« وحبِّبَ إليه سماع العلم » .

ولسنا نعرف على وجه التحديد مَنْ أساتذته الذين تلقى عنهم العلم ، وما هى المدارس أو المساجد أو الحلقات التى كان يتردد عليها للدراسة ، ولكننا نستطيع أن نرجح أنه تتلمذ على كبار العلماء والمتصوفة الذين كانت تعمر بهم الإسكندرية فى ذلك العصر ، من أمثال أبى الحسن الشاذلى ، وأبى العباس المرسى ، وابن عطاء الله السكندرى ، وياقوت العرش ، والبوصيرى وغيرهم ، ولكن القبارى ابتلى بما نغّص عليه عيشه وحرمه لذة الاستماع إلى العلم ، فقد روت المراجع أنه كان ثقيل السمع ، ومع هذا كان يحرص الحرص كله على حضور مجالس العلم ، فإذا انقضى المجلس لجأ إلى لِدَاتِه ورفاقه يسألهم أن يعيدوا عليه ما سمعوه مما فاته ، قال ابن المنير :

« وكان — أى القبارى — يحضر مجالس العلم على ثقل سمعه ، فإذا انقضى الدرس سأل أترابه أن يعيدوا له بصوت عال كلام المدرس » .

ثم استطرد ابن المنير يروى عن القبارى نفسه قصة حدثت له بهذه المناسبة ، قال القبارى :

« وكان لى تِرْبٌ قد تنبه وتهيأ بهيئة الفقهاء فى لباسه وكلامه ، فوقفت به يوماً وسألته أن يعيد لى ما جرى لهم فى الدرس ، فنفر فى وجهى نفرة التكبر ، فكسر قلبى ، فرجعت دارنا وكانت لنا غرفة خربة ، وكنت أخلو فيها ، فصعدت إليها وصليت ركعتين وبكيت ، وقلت : "ابتليتنى بحب العلم

وثقل السمع حتى تكبّر عليّ فلان اليوم ، وبخل عليّ بما لا يضره " ، ودعوتُ على ذلك المسكين ، فاتفق فى بقية النهار أنى اجتمعت ببعض من كنت أطلعه على أمرى ، فتحدثت معه فى ذلك ، فلم يمر على ذلك المدعو عليه شهرٌ حتى ظهرت عليه آثار المكر والإعراض عن العلم ، وترك التزيى بزى أهله ، وسقط بالكلية عن تلك الرتبة ، فقال لى ذلك الرجل : أقسم عليك بالله لا تعجل بعد هذا بالدعاء على أحد » .

يقول ابن المنير :

« فكان بعد ذلك لا يدعو لأحد ولا على أحد » .

بل كان إذا طلب أحدٌ منه الدعاء يقول :

« للطالب ما يحتاج » .

ويقول لآخر :

« ما أشتهى لأحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا خيراً » .

ويقول لآخر :

« أود لو كان الناس كلهم على الخير » .

ويقول لآخر :

« أحب لكل أحد ما أحب لنفسى » .

ويقول لآخر :

« الدعاء النافع هو الذى يوافق القضاء فإن خالف القضاء نُسخ الدعاء وثبت القضاء » .

يتضح من هذه القصة أن الشيخ أبا القاسم قد آثر حياة الزهد والعبادة والتقشف ، واتخذ له خلوة يتعبد فيها ، ويطيل الصلاة ، ويكثر الدعاء ، بدليل قوله :

« وكانت لنا غرفة خربة ، وكنت أخلو فيها » .

وأخلص أبو القاسم فى عبادته ، وصفت نفسه ، وزالت الحجب بينه وبين الله سبحانه وتعالى حتى أصبح مستجاب الدعوة ؛ ولكنه بعد أن أخذته فورة من فورات الشباب فدعا على زميله فى الدراسة ، وبعد أن تحقق من استجابة الدعوة فى هذا الزميل ، وانصرافه عن العلم والتحصيل ، آلى على نفسه أن لا يدعو لأحد أو على

أحد ، وكان الناس يقصدونه من كل مكان ، ويسألونه البركة والدعاء ، فيصرفهم بهذه الأقوال التى لا تزيد على أن تكون تمنيات طيبة ، وتحدّث الناس فى هذا ، وتساءلوا عن سر انصراف الشيخ عن الدعاء لهم ، وحمل هذا السؤال إليه تلميذه ابن المنير فأجابه بقوله :

« يطلب أحدهم منى الدعاء بلسانه ، ويظهر من قرائن أحواله أن قلبه غافل ، وأن نفسه قاسية على نفسه ، فكيف أرقّ أنا عليه أو كيف أدعو بلا رِقّة » .

ثم روى الشيخ القبارى لابن المنير القصة التالية قال :

« لقد حضر عندى يوماً أحد أصحاب الملك الكامل وهو فى غاية البذخ ، عليه الملبوس الفاخر ، وعلى الباب المراكب النفيسة ، وبين يديه المماليك الثمينة ، وهو يتحدث مع رفيقه ويتضاحكان ، ثم سألنى الدعاء ، فأجريته على العادة ، فناقشنى وقال : ما للناس يتحدثون بأنك لا تدعو لأحد معين ، ويعتقدون ذلك فقلت : أحوجتنى لإقامة الحجة عليك ، ألستَ تعلم أن الدعاء هو طلب العبد الضعيف من الرب الرحيم؟ فقال : بلى ،
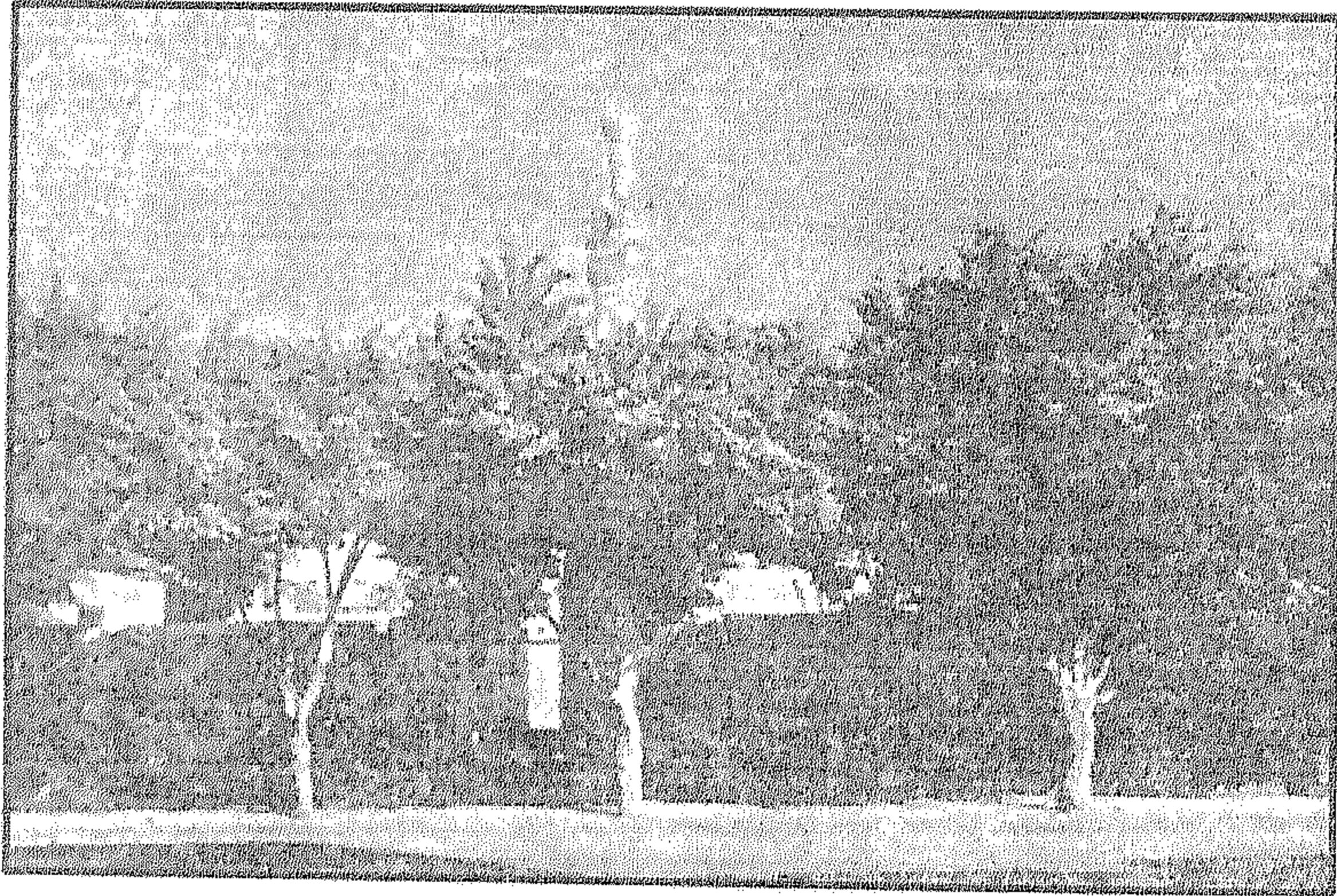
مسجد القبارى

(تحجبه الأشجار المغروسة فى الرحبة المحيطة به)

فقلت : أيطلب العبد الضعيف من مولاه برقة أو بقسوة ؟ فقال : برقة ، فقلت : ما وجدتُها منك، فبأى لسان أدعو ؟ وإن شئتم الدعاء باللسان فهو البندق الفارغ ، خرِّج منه ما شئت بلا قلب . فقامت عليه الحجة » .

وهكذا ألزم الشيخ القبارى هذا الرجل من رجالات الدولة الحجة ، فهو يشترط فيمن يطلب الدعاء أن ينزع عن نفسه العظمة الفارغة والجبروت الإنسانى ، وأن يتقدم للدعاء أو لطلبه بنفس صافية غاية الصفاء رقيقة غاية الرقة .

وهذا ما التزمه القبارى فى حياته ، فقد آثر العزلة ، فاختار مكاناً بعيداً خارج مدينة الإسكندرية فى الناحية الغربية منها ، واتخذه بستاناً يفلحه ويأكل من ثمره ، وبنى فيه داراً يسكنها ويتعبد فيها ، ولم يكن القبارى يتبع طريق المدعين من المتصوفة والفقراء والمتدروشين الذين يتظاهرون بالعبادة والفقر ولبس المرقعات ، ويلتزمون تبعاً لذلك حياة الكسل والتراخى ، ويلتمسون سبل الرزق بالسؤال وإراقة ماء الوجه ، بل كان القبارى شبيهاً بأبى الحسن الشاذلى وأبى العباس المرسى ، ويرى أن العمل فريضة وعبادة ، وأن السؤال مذلة ومهانة ، فمن أقواله المأثورة :

« من قعد فى خانقاه فقد سأل ، ومن لبس مرقعة فقد سأل ، ومن لبس سبحة فقد سأل ، ومن فتح مصحفاً فى مسجد فقد سأل » .

وكان رحمه الله يرى أيضاً أن ترك السبب — أى العمل — اعتماداً على الفتوح إنما هو النقل من سبب نظيف إلى سبب وسخ ، وذلك أن الاحتراف بسبب شرعى لا عيب فيه لا فى الدنيا ولا فى الدين .

وعرف الناس جميعاً للقبارى صلاحه وتقواه ، فكانوا يترددون على بستانه لزيارته والتبرك به ، وعرف الحكام فى مصر — قبل العامة — للشيخ قدره ومكانته ، فكانوا يسعون دائماً لزيارته ، ولكنه كان يأنف من مقابلتهم ، وكان كما يقول ابن المنيِّر :

« لا يأذن لأحد من أهل الدنيا وأرباب الولايات فى الدخول عليه متى شاء » .

وطالما سعى لزيارته ولاة الإسكندرية وكبار رجال الدولة ، بل سلاطين مصر

مسجد القبارى
(المدخل والمئذنة والقبة)

أنفسهم ، ولكنه كان يرفض مقابلتهم ، والسعيد منهم من كان يسمح له بالتحدث إليه من نافذة بالدار التى يسكنها ، وخير مثال لهذا ما ذكره المؤرخ ابن واصل من أن السلطان الملك الظاهر بيبرس — وهو من هو قوة وعظمة — زار الإسكندرية فى سنة ٦٦١ هـ وانتهز هذه الفرصة وأرسل يستأذن الشيخ القبارى فى الزيارة ، فأذن له ، فلما أتاه وتحدث إليه لم يكن للشيخ من حاجة يزجيها إلى السلطان إلا نصحه إياه أن يعنى بعمارة الثغر وتحصينه ، فقدّر بيبرس له نصحه وخرج من عنده فقصد مباشرة إلى أسوار المدينة ، فطاف بها ، وأمر بترميمها والعناية بها .

وتوفى الشيخ أبو القاسم القبارى رحمه الله فى سنة ٦٦٢ هـ عن خمس وسبعين سنة ، ودفن فى بستانه ، وأقيم على ضريحه مسجد صغير قام بتوسيعه محمد سعيد باشا فى القرن التاسع عشر ، ثم أقبل العامة من أهل الإسكندرية فى العصور التالية على السكن حول هذا القبر ، فعمر الحى ، وأصبح من أكبر أحياء المدينة ، ويعرف باسم القبارى .

السيّد محمد كريم

أعدم رمياً بالرصاص
فى ٥ سبتمبر سنة ١٧٩٨

السيد محمد كريم

السيد محمد كريم مصرى صميم ، وسكندرى أصيل ، وعصامى مجاهد ، نشأ نشأة بسيطة ، فبدأ حياته قبانيًّا فى الثغر ، وكان عنده – كما قال الجبرتى – « خفة فى الحركة وتودد فى المعاشرة فأحبه الناس ، واشتهر ذكره فى ثغر الإسكندرية ورشيد ومصر » ، وأهلته هذه الصفات لتولى أكبر مناصب المدينة ، فلم يلبث مراد بك أن أصدر أمره بتقليده أمر الديوان والجمارك بالثغر ، أى أنه عينه حاكماً للإسكندرية ومديراً للجمارك بها ، وبذلك أصبح صاحب الكلمة العليا فى الإسكندرية ، أو كما قال الجبرتى : « ونفذت كلمته وأحكامه » ، وبذلك صدقت عليه كلمة الشاعر :

« نفس عصام سوّدت عصاما »

وفى سنة ١٧٩٨ كانت فرنسا قد أعدت حملتها بقيادة نابليون بونابرت لغزو مصر ، وعلمت إنجلترا بأمر هذه الحملة ، غير أنها لم تكن على بينة من هدفها ، فأرسلت أسطولها بقيادة نلسن لتتبع الحملة الفرنسية . ومرت حملة نابليون بجزيرة مالطة وتلكأت فيها قليلا ، وسبقها أسطول نلسن إلى مياه الإسكندرية فى ٢٨ يونية سنة ١٧٩٨ ، وأرسل نلسن إلى السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية ينبئه بأمر الحملة الفرنسية ويحذره من احتمال وصولها إلى مصر ، ويطلب منه أن يسمح له بالحصول على الماء والطعام من المدينة على أن يدفع الثمن . ويقول الجبرتى فى وصف هذه المقابلة بين رسل نلسن وبين محمد كريم :

« وإذا بقايق صغير واصل من عندهم (الإنجليز) وفيه عشرة أنفار ، فوصلوا البر واجتمعوا بكبار البلد ، والرئيس إذ ذاك فيها والمشار إليه بالإبرام والنقض السيد محمد كريم ، فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم ، فأخبروا أنهم إنكليز حضروا للتفتيش على الفرنسيس ، لأنهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات ، ولا ندرى أين قصدهم ، فربما دهموكم فلا تقدرون على دفعهم ، ولا تتمكنون من منعهم ، فلم يقبل

السيد محمد كريم منهم هذا القول، وظن أنها مكيدة، وجاوبوهم بكلام خشن، فقالت رسل الإنجليز : نحن نقف بمراكبنا فى البحر محافظين على الثغر ، ولا نحتاج منكم إلا الإمداد بالماء والزاد بثمنه، فلم يجيبوهم لذلك وقالوا: هذه بلاد السلطان ، وليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل ، فاذهبوا عنا ، فعندها عادت رسل الإنجليز ، وأقلعوا فى البحر ليمتاروا من غير الإسكندرية » .

وأقلع الأسطول الإنجليزى متجهاً إلى شرق البحر الأبيض المتوسط ، ووصل الفرنسيون يوم ٣٠ يونيه ، وأرسلوا يسألون السماح لقنصل فرنسا بالثغر بمقابلتهم ، ووقف السيد محمد كريم وقفته الأولى ، ورفض السماح للقنصل ، ولكن نقولا الترك يذكر أن إدريس بك قومندان السفينة العثمانية التى كانت راسية بالثغر أقنع السيد محمد كريم بالتصريح لقنصل فرنسا بمقابلة القادمين ، ومع هذا أرسل السيد محمد كريم مع القنصل بعض البحارة من أهل الإسكندرية وأوصاهم بإرجاعه إلى الثغر بعد انتهاء المقابلة .

ووصف القنصل لقواد الحملة الحالة فى الإسكندرية ، وكيف أن الأهالى يستعدون جهدهم للمقاومة ، ولكن المدينة لم تكن للأسف فى حالة تسمح لها بمقاومة الفرنسيين ، فقد كانت أسوارها وقلاعها وحصونها مهدمة مخربة منذ أمد طويل ، وأخطر ما كان يخشاه الفرنسيون أن يعود الأسطول الإنجليزى فيلتحم بأسطولهم فى معركة بحرية ، فأصدر نابليون أوامره فى الحال بإنزال الجنود فى منطقة العجمى ، وفى الساعات الأولى من صباح يوم ٢ يوليو تقدمت جنود الحملة الفرنسية بالزحف نحو الإسكندرية فوصلت أسوار المدينة عند شروق الشمس ، وعسكروا عند عمود السوارى .

وأحس السيد محمد كريم بالخطر ، فبذل هو والأهالى ما استطاعوا من جهد لترميم الأسوار والقلاع ، وحملوا السلاح للدفاع عن المدينة ، وأرسل السيد محمد فى هذه الليلة ١٣ رسولا إلى مراد بك بالقاهرة ينبئه بنزول الفرنسيين ، ويسأله المدد والمعونة .

وهاجم الفرنسيون المدينة ، ودافع الأهالى عن مدينتهم دفاع الأبطال ،

وقاوموا العدو مقاومة مجيدة ، ولكن العدو كان أكثر عدداً وأقوى عدة ، فاقتحم الأسوار ودخل المدينة ، ومع هذا لبث السيد محمد كريم يدافع ويقاوم ومعه فريق من السكندريين معتصمين بطابية قايتباى حتى بعد دخول الفرنسيين المدينة ، وأخيراً عندما أيقن أن لا فائدة من النضال كفّ عن القتال وسلّم القلعة ، وأكبر نابليون فى السيد محمد كريم روح البطولة ، فاستقبله استقبالا كريماً ، ورد إليه سلاحه تقديراً لشجاعته ، وقال له : « لقد أخذتك والسلاح فى يدك ، وكان لى أن أعاملك معاملة الأسير ، ولكنك استبسلت فى الدفاع ، والشجاعة والشرف صنوان لا يفترقان ، لهذا أعيد إليك سلاحك ، ورجائى أن تبدى للجمهورية الفرنسية من الإخلاص ما كنت تبديه لحكومة سيئة » .

وقد حضر مسيو فيفان دينون — أحد أعضاء بعثة العلوم والفنون — هذه المقابلة ووصف السيد محمد كريم بقوله : « لقد لاحظت على ملامح هذا الرجل الذكاء والدهاء ، وكأنما كان يكتم عواطفه عنا ، على أنه بدت عليه علامات التأثر من العفو الذى أسداه إليه القائد العام » .

لقد قدر نابليون فى السيد محمد روح البطولة والكفاح فى الدفاع عن وطنه ، ولكنه أراد فى الوقت نفسه أن يستميله إليه ليستعين به فى حكم المدينة ، ترى هل استجاب السيد محمد لهذه الدعوة عندما قبل أن يعود إلى منصبه كحاكم عام بالإسكندرية ؟ كلا ، فقد قبل الرجل المنصب ليزرع الشوك فى طريق الأعداء ، وليثير الصعاب أمامهم فى كل خطوة يخطونها .

وبدأ نابليون زحفه نحو القاهرة ، وخلف وراءه الجنرال كليبر حاكماً عسكرياً لمدينة الإسكندرية ، والسيد محمد كريم محافظاً لها ، وأوصاه أن يتعاون مع كليبر فى حكم المدينة ، وبدأ كليبر يعمل لتثبيت أقدام الفرنسيين فى الإسكندرية وإقليم البحيرة ، فأمر بعد قليل بإرسال إحدى كتائبه بقيادة الجنرال ديموى لتطوف بالمنطقة المجاورة لتأمين مواصلات الفرنسيين ، فتسير إلى دمنهور وتتركها إلى رشيد ، ثم تعرج على أبى قير فى طريق عودتها إلى الإسكندرية . وانتهز الأهلون الفرصة ، وستيقظت فيهم روح المقاومة ، فاختفت الجمال والقرب تماماً من المدينة ، وبذلك لم تستطع الكتيبة أن تتزود بما يكفيها من الماء والزاد ، وعمل الأهالى والعربان على

مهاجمة الكتيبة ومناوشة جنودها فى أثناء رحلتها ، ويقول ديموى فى تقريره : « وقد داخلنى الشك من الاتفاق بين هجوم هذا الجمع علينا ومغادرتنا للإسكندرية ، وخيل إلى أن هناك اتصالا بينهم وبين أهل الإسكندرية » .

ووجدت الكتيبة عنتاً شديداً من الأهالى فى دمنهور وفى كل مكان ذهبت إليه ، وبدأت القيادة الفرنسية ترتاب منذ ذلك الحين فى نوايا السيد محمد كريم وتشك فى إخلاصه لها ، وتتهمه بإثارة الأهالى وتحريضهم على العصيان ، فأمر كليبر بالقبض على السيد محمد كريم ، وأرسله إلى أبى قير ليعتقل فى البارجة أوريان ، وأمر الأميرال برويس بأن يحسن معاملته إلى أن يتصل فى شأنه بنابليون ؛ وأقر نابليون كليبر على سياسته ، وأرسل إليه ينبئه بأنه تأكد لديه خيانة السيد محمد كريم ، وأمره أن يكبله فى الحديد ، وأن يلقى القبض على أتباعه وحاشيته ، وأن يودعهم السجن ، وأن يعمل جاهداً للبحث عن أمواله وثروته ، ولم تصل هذه الرسالة إلى كليبر لأن حاملها قتل فى الطريق .

ولكن الأميرال برويس أرسل السيد محمد كريم إلى رشيد ليبعث به الجنرال مينو إلى نابليون فى القاهرة . ولم يكد يعلم أهالى رشيد بوصوله حتى توافدوا من كل مكان للحفاوة به ، حتى اضطر مينو إلى القبض عليه والإسراع بترحيله إلى القاهرة.

وفى القاهرة اتهم السيد محمد كريم بخيانة الفرنسيين ، وبدأت محاكمته ، وفى يوم ٥ سبتمبر أصدر نابليون أمره بإعدامه رمياً بالرصاص ومصادرة جميع أملاكه وأمواله ، ولكنه سمح له بأن يفتدى نفسه بدفع غرامة قدرها ثلاثون ألف ريال فى مدى أربع وعشرين ساعة .

السيد محمد كريم

وهنا امتحنت بطولة السيد محمد كريم امتحاناً جديداً ، ولكنه كان يؤمن بأنه

بریء ، وأنه لم يقترف جرماً ، وإنما كان يجاهد فى سبيل الدفاع عن وطنه ، فإذا كان الوطن يتطلب منه التضحية بأغلى ما يملك ، بروحه ، فإنه ليجود بها غير ضنين ؛ لقد حاول ڤانتور كبير تراجمة الحملة أن يغريه بدفع الفدية ، فقال له : «أنت رجل غنى ، فماذا يضيرك أن تفتدى نفسك بهذا المبلغ ؟» فأجابه السيد محمد إجابة الرجل المؤمن صادق الإيمان :

«إذا كان مقدوراً على أن أموت فلا يعصمنى من الموت أن أدفع هذا المبلغ ، وإذا كان مقدراً لى الحياة فعلامَ أدفعه» .

وظل السيد محمد كريم على إصرره ، فحمل فى اليوم التالى ٦ سبتمبر سنة ١٧٩٨ إلى ميدان الرميلة حيث أعدم رمياً بالرصاص ، فصعدت روحه الطاهرة إلى بارئها لتكون شعلة دائمة تنير الطريق للمصريين فى جهادهم ضد كل عدو مغير يحاول أن يعتدى على هذا الوطن المفدى ، مصر كنانة الله فى أرضه .

عبد الله النديم

(١٢٦١ – ١٣١٤ هـ) = (١٨٤٥ – ١٨٩٦ م)

خطيب الثورة العرابية

« كان – عبد الله النديم – شهى الحديث ، حلو الفكاهة ، إذ أوجز ودّ المحدّث أنه لم يوجز ، لقيته مرة فى آخر إقامته بمصر فرأيت رجلا فى ذكاء إياس ، وفصاحة سحبان ، وقبح الجاحظ ، أما شِعْرُه فأقلّ من نثره ، ونثرُه أقلّ من لسانه ، ولسانه الغايةُ القصوى فى عصرنا هذا »

أحمد تيمور

عبد الله النديم

خطيب الثورة العرابية

(١٢٦١ – ١٣١٤ هـ) = (١٨٤٥ – ١٨٩٦)

« إنى رجل عربى الجنس – حسنى النسب ، إسكندرى المولد والمربى ، إسلامى الدين ، أشعرى العقيدة ، شافعى المذهب ، خلوتى الطريقة ، مصرى الوطن ، تربيت على نفقة والدى حتى يفعت ، وأخذت عن العلماء الأفاضل كثيراً مما به يشتغلون من السمعيات والعقليات ، وجالست الأدباء وشاركتهم فيما فيه يتنافسون ، وخالطت الأمراء ، وداخلت الحكام ، وعاشرت أعيان البلاد ، وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن الصغيرة ، وأدركت ما هم فيه من الجهالة ، ومِمَّ يتألمون ، وماذا يرجون ، وحابيت كثيراً من متفرنجة الشرقيين ، وألممت بما انطبع فى مرآة صدورهم من أشعة الغربيين ، وصاحبت جمًّا من أفاضل الشرقيين المتعلمين فى الغرب ممن ثبتت أقدامهم فى وطنيتهم ، وفطروا على حب الجنس والوطن والدين ، وعرفت كثيراً من الغربيين ورأيت أفكارهم – عالية أو سافلة – فيما يختص بالشرقيين والغاية المقصودة لهم من مواطنهم واستيطانها وخدمتها ، واختلطت بأكابر التجار ، وسبرت ما هم عليه من السير فى المعاملة والسياسة ، وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنساً ووطناً وديناً ، واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها والحكمة والتاريخ والأدب ، وتعلقت بمطالعة الجرائد مدة ، واستخدمت فى الحكومة المصرية زمناً ، واتجرت برهة ، وفلحت حيناً ، وخدمت الأفكار بالتدريس وقتاً ، وبالخطابة والجرائد آونة ، واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذى وصلت إليه بعناء كسانى نحول الشيخوخة فى زمن بضاضة الصبا ، وسبكنى فى قالب الكهولة أيام الفتاء ، وتوَّجنى بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء » .

هذا هو موجز ترجمة عبد الله النديم حتى سن التاسعة والثلاثين كما كتبها بقلمه فى كتابه « كان ويكون » بعد خروجه من مخبئه . غير أن دارس حياته دراسة تفصيلية يرى أن وراء كل جملة من هذه الجمل حياة حافلة ، وحيوية دافقة ، ونشاطاً دائباً ، وجهاداً مريراً فى سبيل الحرية ، حرية مصر أولا وحريته هو ثانياً .

ولد عبد الله النديم فى مدينة الإسكندرية فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٢٦١ (١٠ ديسمبر ١٨٤٥) لأب متوسط الحال والثروة ، بدأ حياته نجاراً للسفن ، ثم ترك النجارة إلى الخبازة ، فكان صاحب مخبز يصنع الخبز ويبيعه للناس .

وقد أرسل الوالد ابنه إلى مسجد الشيخ إبراهيم باشا — وكان يقوم فى ذلك الحين مقام الجامع الأزهر بالقاهرة — فدرس به العلوم الدينية ، غير أنه أظهر منذ حداثته ميلا خاصًّا لدراسة الأدب وتذوقه ، فانكب على قراءة كتبه ، وتردد على مجالس الأدباء « فبرع فى الفنون الأدبية ، وكتب وترسّل ، ونظم الشعر والزجل ، وطارح الأخوان ، وناظر الأقران[1] » وساعده على التفوق والبروز فى هذا الميدان ذكاء فطرى خارق وحافظة مصورة قوية .

ولم تكن مهنة الأدب فى ذلك العصر بالمهنة التى تدر الرزق أو تجلب الكسب ، إلا أن يحيا الأديب فى كنف أمير أو رعاية عظيم ، وأنَّى للنديم هذا وقد كان بعدُ يافعاً لا يزال يخطو خطواته الأولى ؛ لهذا رأى أن يمتهن مهنة فى اليد تكسبه عيشه وتغنيه من فقر ، فتعلم فن الإشارات البرقية ، وأتقن هذا فى مدة وجيزة ، ثم التحق برقيًّا (تلغرافيًّا) بمكتب البرق ببنها ، ولم يلبث به إلا قليلا حتى نقل إلى مكتب القصر العالى بالقاهرة — سكن والدة الخديو إسماعيل .

وكانت القاهرة وقتذاك عامرة بالأدباء ، حافلة بالشعراء أمثال محمود سامى البارودى ، ومحمود صفوت الساعاتى ، وعبد الله باشا فكرى ، والشيخ أحمد وهبى ... إلخ فتعرف النديم عليهم واستمع إليهم وأسمعهم ، فكانت مجالسهم المدرسة الثانية التى صقلت أسلوبه وفتحت شاعريته .

وكان للقصر العالى أغا جباراً هو الحاكم بأمره فى شؤون القصر جميعاً ، وقد

---

(١) تيمور باشا : تراجم أعيان القرن الثالث عشر ، ص ٣ .

ساءت العلاقات بعد قليل بين النديم وبين هذا الأغا المسمى خليلا ، فأمر بفصله ، وأخرجه هذا الفصل إلى ميادين الحياة الفسيحة يضرب فى مناكبها ، يبتغى الوسيلة لكسب عيشه ، لا عدة له إلا ذخيرة من حفظة ، وقريحة وقّادة ، ونفساً وثّابة ، وعقلاً يفكر ، وقلماً يكتب .

وكانت الميادين التى يستطيع أن ينزل إليها وينازل فيها بهذه العدة فيصول ويجول هى ميادين التعليم والصحافة ، ولكنه لم يتجه إليها أول ما اتجه ، فقد كانت المدارس بعدُ حكومية ، كما كانت الصحافة صحافة رسمية أو شبه رسمية .

ونزح النديم عن القاهرة إلى بدَوَاى — إحدى قرى مديرية الدقهلية — ونزل بها ضيفاً على عمدتّها الشيخ أبى سعدة يقرئ أولاده ، غير أنه لم يلبث أن اختلف مع مضيفه ، فترك بدَوَاى إلى المنصورة ، واتصل هناك بعين من عيونها هو السيد محمود الغرقاوى فأكرم ضيافته ، وفتح له دكاناً للتجارة « ولكن تغلب كرمه الحاتمى على رأس المال والربح ففقدهما جميعاً [١] » .

وفى سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) رحل إلى طنطا ، واتصل أثناء مقامه بها بشاهين باشا كنج مفتش الوجه البحرى ، « وكان مجلس شاهين باشا محط رحال الأدباء ، ومنتجع الشعراء والندماء ، لا يخلو من مطارحات أدبية ومساجلات شعرية »[٢] .

ولبث يقيم فى طنطا وما يحيط بها من مدن وقرى ثلاث سنوات ، فلما كانت سنة ١٨٧٩ أحس الحنين إلى بلده الإسكندرية ، فعاد إليها ليبدأ صفحة جديدة من الكفاح ، فقد كان كفاحه حتى ذلك الحين فى سبيل الرزق وحده ، أما كفاحه بعد عودته إلى الإسكندرية فسيكون من أجل مصر والمصريين .

كانت نفوس المصريين فى ذلك الحين قلقة مضطربة ، وأفكارهم ثائرة مضطرمة ، وكان جمال الدين الأفغانى يعقد حلقاته فى القاهرة ، ويلقى دروسه على النخبة الممتازة من تلاميذه ، فينير الشعلة ويضيء الطريق ، ولم تكن

---

(١) من ترجمته بقلم صديقه أحمد أفندى سمير فى مقدمة (سلافة النديم) ج ١ ، ص ٦ .

(٢) تيمور باشا ، المرجع السابق ، ص ٥ ، وقد روى له هناك مساجلات زجلية طويلة حدثت بينه وبين طائفة الأدباء . وهذه المساجلات منقولة عن مجلة الأستاذ (العدد ٤١) التى كان يصدرها النديم .

الإسكندرية — عاصمة القطر الثانية — أقل نشاطاً من القاهرة ، بل لعلها كانت تبذ القاهرة بكثرة ما كان بها من جمعيات وطنية وصحف عربية ، وكان أهم هذه الجمعيات جمعية « مصر الفتاة » وهي جمعية كانت تهدف إلى الإصلاح ، وإنما كانت تعمل له فى السر ، ووسائلها هي ووسائل الجمعيات السرية ، فاتصل بها النديم بعد عودته ، ولكنه لم يلبث أن أنف من العمل فى السر ، وأراد أن يعمل فى العلن ، وكانت أصلح الميادين وأوفقها لمواهب النديم الصحافة والتعليم كما سبق أن ذكرنا .

وقد ظهر بالإسكندرية وقت وصوله إليها عدد من الصحف قام على إنشائها نفر من السوريين واللبنانيين الأحرار الذين نزحوا عن بلادهم ، واتخذوا الإسكندرية مقرًّا لهم ، ففى هذه المدينة أصدر سليم وبشارة تقلا جريدة « الأهرام » فى ديسمبر سنة ١٨٧٥ ، وفى سنة ١٨٧٦ وصلها أيضاً الأديب الكبير أديب إسحاق ، ولم يلبث بها إلا قليلا حتى أنشأ جريدته « مصر » ، وكان يشاركه فى تحريرها مواطنه سليم نقاش .

وسمع أديب وهو فى الإسكندرية بحكيم الشرق جمال الدين الأفغانى ، فشدّ الرحال إلى القاهرة ، واستمع إليه ، وتتلمذ عليه ، وتأثر بآرائه ، وفتح له صفحات جريدته « مصر » ، فكان جمال الدين ونخبة من تلاميذه — وخاصة الشيخ محمد عبده — ينشرون فى هذه الجريدة مقالاتهم ، ولم يكن غريباً إذن أن يتصل عبدالله النديم — وهو تلميذ قديم للأفغانى — بأديب إسحاق وجريدته وأن يكتب فيها .

وفى سنة ١٨٧٨ أصدر أديب فى الإسكندرية أيضاً جريدة أخرى أسماها « التجارة » كانت تعنى أول إنشائها بالشؤون التجارية وحدها ، ثم جرفها التيار السياسى فعنيت بالأمور السياسية ، وعلى صفحاتها نشر النديم كذلك عدداً من المقالات .

وقد كان أسلوب النديم فى شبابه الأول أسلوباً قديماً يلتزم فيه السجع والمحسنات البديعية الأخرى ، ولكنه عندما اتصل بالصحافة وكتب لها تحرر من هذا الأسلوب القديم ، واصطنع الأسلوب السهل السلس ، وهو الأسلوب الجديد الذى امتازت به ودعت له مدرسة جمال الدين الأفغانى ، وقد كان لمقالات النديم أثرها فى

نفوس القراء ، يقرر هذه الحقيقة تيمور باشا بقوله :

« فأعجب الكتاب بمقالاته ، واقتدوا به فى تحسين الإنشاء ، وكان سقيماً منحطاً فى ذلك العهد [١]» .

وكانت الأفكار كلها متجهة فى ذلك العصر إلى أن السر فى تأخر مصر والمصريين إنما هو الجهل الفاشى والخرافات المنتشرة ، لهذا كانت الدعوة التى تتردد على الألسن هى العمل على نشر التعليم ، ولهذا نجد النديم يقدم فى سنة ١٢٩٦ (١٨٧٩) على إنشاء جمعية أسماها « الجمعية الخيرية الإسلامية » ، « ولم يكن لها مقصد سياسى وإنما كانت ترمى إلى غرض واحد شريف وهو تربية الناشئة ، وبثّ روح المعارف فيهم ، لترقية أفكارهم وتطهير أخلاقهم من دنس الجهالة التى ليس للأمم داء سواها ، على ما أوضحه المترجم فى خطابه الطنان الرنان الذى ألقاه يوم الاحتفال بافتتاح تلك الجمعية »[٢] .

وأنشأت هذه الجمعية بالثغر مدرسة لتعليم الأيتام وأبناء الفقراء مجاناً ، وعُيّن النديم مديراً لها كما كان يدرس لتلاميذها مادة الأدب والإنشاء ، وهذا هو الميدان الثانى الذى كانت تؤهله له مواهبه — ميدان التعليم — وفيه برزت صفته المميزة التى عرف بها فيما بعد دون صفاته الأخرى جميعاً ، وهى الخطابة ، فقد كان يعقد بالمدرسة حفلات عامة فى نهاية العام الدراسى وفى المناسبات الوطنية ، يخطب فيها ارتجالا فيأخذ بألباب سامعيه ويثير نفوسهم ، كما كان يمرن تلاميذه على الخطابة ويتيح لهم الفرص لإلقاء خطبهم فى هذه الحفلات .

وفى سنة ١٨٩٧ نزل إسماعيل عن العرش وولى الأريكة الخديوية توفيق باشا ، فسعى النديم لديه حتى حمله على زيارة المدرسة يوم امتحانها ، وسأل تلاميذها واستمع إلى إجاباتهم وسرّ بها فجعل المدرسة تحت رعاية ابنه وولى عهده الأمير عباس حلمى ، ورتبت لها وزارة المعارف إعانة سنوية .

ولم يكن أثر أديب إسحاق وسليم النقاش فى صديقهما النديم مقصوراً على الصحافة وحدها ، وإنما تعداها إلى ميدان آخر كانا المجليين فيه وقتذاك ، وهو

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٢) من ترجمة صديقه أحمد سمير له ، سلافة النديم ، ص ٧ .

التمثيل ، فقد كانا من طلائع المشتغلين به وله ، تأليفاً وترجمة وتمثيلا ، وقد مثلا بعض الروايات فى حضرة الخديوى إسماعيل ، وترجم أديب بعض التمثيليات إلى اللغة العربية منها « أندرو ماك » للكاتب الفرنسى « راسين » ، ومنها تمثيلية أخرى عنوانها « شارلمان » ترجمها فى الإسكندرية [١].

وسار النديم — وهو يدير مدرسته — على هذا الدرب ، فألّف لتلاميذه روايتين ، إحداهما « الوطن وطالع التوفيق » والثانية « العرب » ، واشترك فى تمثيلهما مع تلاميذه على مسرح « زيزينيا » بالإسكندرية فى حضرة الخديوى توفيق .

وكانت الحكومة قد ضاقت ذرعاً بجريدتى « مصر » و « التجارة » وما ينشر فيهما من مقالات نقدية ، فأمرت بإلغائهما ، وأبعد صاحبهما أديب إسحاق إلى الخارج ، فأصدر صديقه سليم نقاش مكانهما جريدتين أخريين هما « المحروسة » و « العصر الجديد » ، وعهد بتحريرهما إلى عبد الله النديم « فجاء فيهما بالمعجب والمطرب من غير تكلف قط [٢] » .

غير أن الأيام لم تصفُ للنديم طويلا ، فقام خلاف بينه وبين رجال الجمعية الخيرية وانفصل عنها ، وأنشأ لنفسه جريدة أسبوعية سماها « التنكيت والتبكيت » ، ظهر أول عدد منها فى حجم الكتاب العادى فى ٨ رجب ١٢٩٨ (٦ يونيوسنة ١٨٨١) ، وهى كما وصفها « صحيفة وطنية أسبوعية أدبية هزلية ، هجومها تنكيت ، ومدحها تبكيت » ولغتها كما قال :

« قد لا تلجئك إلى قاموس الفيروزابادى ، ولا تلزمك مراجعة التاريخ ولا نظر الجغرافيا ، ولا تضطرك لترجمان يعبرلك عن موضوعها ، ولا شيخ يفسرلك معانيها » وإنما هى « صحيفة أدبية تهذيبية ، تتلو عليك حكماً وآداباً ومواعظ وفوائد

عبد الله النديم

---

(١) الدكتور إبراهيم عبده ، أعلام الصحافة العربية ، ص ١٣٧ .

(٢) سلافة النديم ، ص ٩ .

ومضحكات بعبارة سهلة لايحتقرها العالم ، ولا يحتاج معها الجاهل إلى تفسير »
وسخريتها كما وصفها هو :

« نفثات صدور وزفرات يصعدها مقابلة حاضرنا بماضينا » .

وهدفها كما حدّده :

« أفكار تخيلية ، وفوائد تاريخية ، وأمثال أدبية ، وتبكيت ينادى بقبح الجهالة وذم الخرافات ، لنتعاون بهذه الخدمة على محو ما صرنا به مثلة فى الوجود ، من ركوب متن الغواية واتباع الهوى ، اللذين أضلانا سواء السبيل » [١] .

وكانت « التنكيت والتبكيت » – كما يقرر الدكتور إبراهيم عبده – « على ود متصل بصحيفة " الجنان " لبطرس البستانى ، وأيد الصحفيان هذا الود فى تبادل المقالات بين الصحيفتين [٢] » .

وقامت الثورة العرابية ، واشتد خطرها ، ووصلت أنباؤها إلى الإسكندرية ، فوجدت صدى قويًّا فى نفس النديم ، وهو الروح الثائرة ، والوجدان المضطرم ، واللسان القوّال ، والقلم الناقد ، فأوقف صحيفته بالإسكندرية بعد أن أصدر منها ثمانية عشر عدداً ، ظهر آخرها فى ٢٣ ذى القعدة سنة ١٢٩٨ ، ورحل إلى القاهرة – وهى ثورة مشتعلة ونار متقدة – واتصل بعرابى اتصال لهيب بلهيب ، فأشار عليه أن يصدر صحيفته بالقاهرة ، على أن يسميها « الطائف »، « تيمناً باسم بلدة بالحجاز مشهورة ، وتفاؤلا بأنها تطوف المسكونة كما جابتها جوائب أحمد فارس [٣] » ، واندمج النديم فى الثورة العرابية ورجالها حتى أصبح خطيبها المفوه ، ولسانها الناطق ، وبيانها المعبر ، وقلمها المبين ، فلم يكن يعقد للعرابيين اجتماع – وما كان أكثرها – حتى يدعى إليه النديم فيرتقى منبره ، ويرتجل الخطبة والخطب فيلهب النفوس النائمة ، ويحرك الهمم الخامدة .

---

(١) من مقدمة العدد الأول من « التنكيت والتبكيت » ، انظر أيضاً سلافة النديم ج ١ ، ص ٧٧ – ٧٨ وإبراهيم عبده ، المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

(٣) تيمور باشا ، المرجع السابق ، ص ١٧ .

واتخذ من « الطائف » منبراً آخر يذيع منه أخبار الثورة ورجالها ، ويكافح من أجلها وينافح معارضيها ، ويحارب شانئيها ، فانتشرت صحيفته انتشاراً لم تكن تحلم به جريدة أخرى من الجرائد المعاصرة ، يقول الدكتور إبراهيم عبده :

« ولم تبلغ صحيفة من الصحف مبلغ طائف النديم ، لا فى مكانتها ولا فى خطرها ولا فى تحريرها ، وهو فيها كاتب حاد الطبع نابغ فى الإنشاء ، اقتصر فى تحريرها أول الأمر على معالجة نواحى النقص الاجتماعية فى مصر .... ثم انتقل من المقالات الاجتماعية إلى الموضوعات السياسية العميقة ، وتفرد بالأخبار الهامة التى كانت للصحف الأخرى مادة وموردا ، ووقف الكاتب يراعته على الدفاع عن الثورة ورجالها ، وتكذيب ما ينشر عنها فى صحف الخارج ، وقد احتفى بها العرابيون فاشترك فيها النواب بمبالغ كبيرة » .

وقد وسمها هذا العطف الذى أضفته عليها الهيئات النيابية سمة رسمية أو شبه رسمية ، فنرى محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب يكتب فى ١٥ ربيع الثانى ١٢٩٩ إلى « داخلية ناظرى عطوفتلو أفندم حضر تلرى » يقول :

« حيث إن حضرة محرر الطائف أظهر ارتياحه إلى نشر محاضر المجلس وأفكار نوابه ، وما يتبع ذلك مما يستدعى القيام بالحقوق الوطنية للمجالس رئى أنه لا مانع من مكاتبة الداخلية لتصدر أمرها إلى إدارة المطبوعات لمعرفة أن هذه الصحيفة ممتازة بهذا الاختصاص ، ونسبتها إلى المجلس على الوجه الذى قدمه حضرة محررها الموما إليه [١] » .

وحبذ هذا الوضع أديب إسحاق ، لأن الطائف فى رأيه :

« جريدة موصوفة بالوطنية ، ومعروفة بصدق النية ، منتشرة نافذة الكلام ، خطيرة مرعية المقام [٢] » .

ووقعت الواقعة ، وقامت الحرب بين الإنجليز والمصريين فى الإسكندرية ، وتقهقر عرابى إلى كفر الدوار ، فلحق به النديم إلى هناك ، ثم تبعه إلى التل الكبير ،

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٧ — ١٤٨ .
(٢) إبراهيم عبده ، المرجع السابق ، ص ١٤٩ .

وهو يصدر « الطائف » فى المعسكرين ، فيضمنها أخبار الانتصار ، ويحملها المقالات المثيرة لتقوية الروح المعنوية بين الجند والشعب .

ثم أخفقت الثورة العرابية ، وقبض على زعمائها ، وفر النديم قبل أن يلقوا القبض عليه ، وأطلقت الحكومة رجالها فى إثره يبحثون عنه فى كل مكان ، وأعلنت عن جائزة قدرها ألف جنيه لمن يأتيها به حيًّا أو ميتاً ، أما هو فقد انطلق ومعه خادمه حسين إلى بولاق وقصد دار صديق له أقام بها أياماً ، ثم غيَّر زيَّه فلبس « زعبوطاً » أحمر ، واعتم بعمامة حمراء ، وغطى عينيه بمنديل ، وأحفى شاربيه ، وأطلق لحيته ، فتغيرت هيئته تماماً ، وخرج يتوكأ على عكاز ، فوجد بساحل بولاق سفينة تزمع الرحلة إلى بنها فركبها ، ولما وصل إلى بنها اتجه إلى قرية منية الغرقى — بالقرب من طلخا — ولجأ فيها إلى شيخ من مشايخ الطرق كان قد أخذ عليه العهد سابقاً واسمه الشيخ شحاتة القصبى ، غير أنه لم يمكث عنده إلا أياماً ، ثم ارتحل ، فقد خشى أن يكشف أمره لكثرة الواردين على دار الشيخ من أتباعه ومريديه .

وبهذه الرحلة تبدأ قصة اختفائه ، وهى قصة غريبة الغرابة كلها ، تصلح أن تكون فيلماً سينمائيًّا ناجحاً لو أنها وفقت إلى مخرج ممتاز ، لأنها فى الحقيقة قصة مخاطر جرىء قوى القلب ، ومغامر مقدام حديدى الإرادة ، ظل مختفياً تسع سنوات طويلة ، وهو يتنقل من بلدة إلى بلدة ، ومن دار إلى دار ، وهو فى كل تنقلاته دائم التنكر ، يلبس لكل حالة لبوسها ، وكلما حل أو ارتحل غيَّر اسمه وكنيته ، فهو مرة يمنى ، وأخرى مغربى ، وثالثة مدنى أو فيومى ، وهو يبخر لحيته تارة بالكبريت حتى تبيضّ ، ويخضبها بالحناء تارة أخرى .

وكان خادمه يسمى حسيناً ، فسماه صالحاً ، وقد عانى من أمره أول اختفائه ، ولكنه تدارك الأمر بذكائه ، فقد ضاق الخادم بأساليب الاختفاء ولما يمض عليهما إلا قليل ، وضجع وانتحب ، وأعلن رغبته فى العودة ، فخشى النديم إن هو أطلقه أن يدل عليه ، فجاء بالجريدة الرسمية ونظر فيها فأظهر الجزع والتأسف ، وضرب كفًّا بكف ، فسأله الخادم عن السبب ، فقال إن الحكومة جعلت لمن يرشد إلىّ ألف جنيه ، ولمن أتاها برأسك خمسة آلاف ، فخاف الخادم ، وأخذ يبالغ فى التنكر زيادة عن سيده ، وكان ذلك سبباً فى ملازمته خدمته مدة اختفائه ،

وقد كافأه المترجم أحسن مكافأة ، فعلمه القراءة والكتابة وحفّظه سوراً من القرآن الكريم ، وأقرأه مبادئ التوحيد والفقه ، ثم زوجه واتخذه صاحباً ، ورتب له بعد ظهوره ما يكفيه هو وأهله [١] .

وقد ظل النديم يتنقل فى هذه السنوات فى قرى وبلدان مديريتى الدقهلية والغربية ، وهى منطقة يعرفها ويعرف أهلها معرفة جيدة منذ شبابه الأول ، وقد نزل أول عهده بالاختفاء عند قوم فأخفوه فى قاعة مظلمة حالكة الظلام يتساوى فيها الليل والنهار ، ويتوصل إليها بسرداب طويل ، وكانت أرضها ترشح الماء ، ولم يكن يستطيع الكتابة أو القراءة فيها إلا على ضوء مصباح صغير كثير الدخان ، وقد أقام فى هذه القاعة تسعة أشهر قاسى فيها الشدائد ، فلما غادرها أحس أنه لا يبصر الطريق لكثرة ما اعتادت عيناه الظلام .

وقد كانت هذه الفترة أقسى الفترات جميعاً على النديم ، لأنها أول عهده بالاختفاء والعيون مرصودة عليه تبحث عنه فى كل مكان ، فالتزم مخبأه ولم يكن يتصل بإنسان ، غير أنه ما لبث أن أحس الضيق ، فشغل نفسه وقتاً بتعليم خادمه وتثقيفه ، ثم فكر أن يشتغل بالكتابة والتأليف ، ولكنه كانت تعوزه الكتب والمراجع ، ومع هذا لم ييأس ، وبدأ فألف فى هذه الحقبة كتابه الممتع « كان ويكون » ، وقد روى قصة تأليفه هذا الكتاب ، وهى قصة طريفة ممتعة تعطينا دروساً قيمة فى الوفاء وصدق العزيمة ، فهو يقول إن منهج كتابه كما تصوره :

« فذلكة دينية ولغوية ووطنية وسياسية وجنسية وأدبية وتاريخية [٢] » .

وهو يروى أنه بدأ فى تأليفه بعد اختفائه بقليل « فى الساعة الثامنة يوم الخميس ٢٨ ربيع الثانى عام ١٣٠٠ الموافق ٨ مارس عام ١٨٨٣ فى قاعة ظلماء ، وحيداً بعيداً عن العلماء والكتبيات والجرائد ، مختفياً متغيباً عن الجواسيس والعيون من الباحثين » .

ثم يذكر بعد هذا الأسباب التى دفعته إلى تأليف هذا الكتاب ، وملخصها أنه كان قد اشتغل قديماً بتأليف كتاب أسماه « مقابلة النظير » جمع فيه « الحوادث

---

(١) سلافة النديم ، ج ١ ص ١٣ .
(٢) عبد الله النديم ، كان ويكون ، ص ١١ .

المهمة المختصة بالشرق والغرب دينًا وسياسة » ، وأنه أتم منه أربعة أجزاء ضخمة ، وصل فيها إلى عهد السلطان محمود ، وأنه أدلى إلى « الصديق الفاضل العالم العامل » صاحب البيت الذى يؤويه برغبته فى إتمام هذا الكتاب ، ولكن صاحب البيت ظل يحاوره فكان مما قال له :

« يمنعك من الكتابة الآن ظلمة القاعة ، واشتغال فكرك بهذه المزعجات الحاصلة ، ولو نشطت للكتابة فإنك لا تعلم إن كان كتابك فُقد أو بقى موجوداً ، فيكون هذا الجزء الأخير أبتر ، ولو صفت الأوقات وانصرفت عنك المكدرات للزمك أن تكتب تاريخاً عامًّا بصورة فذلكة تاريخية ، وما أظنك تقوى على هذا الآن[١] » .

ويقول النديم بعد هذا إنه شغل نفسه بنظم قصيدة طويلة فى ثلثمائة ونيف وستين بيتاً، أخلص فيها النصح « للشرقيين على اختلاف الجنس والدين » ، وسماها : « وطنية الشرق » ومطلعها :

بكل صروف الدهر يمتحن الدهـــر ، وفوق جبال العزم ينهمر الضر

ولم ينثن النديم عن عزمه ، بل بدأه بعد قليل ، ولهذا البدء الجديد قصة أخرى أبلغ فى الغرابة والطرافة ، فقد تذكر أن صديقاً له فرنسيًّا كان يملك أبعادية قريبة من مخبئه وهو مقيم بها ، وقد بدأت معرفة النديم به فى سنة ١٢٩٢ فى الإسكندرية ، وكان هذا الصديق يتقن اللغتين العربية والتركية ، وكان يتردد على مصر أو بلدان الشرق فيقيم بها وقتاً ثم يعود إلى فرنسا ، فلما حدثت حادثة عابدين الشهيرة حضر إلى مصر فى شهر ذى القعدة سنة ١٢٩٨ ، وأقام بها « متتبعاً الحوادث يكتبها بأوقاتها منقولة عن مصادرها بحقائقها لاشتغاله بمسائل الشرق من أمد مديد[٢] » .

وأرسل إليه النديم خطاباً مع صاحب البيت يسأله أن يحضر لمقابلته ، وذهب صاحب البيت إلى دار الفرنسى فوجده جالساً فى صحبة بعض الأجانب والمصريين ، وسلّمه الخطاب فقرأه ، وأعطاه لزوجته فقرأته ، ثم أعادته إليه ، فمزقه إرباً وألقى به إلى الأرض ، وصاح فى الرسول مغضباً وقال له :

---

(١) عبد الله النديم ، كان ويكون ص ٦ .
(٢) نفس المرجع ص ١٢ .

« قل له أنا لم أعطك هذا المبلغ للتصرف فيه لزيد وعبيد ثم تعتذر بالضروريات ، فاحفظ لى حقى عندك قبل كل إنسان حتى آتيك ونتحاسب ، وإياك أن تمد يدك لبنك أو لخواجة غيرى ، فإنك إن فعلت ذلك وقعت فى شرك المحاكم ، وحكمت عليك بما لا ترضاه [١] ».

ولم يفهم الرسول حرفاً مما سمع ، بل أيقن أن صديقه قد ألقى بنفسه إلى التهلكة بهذه المحاولة ، وعاد إليه مغضباً يروى له ما سمع ، ولكن النديم فهم ما وراء الكلمات وأدرك أن صديقه الفرنسى كان — كما توقعه — أميناً صادق الود والعهد .

وعند الغروب وصل الصديق الفرنسى ودخل على النديم فى مخبئه ، يروى النديم قصة هذه المقابلة فيقول :

« وبينما أنا جالس وإذا بهذا الوفى دخل علىّ وسلّم سلام المشوق الولهان ، فعرفته بصوته ، وقمت إليه ، وتعانقنا عناقاً طويلا تخلله ضحك وبكاء ، ثم جلسنا ودار الكلام بيننا ، فقصّ على أخباراً وأحوالا لا علم لى بها ، فتكدرت وامتلأت غمًّا وهمًّا ، ثم راجعت نفسى ، ورجعت إليه بالكلام ، فأخبرته بمشروعى ، ورجوته إرسال بعض الكتب والمواد التاريخية فقال : لابد أن أشاركك فى هذا العمل وأساعدك عليه ، إلا أنه عدل بى عن طريق التحرير المرسل إلى وضع الكتاب على ما يدور بيننا من سؤال يقترحه وجواب أقدمه [٢] » .

وهكذا سار الصديقان على هذا النهج ، يأتى الفرنسى لزيارة صديقه فى أوقات متقاربة أو متباعدة ، وقد ارتدى الملابس الشرقية حتى لا يثير الظنون ، ويجلس إلى النديم فيلقى إليه أسئلة فى مشاكل دينية أو تاريخية ، ويسمع الإجابة عليها ، وتطول بينهما المناقشة ، فإذا انتهت الزيارة وخلا النديم إلى نفسه سجل هذا الحديث كتابة ، فإذا تلاقيا بعد هذا قرأ ما سجله على صديقه لتهذيبه وتصحيحه ، وهكذا ، وكانت زوج الفرنسى تحضر فى بعض الأحيان مع قرينها فى ملابس الفلاحات وتسهم فى المناقشة بآراء قيمة .

---

(١) كان ويكون ، ص ١٤ .
(٢) نفس المرجع ، ص ١٥ .

وظلت العلاقات متصلة بين الصديقين شهوراً طويلة والفرنسى دائم العناية بالنديم والحدب عليه ، يتفقد شؤونه وينفذ رغباته ، فهو يسأله فى نهاية كل اجتماع إن كانت له حاجة يقضيها ، فإذا أدلى إليه برغباته أسرع بتنفيذها وأتاه بالجواب فى اجتماعه التالى ، ففى مرة سأله الفرنسى إن كان يلزمه شىء غير الدخان ، فأجابه النديم :

« يلزمنى نصف أوقية لودنم وأربع أواق من ماء الورد لأصنع منهما قطرة عين ، وزجاجة مانيزيا مكلسة ، وقدر خمسين جراماً من مسحوق الرواند لأصنع منهما مركباً معديًّا ، فإن عندى ضعفاً فى المعدة ، ولا بأس من استحضار زجاجة مداد وجانب ورق وأقلام ، فإنى أصنع الحبر من هباب الفرن وأضيف إليه بعض قرظ السنط وليس عندى من الأقلام غير أقلام الحجناء القريبة الحفاء ، والورق الموجود عندى رقيق جدًّا ، لا ينفع فى كتابة الكتب وإذا اشتريت لنا بعض الجرائد العربية كنت متفضلا فإنى مشترك فى جريدة الوطن باسم غير اسمى ، ولكنى أحب الوقوف على الأخبار اليومية كذلك[١] » .

والنديم دائم القلق على أسرته ، ويحس الصديق الفرنسى هذا القلق البادى فى أحاديثه فيذهب إلى القاهرة ويتتبع أخبار الأسرة فى خفية وكتمان وينقلها إليه مطمئناً .

وفى إحدى الزيارات يخبره الفرنسى أن الصحف قد ذكرت أن البرلمان الإنجليزى سيناقش المسألة العرابية ، ويسأله إن كانت له رغبة فى الاطلاع على هذه المناقشة حتى يترجم له أقوال الصحف فيجيب النديم :

« أحب أن تترجم لى كل ما يختص بمصر ، فإنى سأضع كتاباً فى هذه المسألة بما أعلمه من أصولها وفروعها من عهد المرحوم سعيد باشا إلى الآن ، وأريد أن أضم عليه الحقائق التى لايعلمها الإنجليز ليكون الكتاب كافلا للمسألة من جميع وجوهها [٢] » .

---

(١) كان ويكون ، ص ٥٣ .
(٢) نفس المرجع ص ٢٠٢ .

ويلاحظ الصديق الوفى أن ملابس النديم قد بليت فيطلب منه (مقياسه) ليفصل له قفطانين فى مصر ، فيشكر له النديم أريحيته قائلا :

« أشكرك على هذه العناية ، وها هو المقياس ، والأحسن أن تأخذ القفطان الأبيض لتفصل عليه ، إنما تكون الأكمام طويلة كأكمام الفقهاء ، فربما اضطررنا للمشى أو للقعود مع الناس فيرون لبس فقيه أو عالم ، وأرجوك أن تفصل لى لباسين فإن ألبستى فى صورة البنطلون ولها أربطة فى الرجلين ، ولا يخفاك أن الفقهاء لا يلبسون مثلها ، فيكون ذلك محل الانتقاد والفكر فى حقيقتى [١] » .

ويسأله الصديق إن كان فى حاجة إلى كتب فيشتريها له ، فيجيب النديم بأنه عنده من الكتب تفسير أبى السعود ، وقاموس الفيروزابادى ، والوافى ، وجغرافية المرحوم رفاعة بك ، وفيها الكفاية مؤقتاً ، وإنما يطلب منه أن يشترى له متن أبى شجاع ليحفظه لخادمه .

ثم يعرض عليه الصديق أن ينتقل معه ليقيم فى أبعاديته ، فيعتذر النديم خوفاً من أن ينكشف أمره ، ولكنه لم يلبث أن انتقل إلى قرية العتوة القبلية بمديرية الغربية ، فاختفى عند عمدتها الشيخ محمد الهمشرى ثلاث سنوات ونيفاً ، تزوج فى خلالها ، وزوج خادمه بأخت زوجته ، وإبان اختفائه بهذه الدار مات ربها الشيخ الهمشرى ، وكانت زوجته مثله شهامة ومروءة ، فأحضرت أكبر أولادها وصارحته أن ضيفهما هو عبد الله النديم طريد الحكومة الذى رصد رجال الضبط ألف جنيه لمن يأتيهم به ثم سألته :

« أفتريد أن تؤويه وتكرم مثواه كما فعل أبوك ، أم ترغب فى حطام الدنيا فأكون بريئة منك إلى يوم الدين ؟ فأجاب الابن : حاشا لله أن أخفر ذمامى ، فسترين أنى أحافظ عليه محافظتى على عرضى ، ولن يصل إليه أحد بسوء ما دمت حياً [٢] » .

وتنقل النديم من بلد إلى بلد ، فهو تارة نزيل عند أحمد باشا المنشاوى فى

---

(١) كان ويكون ، ص ٢٠٦ .

(٢) سلافة النديم ، ج ١ ص ١٤ ، وانظر أيضاً : تيمور باشا ، المرجع السابق ص ٢٠-٢١

بلدته القرشية ، حيث تزوّج — بعد موت زوجته الأولى — من بنت مصطفى منسى أحد أهالى المحلة الكبرى ، وهو تارة أخرى ضيف على صديقه الأديب محمد أفندى التميمى ، وهو تارة ثالثة فى الدلجمون بمديرية البحيرة ، أو فى البكاتوش بمديرية الغربية ضيف على عمدتها الشيخ إبراهيم حرفوش ، أو جاره أحمد جودة .

وهو مرة مقيم فى شباس الشهداء عند محمد معبد الحلاّق ، وهو مرة أخرى ضيف على صديقه القديم الشاعر الثائر محمد أفندى شكرى كاتب المركز بدسوق .

وهكذا ظل يتنقل بين هذه البلدان ، وهو يجد فى رحاب الجميع كل إكرام وعطف ورعاية إلى أن انتهى به المطاف إلى بلدة الجميزة — التابعة لمركز السنطة — « وعرفه عمدة البلدة ، فتغاضى عنه وكتم أمره ، فكان يخرج للتنزه على غير عادته فى الاختفاء ، فيلتف عليه العمدة وبعض أناس من البلدة ، وهو يقرأ لهم ويعظهم ويسامرهم وهم مبتهجون به »[1].

وكان يتردد على الجميزة رجل من رجال البوليس السرى يدعى حسن الفرارجى رابه من النديم تخفيه وتنكره وأحواله الغريبة ، فشك فى أمره ، وظل يتسقط أخباره ويتصل بالداخلية إلى أن تأكد أنه هو ، فبلغ عنه طمعاً فى الحصول على المكافأة ، فأرسلت له الداخلية قوة كبيرة أحاطت بالدار التى كان يقيم بها حتى قبضت عليه فى ٢٩ صفر سنة ١٣٠٩ (نوفمبر ١٨٩١)[2] غير أن هذا الواشى قد نال جزاء خيانته فلم تصرف له المكافأة لأن أجلها كان قد فات .

ونقل النديم إلى طنطا لتسليمه إلى النيابة العمومية ، « وكان المرحوم قاسم أمين رئيس نيابة طنطا إذ ذاك ، فعامله برعاية وقال له :

« أنت حر فى كلامك فقل ما شئت ، وكان يسأل عن حاله فى السجن للتحقق من حسن معاملته[3] » .

وأصدر الخديوى توفيق عفوه عن عبد الله النديم وإنما أمر بنفيه خارج القطر ،

---

(١) تيمور باشا المرجع السابق ، ص ٢٣ — ٢٤ .
(٢) مجلة الأستاذ ، العدد الأول ، ص ٤ .
(٣) عبد الرحمن الرافعى ، الثورة العرابية ، ص ٥٣٤ ، انظر أيضاً مجلة الأستاذ لعبد الله النديم ، العدد الأول ، ص ٩ .

فاختار المقام بثغر يافا ، وسافر إليها ونزل ضيفاً مكرماً على مفتيها السيد على أفندى أبي المواهب ، وسرعان ما سمع بمقدمه أعيان المدينة ووجهاؤها فأقبلوا عليه واحتفوا به ، وانتهز هو فرصة مقامه بيافا ، فرحل إلى مدن فلسطين المختلفة وزار آثارها .

وتوفى توفيق وولى العرش عباس حلمى الثانى ، فعفا عن النديم ، وسمح له بالعودة إلى مصر ، فعاد وأقام بالقاهرة .

عاد النديم والاحتلال الإنجليزى فى عنفوان قوته ، وعلى العرش أمير شاب ، وفى بعض نواحى القاهرة شاب آخر يافع كان لا يزال يطلب العلم ، ولكنه كان مرهف الحس صادق الوطنية ، فراح يكتب المقالات المثيرة داعياً الشعب إلى اليقظة والسعى للاستقلال والحرية ، هذا الشاب هو مصطفى كامل . فإلى أى ميدان اتجه النديم ؟ لقد كان فى مكنته أن يصانع الاحتلال فينال بهذا إحدى الوظائف الكبرى فى وزارة المعارف أو فى الأزهر ، وينهال عليه المال وتغمره الهبات ، ولكن العذاب المرير الذى قاساه مدة اختفائه لم يفل من عزيمته ، ولم ينل من وطنيته ، فاتصل بالشاب الصغير مصطفى كامل ، وروى له قصته ، فألهب حماسه ، فكان بذلك حلقة الاتصال بين حركة جمال الدين الأفغانى والحركة الجديدة التى سيتزعمها مصطفى كامل ، ولعل هذا هو السر فى التشابه القوى بين مبادئ الحزب الوطنى القديم والحزب الوطنى الجديد[١] .

وعاد النديم إلى مهنته المحببة إلى نفسه — الصحافة — فأنشأ صحيفة أسبوعية « علمية تهذيبية فكاهية » أسماها « الأستاذ » ، صدر أول عدد منها فى أغسطس ١٨٩٢ ، فأعادت إلى الأذهان ذكرى « التنكيت والتبكيت » و « الطائف » ، فأقبل عليها القراء إقبالا منقطع النظير ، وفاقت فى رواجها جميع الصحف الأسبوعية واليومية المعاصرة ، فأحفظ ذلك الرواج نفوس بعض أصحاب هذه الصحف ، كما أحفظ أسلوبه الإصلاحى نفوس الإنجليز ، واشتد الخلاف وقتذاك بين الخديو عباس الثانى والإنجليز ، فقد أقدم عباس وعزل صنيعتهم ورئيس وزرائه مصطفى فهمى باشا ، فراح النديم يدبج المقالات فى صحيفته محرضاً على الوقوف

---

(١) انظر تشارلز آدمز : الإسلام والتجديد فى مصر ، الترجمة العربية لعباس محمود ص ٢١٢ — ٢١٤) ، وجورجى زيدان فى : (تراجم مشاهير الشرق ، ج ١ ص ٢٨٩ — ٣٠١) .

إلى جانب الخديو ومؤازرته ، فثارت ثائرة اللورد كرومر ، واتهم النديم أنه يثير روح التعصب فى البلاد [١] ، وطلب إليه مبارحة القطر ثانية ، فبارحه إلى يافا بعد أن عطّل صحيفته « الأستاذ » ، وودع قراءه فى آخر عدد أصدره (١٣ يونيو ١٨٩٣) وداعاً مؤثراً هو أبلغ ما يقول وطنى اضطر إلى مغادرة وطنه ، قال فيه :

« ما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ، ومصادمة النوائب ، والعاقل يتلذذ بما يراه فى فصول تاريخه من العظمة والجلال ، وإن كان المبدأ صعوبة وكدراً فى أعين الواقعين على الظواهر ، وعلى هذا فإنى أودع إخوانى قائلا :

أودعكم والله يعلم أننى أحب لقاكم والخلود إليكم
وما عن قلى كان الرحيل ، وإنما دواعٍ تبدت ، فالسلام عليكم [٢] »

وفى يافا لم يسلم النديم من السعاية به لدى السلطان عبد الحميد ، فأمر بإبعاده عنها ، فعاد إلى الاسكندرية ، وهو طريد الاستبداد والاستبعاد معاً ، لا يدرى أين يتجه ولا أين يستقر .

وأدركته رعاية الغازى أحمد مختار باشا ، فسعى له لدى السلطان حتى سمح له بالإقامة فى الآستانة ، فسافر إليها ، وهناك صدر بتعيينه مفتشاً للمطبوعات براتب قدره ٤٥ جنيهاً مجيدياً فى كل شهر .

وفى الآستانة التقى بأستاذه القديم السيد جمال الدين الأفغانى ، فجمعت بينهما المحبة والغربة « واتصلت بينهما أسباب الألفة ، وتمكنت بينهما روابط الاتحاد حسًّا ومعنى ، وبلغ تعلق السيد جمال الدين الأفغانى به ، وجميل اعتقاده فيه أنه أصبح وأمسى يعجب بقوة حجته فى المناظرة والجدل ، وسرعة بديهته فى التحرير ، حتى صرح فى عدة مجالس بأنه ما رأى مثل النديم طول حياته فى توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة العارضة ووضوح الدليل ، ووضع الألفاظ وضعاً محكماً بإزاء معانيها إذا خطب أو كتب [٣] » .

---

(١) انظر مجلة المنار للسيد رشيد رضا ، ج ٢ ، ص ٣٣٩ — ٣٤٠ ، والرافعى ، الثورة العرابية ، ص ٥٣٥ .

(٢) مجلة الأستاذ ، عدد ١٣ يونيو ١٨٩٣ .

(٣) عن ترجمته بقلم أحمد سمير ، سلافة النديم ، ج ١ ، ص ١٧ .

وكان النديم أثناء مقامه بالإستانة دائم الحنين إلى وطنه ، دائب الشوق إلى أهله وخلانه ، يود لو استطاع العودة إلى مصر ليقضى بها أيامه الأخيرة ، ولكن الدهر أبى عليه تحقيق أمنيته ، وأدركته علّة السل ، واشتد به المرض ، فسافرت والدته وشقيقه ليكونا إلى جانبه فى مرضه ، ولكنهما وصلا الإستانة بعد أن أدركته منيته ، فقد لبى نداء ربه فى الرابع من جمادى الأولى سنة ١٣١٤ (١١ أكتوبر سنة ١٨٩٦) ، فشيعت جنازته فى احتفال مهيب مشى فيه الكبراء والعلماء يتقدمهم أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى ، ودفن النديم هناك فى مقبرة يحيى أفندى باشكطاش . فهل يفكر المصريون فى نقل رفاته إلى أرض الوطن إحياء لذكراه وتخليداً لجهاده ؟

هذا هو عبد الله النديم ، أما أخلاقه « فكان بارًّا بوالديه وذوى قرابته وقصاده ولو لم يكن يعرفهم ، فما أقرض أحداً شيئاً وطالبه به ، ولا رد يوماً سائلا ، ولا خضع لعظيم قط ، وإنما كان يلين ويتواضع لصغار الناس وأوساطهم ، وكان ذكيّاً فطناً قوى الحافظة فصيحاً جريئاً شاعراً مطبوعًا وكاتباً ناثراً [١] » .

وقد قدر تيمور باشا صفاته وشخصيته بقوله :

« كان فى أول أمره يرتدى الملابس الإفرنجية المعلومة ، ولما ظهر بعد الاختفاء لبس الجبة والقفطان واعتم بعمامة خضراء — إشارة إلى الشرف — ، وكان شهى الحديث حلو الفكاهة ، إذا أوجز ودّ المحدث أنه لم يوجز ، لقيته مرة فى آخر إقامته بمصر ، فرأيت رجلا فى ذكاء إياس ، وفصاحة سحبان ، وقبح الجاحظ ، أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى فى عصرنا هذا »[٢] .

أما عن جهاده فيقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى :

« هو الزعيم الوحيد بين العرابيين الذى استمر فى جهاده السياسى ونضاله عن مصر فى عهد الاحتلال ، وهى ميزة كبرى انفرد بها دون بقية الزعماء الذين أثّرت فيهم الهزيمة فوهنت لها روحهم المعنوية ، وانطفأت فيهم شعلة الأمل والحماسة والجهاد ، أما هو فقد ظل على عهده ، واستمر يجاهد

---

(١) جورجى زيدان ، مجلة الهلال السنة الخامسة ص ٤٧ .

(٢) تيمور باشا ، المرجع السابق ص ٢٧ — ٢٨ .

ويناضل حتى آخر نسمة من حياته، وهذا وحده يدلك على مبلغ علو نفسه وقوة شخصيته ، إذ لم تنل منه الشدائد ، ولم يضعف إزاء المحن والكوارث ، ولم يعرف اليأس إلى قلبه سبيلا » .

فرحم الله النديم رحمة واسعة ، وسلام عليه فى المجاهدين الخالدين .

عبد العزيز جاويش

(١٢٩٣ – ١٣٤٧هـ) = (١٨٧٦ – ١٩٢٩)

الزعيم الوطنى المجاهد

عبد العزيز جاويش

هذا عالم ثان من أعلام الإسكندرية، هو نِدٌّ للنديم وشبيه له فى كثير ، ولد كلاهما فى الإسكندرية ، وتربيا فيها ، وتلقيا العلم فى معهد واحد هو جامع الشيخ إبراهيم باشا ، وتتلمذ الأول على السيد جمال الدين الأفغانى وتتلمذ الثانى على تلميذه الشيخ محمد عبده ، وعشقا الحرية وناضلا فى سبيلها ، وكان النديم لسان الحركة الوطنية الأولى — حركة عرابى — ، وكان جاويش لسان الحركة الوطنية الثانية وقلمها — حركة مصطفى كامل ومحمد فريد .

لسنا نعرف شيئاً عن أسرة عبد العزيز جاويش ، وكل ما نعرفه عنها : أنها أسرة مغربية الأصل من تونس ، هاجرت إلى الإسكندرية واستقرت بها .

وفى الإسكندرية ولد عبد العزيز جاويش فى ٣١ أكتوبر سنة ١٨٧٦ ، وفى أحد كتاتيبها تلقى علومه الأولى وحفظ القرآن ، ثم التحق بجامع الشيخ إبراهيم باشا .

وفى سنة ١٨٩٢ وقد بلغ السادسة عشرة من عمره انتقل إلى القاهرة لإتمام دراسته بالجامع الأزهر ، ثم التحق بمدرسة دار العلوم ، وقد تتلمذ فى الأزهر ودار العلوم على كبار علماء العصر ومفكريه ، وخاصة الشيخ محمد عبده ، وفى سنة ١٨٩٧ تخرج ، أى بعد خمس سنوات قضاها فى هذين المعهدين .

وقد عين الشيخ عبد العزيز بعد تخرجه مباشرة مدرساً للغة العربية فى مدرسة الناصرية بالقاهرة ، ثم نقل مدرساً بمدرسة الزراعة ، غير أنه لم يمكث فى هاتين المدرستين طويلا ، فقد أرسلته وزارة المعارف فى بعثة إلى إنجلترا ليدرس التربية وطرق التدريس بجامعة « برورود» .

قضى الشيخ عبد العزيز نحو السنتين فى إنجلترا وأتم دراسته بنجاح ، وعاد إلى مصر فى سنة ١٩٠١ ، فعُيِّن مفتشاً بوزارة المعارف .

وفى سنة ١٩٠٤ اختارته جامعة أكسفورد ليكون أستاذاً للغة العربية بها ، وظل يشغل منصب الأستاذية بها إلى سنة ١٩٠٦ .

وقد كانت هاتان السنتان من أبرك السنوات على الشيخ عبد العزيز ، أخلص فى أثنائهما الإخلاص كله فى عمله كأستاذ حتى اكتسب حب زملائه وإعجاب تلاميذه ، وكان هؤلاء التلاميذ يزورونه فى منزله يسألونه عن مصر والشرق وعن الإسلام بوجه خاص ، فإن الأفكار السائدة فى أوربا فى ذلك الوقت عن الإسلام كانت فى معظمها أفكاراً خاطئة مشوهة ، فكان الشيخ عبد العزيز يستمع إليهم فى حلم ورفق ، ثم يشرح لهم حقائق الإسلام ، ويبين لهم وجه الخطأ فيما يعلمون ، وقد دفعته هذه المناقشات إلى تأليف رسالة صغيرة سماها « الإسلام دين الفطرة » ، قال فى مقدمتها :

« زارنى فى ذات يوم وأنا فى أكسفورد من بلاد الإنجليز لفيف من نجباء طلبة العلم فى كليتها الجامعة ، فما كاد يستوى بهم المجلس حتى أخذنا نتحادث فى أمر الشرق والشرقيين وما لهم من الأخلاق والعادات والأحوال التى تباين فى كثير من الوجوه ما عليه أهل أوربا ، حتى أفضى بنا الأمر إلى الكلام فى الإسلام ، فوجدت من خلال حديث القوم أنهم لا يكادون يفقهون للإسلام معنى سوى أنه دين الاسترقاق والطلاق وتعدد الزوجات ، وأن المسلمين يعبدون محمداً كما يعبد النصارى المسيح بن مريم ، فأخذت إذ ذاك أبين لأولئك الأفاضل أصول الدين الإسلامى وقواعده وحكم بعض تكاليفه ، فكنت أرى القوم يتدبرون ما أقص عليهم من غير أن يستهوى نفوسهم تعصب ، ولا يعمى قلوبهم عناد أو جحود ، بل نبذوا وراء ظهورهم جميع ما كانوا يلقنونه منذ المهد من النقائص التى مثلت لهم الإسلام فى أبشع صورة وأقبحها ، ولم يكد ينتهى بنا الحديث حتى انطلق أحدهم قائلا : "يخيل إلى أيها الشيخ أن هذا الدين لا ينافى الفطرة فى شىء" .

والتقط الشيخ عبد العزيز هذه الحقيقة من فم قائلها ، وألف رسالته لإيضاحها ، لإيضاح أن الإسلام دين الفطرة ، وعرض فيها للمشكلات الكبرى التى تثار ضد الإسلام ، فتكلم عن الفطرة والتوحيد ، وعن النبوة وأصول الإسلام ، وهل أسس الإسلام على السيف ، وناقش أسباب الغزوات ، وأن الإسلام صالح لكل زمان ،

والرق فى الإسلام ، وتعدد الزوجات ، وتعتبر رسالته هذه على صغر حجمها من أحسن ما كتب عن الإسلام ، وقد ترجمت فيما بعد إلى اللغة الإنجليزية .

فى هاتين السنتين أيضاً بدأ الشيخ عبد العزيز يرسم لنفسه خطته فى الحياة ومثله العليا التى سيعمل فيما بعد دائماً على تحقيقها ، فهو قد نشأ نشأة دينية خالصة ، ودرس العلوم الإسلامية فى معاهدها العليا فى الإسكندرية والقاهرة دراسة واعية مستنيرة ، ثم هو قد خبر الحياة الوظيفية فى مصر وعلم الكثير من قيودها وعيوبها ، ثم هو قد رحل إلى إنجلترا وعاش فيها مرتين كان فى الأولى تلميذاً وفى الثانية أستاذاً ، ورأى فى الحالتين معاهد غير المعاهد التى عرفها فى مصر ، وشهد آفاقاً من المدنية والرقى لم يشهدها فى مصر ، وبدأ يدرس ويحلّل ويقارن ، ولم ينس أثناء هذا كله أن هؤلاء القوم المتحضرين الذين يعيش بين ظهرانيهم أولو قوة وبأس ، وأنهم هم الذين يحتلون وطنه بجيوشهم ويأبون الجلاء عنه أو الأخذ بيده فى مدارج الرقى ، وآمن منذ ذلك الحين بضرورة الجهاد ، وبأن وطنه مصر فى حاجة إليه وإلى جهاده .

وأتم القدر رسم الخطوط التى بدأها الشيخ عبد العزيز ، ففى سنة ١٩٠٥ ، وأثناء أستاذيته فى أوكسفورد عُقد مؤتمر المستشرقين فى مدينة الجزائر ، ودُعيت الحكومة المصرية لحضوره ، فاختارت عبد العزيز جاويش ليكون ممثلها فى هذا المؤتمر ، وسافر عبد العزيز إلى الجزائر وحضر المؤتمر ، وكان من بين الحاضرين الزعيم المصرى الكبير محمد فريد ، وتقابل الرجلان فى جلسات المؤتمر وخارجها ، واستمع كل منهما لحديث أخيه ، وتناجيا فى شئون مصر ومستقبلها ، وتجاوبت أفكارهما وآمالهما ، وعقدت بينهما بعد ذلك الحين أواصر الصداقة .

وفى سنة ١٩٠٦ كان الزعيم مصطفى كامل فى باريس يجاهد جهاده العنيف بقلمه ولسانه ضد بريطانيا واحتلالها لمصر ، وكان الشيخ عبد العزيز يقضى بعض الأيام فى باريس أيضاً ، وانتهز الفرصة محمد فريد وصحب الشيخ عبد العزيز معه لمقابلة مصطفى كامل ، وقدّمه إليه ، فوجد الزعيم فيه وطنية صادقة مشتعلة ، فاتخذه منذ تلك اللحظة صفيًّا وصديقاً . فلاعجب إذن إن رأينا الشيخ عبد العزيز بعد قليل وقد أصبح قائداً من أبرز قواد الحزب الوطنى ، فقد عاد بعد قليل وفى

نفس السنة (١٩٠٦) إلى مصر ليشغل وظيفة مفتش أول بوزارة المعارف ، ولكنه لم يلبث بهذه الوظيفة طويلا ، فقد كان دائم الاتصال بمصطفى وفريد .

وفى فبراير سنة ١٩٠٨ انتقلت روح مصطفى كامل إلى الرفيق الأعلى وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره ، بعد أن أدى واجبه فى بعث الشعور الوطنى وإحياء النفوس الخامدة ، وبعد أن قاد المعركة ضد الاحتلال ، ولا سلاح له إلا لسانه وقلمه .

وشغر مكان مصطفى كامل فى رئاسة تحرير اللواء ، وبدأ خليفته محمد فريد يستعرض رجال الحزب ليتخير قلماً كقلم مصطفى يثير الحمية ، ويرسل إذا كتب شواظاً من نار ، ووقع اختياره على عبد العزيز جاويش ، ولم يكد يحادثه فى هذا الأمر حتى استجاب له فى الحال ، فقد كانت نفسه تعاف الوظيفة وقيودها ، وكانت روحه العالية تريد أن تنطلق من عالم السدود إلى عالم الحرية ، واستقال جاويش من وظيفته ، وبدأ يكتب فى اللواء فى ٣ مايو سنة ١٩٠٨ ، وكانت مقالته الأولى معبرة خير تعبير عن النزاع الذى كان يضطرم فى نفسه بين البقاء فى الوظيفة وقيودها والانطلاق إلى ميادين الجهاد والصراع فى سبيل البلاد وحريتها واستقلالها ، فقد قال فيها :

« بعونك اللهم قد استدبرتُ حياةً زادها الجبن وخوَرُ العزيمة ومطيتها التلبيس ، فى أسواقها النافقة تشترى نفيسات النفوس بزيوف الفلوس ، وتباع الذمم والسرائر بالابتسام وهز الرؤوس ، وبيمنك اللهم أستقبل فاتحة الحياة الجديدة حياة الصراحة فى القول ، حياة الجهر بالرأى ، حياة الإرشاد العام ، حياة الاستماتة فى سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة . . وكيف لا نقدم من أنفسنا قرابين بين أيدى أهرام هذا القطر ونيله ؟ أم كيف لا نصرف كل مرتخص وغال فى سبيل تحريره وقطع اليد الغاصبة له جزاء بما كسبت ، فلنتمسك بهذا المبدأ الشريف ماحيينا ، ولنعتصم به ما بقينا ، ولنرفع أصواتنا حتى نطرق بها أبواب السماء ، فنستنزل المقت والسخط على من دخلوا بلادنا ، وقبضوا بأيدى جبروتهم على نواصينا ... فاللهم أسألك لساناً ناطقاً بالصواب والحكمة ، وقلماً لا جولة له فى ميادين القحة ، ولا علم له بمعاهد الفحش

والسباب ، فما أحوج الأمة إلى كلمة حق يستمعونها ، وجميل عظة يعونها ... إلخ»

وظل الشيخ جاويش رئيساً لتحرير اللواء ، صحيفة الحزب الوطنى ، إلى فبراير سنة ١٩١٢ ، وكان المصريون يترقبون مقالاته ويقبلون على قراءتها فى شغف عجيب ، فقد كان أسلوبه قوياً نارياً يلهب الشعور ويثير النفوس ، فإلى عبد العزيز جاويش يرجع الفضل الكبير فى تقوية الروح الوطنية وإمدادها بالوقود طيلة هذه السنوات الأربع .

وفى فبراير سنة ١٩١٢ هاجر جاويش من مصر إلى الإستانة ، ولكنه لم يكن يؤثر العافية حين هاجر ، ولم يكن يبغى الفرار من ميدان النضال والجهاد ، وإنما هو قد اضطر إلى الهجرة اضطراراً ، فقد كان أصحاب السلطان فى مصر من الإنجليز ومن المستوزرين المصريين يقفون له ولمحمد فريد بالمرصاد ، ويتعقبون كل كلمة يقولانها أو يكتبانها فيحققون معهما بشأنها ، ويصدرون عليهما الأحكام بالسجن ، وتوالت الإنذارات لصحيفة اللواء بالتعطيل ، مما دفع الشيخ عبد العزيز إلى الهجرة ليستأنف الجهاد خارج مصر من أجل مصر .

ولهذا الاضطهاد الذى لاقاه الشيخ عبد العزيز أثناء توليه رئاسة التحرير لجريدة اللوء قصة بل قصص طويلة ، تبدأ بالمحاكمة الأولى التى قدم لها ولما يمض عليه فى جريدة اللوء سوى شهرين اثنين .

حدث فى مايو سنة ١٩٠٨ أن قامت ثورة فى بلدة الكاملين بالسودان بزعامة الشيخ عبد القادر ، فجردت الحكومة قوة كبيرة لإخضاعها ، ونكّلت هذه القوة بالثائرين ، وقتلت عدداً كبيراً منهم ، وقدمت الزعيم وكثيراً من أتباعه للمحاكمة ، وحكمت المحكمة على اثنى عشر من الثائرين — بينهم الزعيم عبد القادر — بالإعدام ، وعلى ثمانية آخرين بالسجن المؤبد ، ومصادرة أملاكهم ، ثم استبدل حاكم السودان الإعدام بالسجن المؤبد .

وقد منعت الحكومة المصرية نشر أخبار هذه الثورة وهذه المحاكمة ، ولكن الشيخ عبد العزيز جاويش كتب فى اللواء (عدد ٢٨ مايو سنة ١٩٠٨) مقالا عنها بعنوان « دنشواى أخرى فى السودان ، ٧٠ مشنوقاً و ١٣ سجيناً » ، وأسرعت وزارة الحربية فأرسلت للصحف تصحيحاً للخبر ، وعقّبت اللواء على هذا التصحيح

مبينة الشك فى بلاغ وزارة الحربية وأن عدد المحكوم عليهم بالإعدام يزيد على اثنى عشر شخصاً .

واعتبرت الحكومة هذا المقال إهانة لوزارة الحربية ، كما اعتبرت المقالة الأولى إذاعة لأخبار كاذبة يترتب عليها تكدير السلم العام ، وأقامت النيابة الدعوى العمومية على الشيخ جاويش لمحاكمته عن التهمتين ، وأحدثت القضية ضجة كبرى ، ونُظرت فى يوليو سنة ١٩٠٨ أمام محكمة عابدين الجزئية ، وتولى الدفاع عن الشيخ جاويش ثلاثة من جهابذة المحامين أعضاء الحزب الوطنى وهم : أحمد لطفى ، وإسماعيل شيمى ، ومحمود فهمى حسين ، وبعد سماع المرافعات قضت المحكمة ببراءة الشيخ جاويش من تهمة نشر الخبر الكاذب ، ومعاقبته بدفع عشرين جنيهاً عن تهمة إهانة وزارة الحربية ، واستأنف الحكم ، فقضت محكمة الاستئناف فى ٣٠ أغسطس ببراءة الشيخ جاويش من التهمتين .

وكان لهذا الحكم صدى قوى ورنة فرح كبرى ، فقد اعتبره المصريون انتصاراً وفوزاً كبيراً للحركة الوطنية ، فقد كان الهدف من هذه المحاكمة إسكات هذا القلم الثائر ، ولكن القضاء العادل خذل الحكومة وأفسد عليها خطتها .

ولم تيأس الحكومة ، بل ظلت تترقب الفرص للإيقاع بالرجل ، وكان الحزب الوطنى وقتذاك فى عنفوان قوته ، وكان محمد فريد وصحبه لا يهدأون لحظة ، ولا يسكتون عن التنديد بالإنجليز وسياستهم وبالاستعمار ومساوئه ، تتوالى اجتماعاتهم العامة ، وتتتابع خطبهم الحماسية ونشراتهم الوطنية ، وجريدة اللواء وراء هذا كله لا تنى لحظة عن مهاجمة الإنجليز وأعوانهم .

عبد العزيز جاويش

وأتت الفرصة أخيراً ، فقد نشر الشيخ جاويش فى ٢٨ يونيو سنة ١٩٠٩

مقالا عن ذكرى دنشواى ، وكلمة دنشواى كانت ترعب الإنجليز دائماً وتقض مضاجعهم ، فقد شوهت هذه الحادثة سمعتهم فى العالم أجمع ، وهم بعد لم ينسوا كيف استغل الزعيم الراحل مصطفى كامل هذه الحادثة فى التنديد بهم فى كل مكان حتى اضطروا إلى سحب عميدهم فى مصر لورد كرومر ، وبالأمس حاكموا الشيخ جاويش عندما كتب مقالته « دنشواى أخرى فى السودان » واليوم يحاكم الشيخ لكتابته عن ذكرى دنشواى .

اعتبرت النيابة هذا المقال طعناً فى حق بطرس غالى رئيس المحكمة المخصوصة التى حاكمت المتهمين فى حادثة دنشواى ، وأحمد فتحى زغلول أحد أعضائها . وتقدم للدفاع عنه أحمد لطفى وإسماعيل شيمى ومحمود بسيونى ، وقضت المحكمة بتغريم الشيخ جاويش ٤٠ جنيهاً .

ولم ترض النيابة عن هذا الحكم فاستأنفته وكانت محكمة الاستئناف برئاسة بوغوص أغوبيان وكيل المحكمة وعضويه المستر كلابرت وإبراهيم يونس القاضيين ، وقضت هذه المحكمة بتعديل الحكم الابتدائى إلى الحبس ثلاثة أشهر .

وأحدث هذا الحكم استياءً شديداً ، ووجم له المصريون ، فقد اعتبروه موجهاً لا للشيخ عبد العزيز بل للحركة الوطنية نفسها . ورفع المحامون نقضاً عن هذا الحكم ولكن النقض رفض ، ودخل الشيخ جاويش السجن وقضى فيه الأشهر الثلاثة ، وكانت محنة عنيفة اجتازها الشيخ فى قوة وصبر وبطولة .

وخرج الشيخ من السجن ليستقبله الشعب استقبال الأبطال الفدائيين ، فقد انتظرته على باب السجن مظاهرة كبرى نظمها طلبة الأزهر والمدارس ، صحبته من السجن إلى منزله واكتتب المصريون لشراء وسام ، وعقدت حفلة كبرى فى فندق شبرد يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٠٩ قُدِّم للشيخ جاويش فيها هذا الوسام باسم الشعب تقديراً له ولجهاده وتضحيته .

وكان من تقاليد الحزب الوطنى فى ذلك الوقت أن يعقد مؤتمراً عامًّا فى أول كل سنة يحضره ألوف المصريين ، ويخطب فيه الزعيم محمد فريد خطبة جامعة يناقش فيها سياسة الحكومة ومشروعاتها ، ويكرر المطالبة بالجلاء مع إيضاح عيوب الاستعمار الإنجليزى ومساوئه ، ثم يتعاقب الخطباء من كبار رجال الحزب

فيتحدثون عن نواحى الإصلاح المختلفة ، وفى مؤتمر يناير سنة ١٩١٠ كان الشيخ جاويش من بين الخطباء ، وكان حديثه عن بعض النواحى الإصلاحية فى التعليم ، فتكلم عن مشروع البعثة الأزهرية ، وعن مشروع إنشاء روضة للأطفال .

وكان للشيخ عبد العزيز جاويش خلال هذا كله جهاد من نوع آخر ، فقد كان يعتقد أن الجهل الفاشى بين المصريين من أكبر أسباب تأخرهم ، لهذا أنشأ فى فبراير سنة ١٩١٠ مجلة أسماها « الهداية » ، تعمل على إفهام المسلمين أسرار القرآن وحقائق الإسلام ، كما عمل على إنشاء المدارس الإعدادية الثانوية والليلية لتعليم اللغة الفرنسية للأزهريين .

هذا الجهاد الدائم الدائب الذى لا يفتر ولا ينى لحظة كان شوكة تخزُ الإنجليز فى كل دقيقة ، وتؤلم الحكومة القائمة فى كل لحظة ، لهذا كان الفريقان يتلمسان الأسباب دائماً للإيقاع بأبطال الحركة الوطنية واضطهادهم وتقديمهم للمحاكمة ، وأتت الفرصة هذه المرة فى ديوان شعر صغير طبعه الشيخ على الغاياتى فى أغسطس ١٩١٠ بعنوان « وطنيتى » جمع فيه قصائده الوطنية ، وقد نشرت هذه القصائد من قبل متفرقة فلم ترَ فيها النيابة ما تؤاخذه عليه ، ولكنها عندما طبعت مجموعة وجدت فيها ما يوجب المحاكمة ، وذلك لأن محمد فريد والشيخ جاويش كتبا مقدمتين لهذا الديوان .

وقدم الأبطال الثلاثة للمحاكمة بتهمة تحبيذ الجرائم والتحريض على ارتكابها وإهانة هيئات الحكومة .

أما محمد فريد فقد كان غائباً فى ذلك الوقت فى أوربا ، فأرجأت المحكمة محاكمته إلى أن يعود ، وأما الشيخ على الغاياتى فقد فر متنكراً إلى الإستانة ومنها إلى سويسرا ، فحوكم غيابيًّا وحكم عليه بالحبس سنة مع الشغل .

وأما الشيخ جاويش فقد قدم للمحاكمة ، وحكم عليه للمرة الثانية بالحبس ثلاثة أشهر مع النفاذ ، ونفذ الحكم فيه فوراً .

وكان لهذا الحكم رنة أسف أخرى لما يتضمنه من معانى الاضطهاد لكل مواطن يعمل لخدمة مصر ويسعى لحريتها ، وكان هذا الحكم نذيراً بالحكم على الزعيم محمد فريد فإنه لم يكد يعود من أوربا بعد جهاده العنيف فى مدنها المختلفة حتى

قدم للمحاكمة وحكم عليه بالحبس ستة أشهر مع النفاذ .

صمد الشيخ جاويش لهذه السلسلة من الاضطهادات ، فما وهن وما ضعف وما لانت قناته ، وحارت الحكومة فى أمره ، وأخيراً اضطرت إلى إبعاده إلى الآستانة فى سنة ١٩١٢ ، وهناك استأنف الشيخ جاويش نشاطه وجهاده ، فأصدر مجلة « الهداية » ومجلة « الهلال العثمانى » ، ومجلة « الحق يعلو » .

وفى هذا السنة أيضاً كان أهل طرابلس يقاومون الغزو الإيطالى مقاومة عنيفة ، فتقدم الشيخ جاويش وتزعم مع بعض زملائه من رجال الحزب الوطنى حركة لجمع التبرعات وإرسال الذخائر وتهريب القواد الأتراك إلى طرابلس لمقاومة هذا الغزو الإيطالى .

وتآمرت الحكومة فى مصر ضد محمد فريد وأوشكت أن تقدمه ثانية للمحاكمة ، فآثر الزعيم الهجرة لاستئناف الجهاد فى الخارج ، وتحايل حتى استطاع السفر إلى الآستانة ، فرحب بمقدمه الشيخ جاويش ، وتعاونا معاً فى تحرير الجريدة التى كان يصدرها الشيخ جاويش باسم « الهلال العثمانى » .

لم ينعم محمد فريد وعبد العزيز جاويش بالهدوء والاطمئنان فى الآستانة ، فقد بدأت المفاوضات بين الحكومة التركية والحكومة المصرية لتسليم من ترى حكومة مصر تسليمهم بمناسبة قضية المنشورات ، وأحس محمد فريد بقرب الخطر ، فأسرع بالسفر إلى جنيف لحضور مؤتمر السلام ، وأوعز إلى الشيخ جاويش بالرحيل ، ولكن الشيخ جاويش آثر البقاء بالآستانة لأنه استبعد أن تقدم الحكومة التركية على تسليمه ، ولكن الأيام أثبتت بعد نظر فريد ، كما أثبتت أن الشيخ جاويش كان أحسن الظن أكثر من اللازم بالحكومة التركية ، إذ لم يمض غير أسبوعين على سفر محمد فريد حتى طلبت الحكومة المصرية القبض عليه وعلى الشيخ عبد العزيز جاويش بدعوى اشتراكهما فى تهمة المنشورات التى ضبطت مع أحمد مختار ، وقبض فعلا على الشيخ جاويش فى أوائل سبتمبر سنة ١٩١٢ وأرسل إلى مصر ، فما قضية المنشورات هذه ؟

حدث فى أغسطس سنة ١٩١٢ أن كان أحمد مختار الطالب المصرى بالمدرسة الحربية بالآستانة عائداً إلى مصر على ظهر إحدى البواخر ، وعند وصول الباخرة إلى الإسكندرية وجد مع هذا الطالب مجموعة من المنشورات الثورية ، فقبض عليه

وبدئ فى التحقيق معه ، وانتهزت الحكومة الفرصة المواتية ، وافترضت وجود جمعية سرية ثورية ، وأن الشيخ جاويش هو الذى يديرها ويشرف عليها ، ويشترك فى تحرير منشوراتها ، واستصدرت النيابة أمراً من الحكومة العثمانية باعتقاله واعتقال عدد من الشبان المصريين المقيمين فى الآستانة ، ورغم أن القانون الدولى لا يبيح تسليم متهم سياسى إلى حكومة أخرى ، فقد أسرعت الحكومة التركية بتسليمهم ، وأحضر الشيخ جاويش وأودع سجن الحدرة بالإسكندرية مدة إلى أن أصدر النائب العام — عبد الخالق ثروت — قراره فى أكتوبر سنة ١٩١٢ بحفظ القضية بالنسبة له .

ورغم هذه الحلقات المتتابعة من الاضطهاد لم يهدأ عبد العزيز جاويش ، ووجّه جهوده فى أوائل سنة ١٩١٤ إلى نواحى الإصلاح الإسلامية العامة ، فقد كان من المؤمنين بفكرة الجامعة الإسلامية ، ولا عجب فى هذا فهو تلميذ من تلامذة مدرسة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، بل إنه كان فى جهاده أقرب إلى جمال الدين منه إلى محمد عبده ، فقد كان مثل جمال الدين صريحاً جريئاً عفيفاً فى جهاده ، وكان مثله يرى أن للدين والوطن المقام الأول ، يغفر لمعارضه كل شىء إلا أن يعرض للدين أو الوطن أو يتهاون فى حقهما .

ففى أوائل سنة ١٩١٤ أنشأ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ثم سافر إلى بيت المقدس ، وأعاد إصلاح كلية صلاح الدين بها ، وتولى إدارتها ، ثم سافر بعد قليل إلى إنجلترا ، وهناك اتفق مع أحد الأغنياء من مسلمى الهند على إنشاء أسطول إسلامى .

وبينا هو يتنقل من الشرق إلى الغرب مجاهداً فى سبيل هذه الإصلاحات الإسلامية العامة إذا بحادث طارئ يرغمه على الهجرة من إنجلترا ، وذلك أن الخديو عباس كان قد سافر إلى الآستانة فى صيف سنة ١٩١٤ ، وهناك اعتدى عليه طالب مصرى وأطلق عليه الرصاص يريد قتله ، وبدأت سلسلة جديدة من التحقيقات والقبض على رجال الحزب الوطنى وشبابه ، وأحس جاويش أنه يكون دائماً موضع الشك بالحق وبالباطل فى كل حادثة تحدث ، وخشى أن تعمل الحكومة الإنكليزية على تسليمه للحكومة المصرية ، فخرج من إنجلترا متنكراً

واتجه إلى باريس .

وقامت الحرب العظمى الأولى ، وأعلنت إنجلترا الحماية على مصر ، ومنعت الخديو وكبار الزعماء المصريين من العودة إلى مصر .

وبدأت الحكومة التركية تعمل لاسترداد مصر ، وأعدت فى سنة ١٩١٥ حملة من الجيش التركى لاستخلاص مصر من الاحتلال الإنجليزى ، واشترك مع هذه الحملة الشيخ عبد العزيز جاويش ونفر من رجال الحزب الوطنى ، غير أن هذه الحملة لم توفق فى مهمتها .

ولم ييأس عبد العزيز جاويش فقد كان يرى أن الجهاد ممكن فى كل بلد وفى كل مكان ، فقضى السنوات التالية ، من سنة ١٩١٥ إلى ١٩١٨ متنقلا بين ألمانيا وتركيا والشام يعمل لهدف واحد هو استقلال مصر ، وأنشأ فى هذه الفترة مجلات كثيرة فى كل بلد يحل به ، ففى ألمانيا كان يصدر باللغة الألمانية مجلة اسمها : "Die Islamische Welt"

وفى إستانبول كان يصدر باللغة العربية مجلة « العالم الإسلامى » ، وفى سويسرا كان يصدر بالفرنسية مجلة (l'Egypte) للدفاع عن استقلال مصر .

وكان لا يترك مؤتمراً عالميًّا يعقد فى بلد من البلاد إلا قصده مع كبار رجال الحزب الوطنى ، وحاول معهم الدفاع عن قضية مصر وحريتها ، وقد نجح فى استخلاص الاعتراف باستقلال مصر من مجلس المبعوثان بالآستانة ومن مجلس الريخستاغ بألمانيا ، وذلك فى سنة ١٩١٧ كما اشترك فى مؤتمر الدفاع عن الأمم المهضومة الحقوق فى استكهولم .

وكان الزعيم محمد فريد يتنقل فى ذلك الوقت ما بين تركيا وسويسرا وألمانيا ، يدعو لقضية مصر ، يتقابل مع الشيخ جاويش تارة ويفترق عنه تارة أخرى ، إلى أن كانت سنة ١٩١٨ وقد انتهت الحرب بهزيمة تركيا وألمانيا وانتصار الحلفاء ، وكان الشيخ جاويش يقيم فى الآستانة وقتذاك ، فأدرك أن الحلفاء لابد ملقون القبض عليه ، فترك هو وزملاؤه تركيا خفية إلى روسيا ثم إلى سويسرا إلى أن انتهوا إلى ألمانيا .

وفى سنة ١٩١٩ قامت الثورة المصرية الأولى ، ووصلت أخبارها إلى فريد

وصحبه فى منفاهم البعيد ، فأثلجت صدورهم ، وأرسل فريد من المصحة التى كان يستشفى بها رسالة إلى المصريين بعنوان « صوت من وراء البحار » أعلن فيها سروره بهذه النهضة الوطنية القوية ، وشجعهم على مواصلة الجهاد والتضامن والاتحاد ، وكانت هذه الرسالة آخر ما كتب فريد قبل وفاته ، فإنه لم يلبث أن اشتد به المرض ، وكان يعانى هو وصحبه الشدائد من الفقر والضيق المالى ، وأخيراً عجز الطب ولبى فريد نداء ربه فى ١٥ نوفبر سنة ١٩١٩ ، وشيعت جنازته فى احتفال مهيب سار فيه المصريون وفى مقدمتهم الشيخ عبد العزيز جاويش وعدد كبير من الشرقيين والألمان ، وقبل تحرك الجنازة رثاه الشيخ جاويش بكلمة مؤثرة قوية .

وفى سنة ١٩٢٢ كانت الأحوال قد استقرت فى تركيا ، وتولى الحكم فيها مصطفى كمال ، وهو صديق قديم للشيخ جاويش ، فأرسل يستدعيه وعيّنه رئيساً للجنة الشؤون التأليفية الإسلامية بأنقرة ، غير أن عبد العزيز جاويش لم يلبث أن اختلف مع صديقه مصطفى كمال ، فقد كان جاويش كما قلنا من المؤمنين بفكرة الجامعة الإسلامية ، وكانت نزعة مصطفى كمال تركية خالصة ، فبدأ يعمل لإلغاء الخلافة ، ولم يوافقه جاويش على هذه الفكرة ، ولهذا استقال من وظيفته .

وكان تصريح ٢٨ فبراير قد أعلن فى مصر كما أعلن الدستور ، وبدأت الحكومة تعمل لبدء الحياة النيابية ، وكان الشيخ جاويش لا يزال يرنو إلى وطنه مصر بعد هذه الغيبة الطويلة ، يريد أن يعود إليه بعد هذه الرحلة المضنية ، وبعد هذا الجهاد العنيف ، غير أن الأمور كانت لا تزال فى الواقع فى أيدى الإنجليز ، ولم يكن من المعقول أن يسمحوا لعدوهم القديم بالعودة إلى مصر ، فهم يخشون بأسه ويخشون لسانه وقلمه .

لهذا لجأ الشيخ جاويش إلى طريقته القديمة فى التخفى ، وأصبح المصريون فى ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٣ وهم يقرأون فى جميع الصحف مقالا بتوقيع عبد العزيز جاويش عنوانه « تجديد العهد » ، وتساءل الناس فعلموا أن البطل المناضل قد عاد إلى الوطن بطريقة ما ، وإن كانوا يجهلون أى طريقة هى ، هل عاد بطريق الجو أو بطريق البر أو بطريق البحر ؟ ومن الذى أعانه على العودة والدخول إلى مصر ؟ لا أحد يعلم .

وبعد عشرة أيام من عودته صرحت له الحكومة المصرية بالإقامة فى مصر ، وكان رئيس الوزارة فى ذلك الوقت هو يحيى إبراهيم .

وفى سنة ١٩٢٥ عينته وزارة المعارف مراقباً عاماً للتعليم الأولى ، وللشيخ جاويش جهود قديمة فى سبيل العلم والتعليم ، فرحّب بهذه الوظيفة وبذل جهوداً موفقة ووضع كثيراً من النظم لتعميم هذا النوع من التعليم ومحو الأمية .

وفى خلال هذه المدة كان يشارك فى معظم الحركات الإصلاحية التى نبتت فى مصر ، فأسّس جمعية المواساة الإسلامية فى القاهرة ، وانتخب وكيلا لجمعية الشبان المسلمين منذ إنشائها ، ووكيلا لنقابة الموظفين الخارجين عن هيئة العمال ، وكان يتردد كثيراً على جمعيتى الهداية الإسلامية ومكارم الأخلاق الإسلامية ، يحاضر فيهما ويشارك فى تحرير مجلتيهما .

وللشيخ جاويش من الآثار القلمية — غير مقالاته وخطبه وغير رسالة « الإسلام دين الفطرة » ، رسالة صغيرة أخرى تضم مجموعة من المحاضرات ألقاها فى مدرسة دار العلوم بعنوان « أثر القرآن الكريم فى تحرير الفكر البشرى، » ورسالة ثالثة عنوانها «مرشد المعلمين فى التربية » ورسالة رابعة عنوانها « غنية المؤدبين » .

وفى ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩ كان الشيخ عبد العزيز جاويش قد بلغ الثالثة والخمسين من عمره ، وكان الكتاب قد بلغ أجله ، فتوفى الرجل فجأة بعد هذه الحياة القصيرة الحافلة بالجهاد والتضحية والفداء والأمجاد ، رحمه الله رحمة واسعة بقدر ما أدى لوطنه ودينه .

فهرس الصور والرسوم

صفحة

فهرس الموضوعات

صفحة

صدر من السلسلة

٢٣ - أرض كليوباترا

٢٤ - زينات

٢٥ - أعلام من الاسكندرية - الجزء الأول

٢٦ - أعلام من الاسكندرية - الجزء الثانى

٢٧ - شريعة الصحراء

٢٨ - ديوان حافظ إبراهيم - الجزء الأول

٢٩ - ديوان حافظ إبراهيم - الجزء الثانى

٣٠ - القصة القصيرة فى مصر

٣١ - رسالة الكلم الثمان

٣٢ - نتائج الأحوال فى الأقوال والأفعال

٣٣ - قصة الأدب فى العالم - الجزء الأول

٣٤ - قصة الأدب فى العالم - الجزء الثانى - القسم الأول

٣٥ - قصة الأدب فى العالم - الجزء الثانى - القسم الثانى

٣٦ - قصة الأدب فى العالم - الجزء الثالث

٣٧ - حكايات الشطار والعيارين فى التراث العربى

٣٨ - تولستوى - محمود الخفيف

٣٩ - باريس

٤٠ - الشوقيات المجهولة - الجزء الأول

٤١ - الشوقيات المجهولة - الجزء الثانى

٤٢ - شخصيات تاريخية

٤٣ - أساطير الحب والجمال عند اليونان - الجزء الأول

٤٤ - أساطير الحب والجمال عند اليونان - الجزء الثانى

٤٥ - عصر ورجال - الجزء الأول

٤٦ - عصر ورجال - الجزء الثانى
٤٧ - المآسى التاريخية الكبرى
٤٨ - المدائح النبوية فى الأدب العربى
٤٩ - ديوان صالح الشرنوبى الجزء الأول
٥٠ - ديوان صالح الشرنوبى الجزء الثانى
٥١ - حياتنا التمثيلية
٥٢ - التلميذة الخالدة

ذاكرة الكتابة
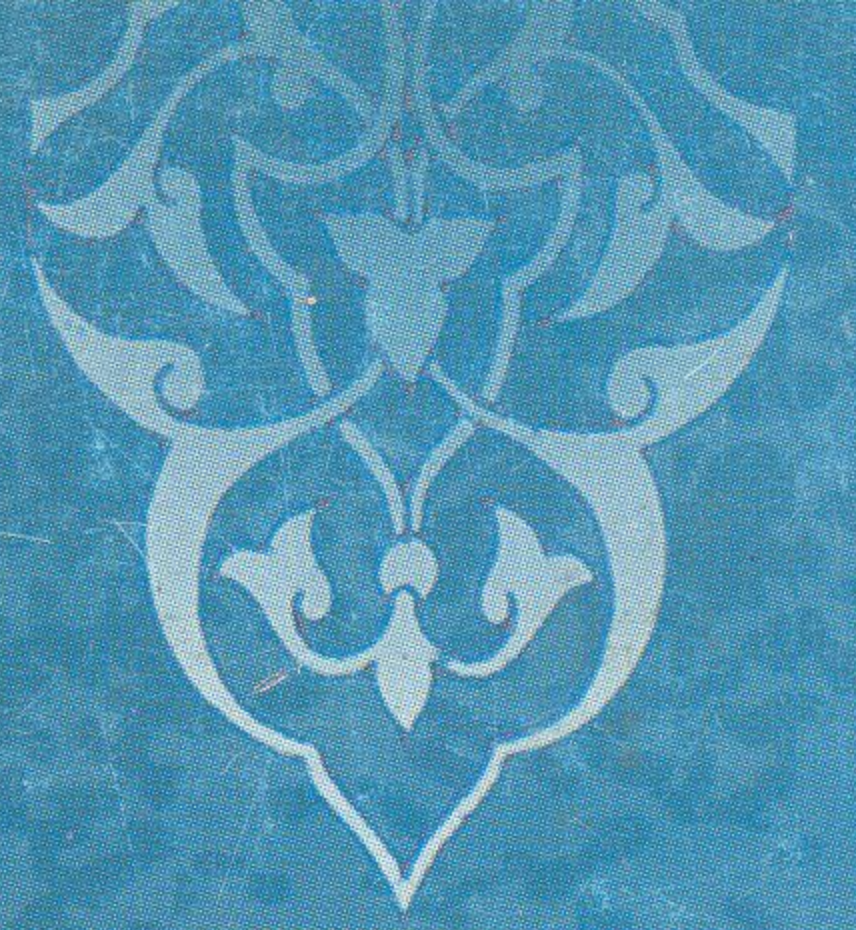
الدكتور جمال الدين الشيال « ١٩١١ - ١٩٦٧ » هو أحد المؤرخين البارزين فى العصر الحديث ، وقد قدم للمكتبة العربية مجموعة من الدراسات التى تحتل مكانة أساسية باعتبارها مراجع لا غنى عنها لأى باحث أو مؤرخ ، ومن هذه الدراسات : رفاعة الطهطاوى - مجمل تاريخ دمياط - تاريخ الترجمة فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية - تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عهد محمد على - الحركات الإصلاحية فى الشرق الإسلامى الحديث. وهذا الكتاب الذى تقدمه سلسلة « ذاكرة الكتابة » هو أحد الكتب المهمة التى قدمها الدكتور الشيال للمكتبة العربية ، تفصيلية وافية عن حياة وجهود عدد من قادة الفكر وجذبوا إليها وإليهم طلبة العلم من مشارق العالم الإسلامى ومغاربه وفى مقدمتهم الصحابى الجليل « أبو الدرداء » ، ومن بينهم أيضا : أبو بكر الطرطوشى وأبو الحسن الشاذلى وأبو العباس المرسى والقبارى وابن عطاء الله السكندرى ومن أعلام العصر الحديث : محمد كريم وعبد الله النديم وعبد العزيز جاويس . والكتاب حافل بالمعلومات الدقيقة والجهد العلمى الرائع وقد كتبه العالم الجليل الدكتور الشيال بأسلوبه الواضح السهل الجميل ، مما يجعل الكتاب عملا فريدا ليس له ما يغنى عنه فى المكتبة العربية .

الشركة الدولية للطباعة

الثمن : ثلاثة جنيهات